

الكتاب العربي السعودي ٥٥

محمد علي مغربي

ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز

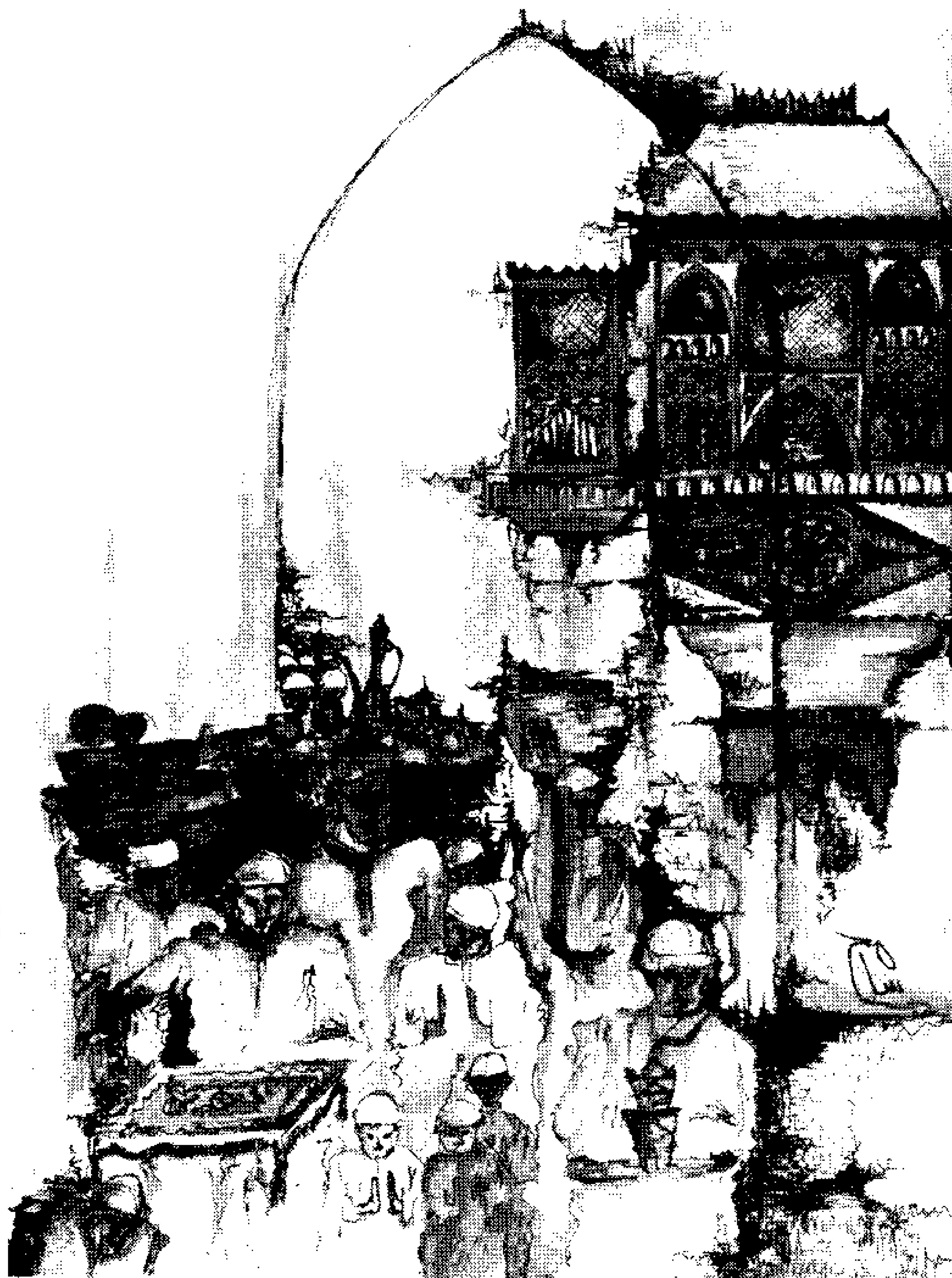
« جميع الرسومات الداخلية للكتاب بريشة الفنانة السعودية صفية بن زقر »

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

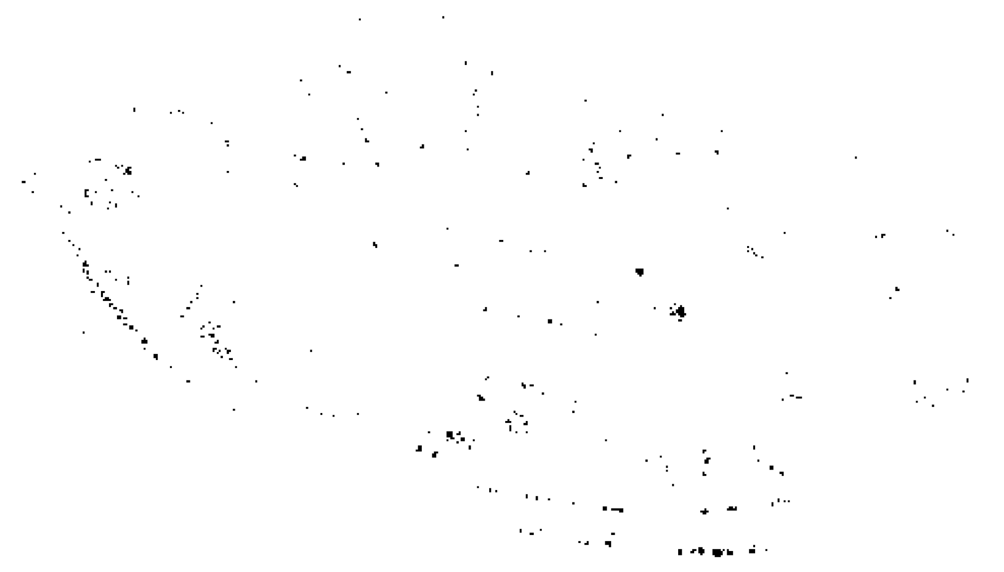
ملامح الحياة الاجتماعية







في الحجاز



تأثيث البيت

بعد أن تتم رؤية المجلس الذي ستسكن به العروس مع عريسها، يبدأ أهل العروس في شراء أثاث البيت، ذلك أن المصطلح عليه بين الناس في ذلك الزمان، أن الصداق إنما يستعمل في تأثيث بيت الزوجية، وكثيراً ما كان هذا التأثيث عبئاً على والد العروس، وكان الله في عونه إن كانت له بنات كثيرات، وإن كان تزويجهن في وقت واحد. فكثيراً ما كان يتم خطبة اختين لأخوين، أو تتم خطبة لاحقة للبنت الأخرى، وقد عرفت رجلاً زوج بناته الثلاث وأخته في وقت واحد، وصرف كل ما ادخره من المال لإتمام هذه الزيجات.

يبادر والد العروس بشراء الأثاث، وأول ما يبدأ به هو شراء «الجلايل» (مفردها جلالة)، وهو السجاد الذي يفرش به المجلس، وهو أهم مكان في البيت، وكان هناك تجار من أصل إيراني في مدينة جدة، يستوردون السجاجيد الفارسية بأنواعها للبيع، وكانوا يسمون النوع الجيد الكبير الحجم «جلالة رومي» وهو النوع الكرماني المعروف في الوقت الحاضر، كما أنه كانت ترد إلى البلاد في العهد العثماني سجاجيد تركية كبيرة غالية الثمن، والمتوسط من السجاجيد كان من النوع الشيرازي وما إليه، وكان ثمن السجادة المتوسطة بضع جنيهات، فإذا كان المجلس كبيراً ربما ذهب المهر كله في قيمة السجاد، فإذا تم شراء السجاد، وهو أهم شيء في البيت، ذهب المنجد لأخذ قياس الرواشين لعمل المساند والطواويل والمخدات التي سبق وصفها في وصف المجلس، وهذا إنما يتم قرب الزواج، واختيرت الكسوة للمساند والسجاجيد من القماش الدمسك الذي سبق وصفه، حتى تنقل إلى بيت العريس دون أن تمسها الأيدي، أما الكراويت وهي الدكاك الخشبية، فتقوم أسرة العريس بإعدادها في مكانها من المجلس، بعد فرش أرضية البيت بالحصير الهندي، استعداداً لاستقبال الأثاث الذي كان يسمى «الدَّبَش» أما كسوة العروس وملابسها فتتكفل بها نساء الأسرة، وعلى رأسهن والدة العروس، وبعد إتمام الخطبة وقراءة الفاتحة ترد الهدايا إلى والدة العروس من القريبات والصديقات من النساء، وهي من أجمل الأقمشة الحريرية الموجودة في الأسواق، ويفضل منها للعروس كل ما زهى لوناً، ونعم ملمساً. ويجتمع النسوة في يوم يحدد وذلك بعد اجتماع الكثير من هذه الهدايا، مع ما يشتريه والد العروس، مما يعتبر أحسن الأنواع وأغلاها، ليوزع على القريبات والصديقات لتتولى كل منهن

خياطة هذه الملابس وإصلاحها، و يسمون ذلك «السُّخْرة» والمعنى أن كل واحدة منهن تُسَخَّرُ للقيام بعمل من هذه الأعمال دون مقابل، فهي سخرة تكليف دون جزاء، إلا في مناسبة مماثلة، وهكذا فإن التعاون كان يسود أفراد الأسرة، فلا يصرفن الكثير للخياطات أو من يقمن بأشغال اليد، وإنما يتكفل بمعظم ذلك الأهل والصديقات، و يستثنى من ذلك فستان أو اثنان تؤجر خياطتها لدى إحدى الخياطات الشهيرات، وكان معظمهن من السيدات التركيات أو السوريات.

حفلات العُرس

يتم الاتفاق على تحديد ليلة العرس بين الأسرتين المتصاهرتين، وتطبع لذلك البطاقات، وهي خاصة بأسرة العريس فقط، ولا يشترك فيها أهل العروس، بل إن أغلب مظاهر الفرح والاحتفالات إنما تكون في بيت العريس، أما أهل العروس فلا يطبعون بطاقات دعوة، وإنما يكتفون بدعوة أهلهم وأصهارهم شفاهاً له هذا فيما يتعلق بالرجال، أما النساء، فإن الدعوة لهن عامة، وهناك سيدات تخصصن لهذه الغاية، يتفق أهل العروس معها مقابل أجر معين على القيام بهذه المهمة، وتحضر مساء كل يوم إلى والدة العروس تعد لها البيوت التي زارتها، ومن استقبلها من السيدات وكيف وجهت الدعوة إليهن لحضور الدخلة، وكان بعض السيدات يختصصن هذه المرأة الداعية ببعض النقود، فتذكر ذلك لوالدة العروس حتى تستطيع أن تقابل الفضل بمثله، في مناسبة قادمة، أما بيت أسرة العريس فيفتح قبل أسبوع من اليوم المحدد للقران، وخاصة إذا كان الاحتفال كبيراً، ذلك أن الناس كانوا يقيمون حفلات العرس في بيوتهم، و يستعينون ببيوت الأقرباء والجيران إذا اقتضى الأمر ذلك، فلم تكن هناك فنادق ولا أماكن عامة لإقامة الحفلات والأعراس، و يستعد أهل العروس بإطعام الأصدقاء والأقرباء الذين يتجمعون قبل بضعة أيام لاختيار مكان العقد، و يستحسن أن يكون في مكان مرتفع، فإذا كانت هناك دكة مبنية من الحجر مشرفة على المكان، فهي المكان المناسب الذي يخصص للعقد والذي يجلس فيه «المأذون» وكانوا يسمونه «المُمْلِكْ» مع العريس ويجلس فيه أهل العروس حين حضورهم مع بعض الأعيان من المدعوين، وإذا لم يوجد هذا المكان المرتفع، أحضروا بعض النجارين لعمل دكة عالية متينة من الخشب، وكانوا يسمونها «تختبوش» وهي كلمة تركية أو فارسية معناها التخت، وهو السرير الذي يعلو عن الأرض، وتدار الدكاك حول هذا التختبوش، أو حول تلك



صورة لصك الخلخال

الدكة العالية، وكانت هذه الدكاك المخصصة للأفراح موجودة في مدينة جدة، يستأجرها الناس ويحضرونها إلى مكان الأعراس، وعلى أي حال فإن كل أقرباء أسرة العريس وأصدقائها وجيرانها يشتركون في الاستعدادات الخاصة بالفرح، فالبعض يساعد النجارين الذين يصنعون التختبوش ويزينونه، أو يزينون بالأقمشة الزاهية الملونة، ثم يأتي دور فرش الدكاك والتختبوش قبل يوم أو يومين من الموعد المحدد لعقد القران، فيخرج أهل الفرح مالديهم من مساند وسجاجيد لفرش مكان العقد والدكاك الكثيرة التي تتسع لمئات الناس، وبطبيعة الحال فإن ما لديهم يكون محدوداً، وهنا يسارع الجيران خاصة والأقارب بإحضار الباقي من بيوتهم عارية مشكورة، تعاد إليهم بعد إتمام حفلة العرس ولا يقتصر الأمر على الفرش، وإنما يحضرون كذلك بعض الشيش (جمع شيشة) لاستعمال المدعوين، وبعض الأواني الثمينة كمباخر العود، وبراريد الشاي الكبيرة، أما الأشياء القابلة للكسر كالفناجيل والكاسات وما إليها، فهذه تشترى بكميات مناسبة، وعلى أي حال فإن هناك من يقوم بتأجير هذه الأشياء مع الصحون الكبيرة اللازمة لإطعام المدعوين، والأهل والأقرباء.

يجتمع أهل العريس وأقرباؤهم وأصدقاؤهم، فيشترك البعض أولاً في كتابة غلافات البطاقات التي توجه بها الدعوة إلى الناس، وهذه الدعوة تشمل معظم أهل البلدة تقريباً رجالاً وفتياناً، وتسلم إلى موزع البريد الوحيد في البلدة، وكان اسمه الشيخ حسين ملوخية وهو يتولى بمعرفته توزيع هذه البطاقات وإيصالها إلى أصحابها، وكما ذكرنا فإن الدعوة تشمل حضور عقد القرآن، وتناول طعام الغداء في اليوم التالي للعرس.

فإذا تم الفراغ من أمر بطاقات الدعوة، اجتمع الأهل والمقربون لتعبئة حلاوة العرس، وكانت هذه الحلاوة تصنع محلياً، واسمها اللوزية، وهي عبارة عن سكر بداخله اللوز الحجازي، ويقوم أحد الحلوانية بعملها وإحضارها إلى بيت العريس، وتكون هناك بعض الأقمشة من الشاش الأبيض الخفيف قد أحضرت فتوضع في كل صرة كمية مناسبة من هذه الحلوى اللوزية وتُصَرُّ، وربما احتوت الصرة الواحدة على عشر أو خمس عشرة حبة من هذه الحلاوة، التي تكون على شكل مكور أو مستطيل قليلاً، فإذا تم إعداد الحلاوة وضعت في معاشر خاصة بها، والمعشرة هي عبارة عن إناء مستدير من الخوص المشغول، يشبه التبسي في استدارته، فترص صرر الحلوى في هذه المعاشر التي تغطى بغطاء من القطيفة الملونة، محلى ببعض المعادن الصغيرة، وتزين أطرافه كتل من الحرير الخفيف المنسوج ويسمى هذا الغطاء «البوش» ولعلها كلمة تركية أو فارسية، والله أعلم، ولاتزال هذه المعاشر مع أغطيتها موجودة حتى الآن، ولها بقايا في مدينة جدة بالذات، وإن كان التطور الآن أن علب الحلوى المستوردة من الخارج، والمختلفة الأحجام والأثمان، توضع في صحون كبيرة من الفضة، أو من المعدن الثمين، حيث توزع على المدعوين.

وتعمل الحلوى بكميات كافية بحيث تكفي المدعوين من الرجال والنساء، كما ترسل منها كمية مناسبة إلى بيت العروس حسبما يأتي وصفه بعد.

* * * *

الدَّبْش

قبل الموعد المحدد لعقد القران بيومين أو ثلاثة، يرسل أهل العروس جهاز ابنتهم إلى بيت الزوجية، و يسمى هذا الجهاز الدبش، وكانوا يحتفلون بإرساله احتفالاً عظيماً، يشترك في حمله أكبر عدد من الناس، حتى تراه البلدة كلها، فالسجاجيد والمساند والمخدات والفرش بصورة عامة، توضع فوق عربات تجرها البغال والخيل، وتسمى عربات الكارو، وهي العربات التي تنقل البضائع من الميناء إلى مخازن التجار، و يستدعي والد العروس أحد كبار حمالي الزملة وهم الحمالون المسؤولون عن النقل داخل المدينة، ليحضر العربات ويحضر معها عشرين أو ثلاثين رجلاً وفتى، فإذا ما وضعت الأشياء الثقيلة، كالصندوق السيسم والسجاد والمخادّ والمساند، وما إليها، فوق العربات، تولى الرجال والفتيان الباقون حمل الأشياء الباقية، و يعتنى بإظهار الأشياء الثمينة، كمبخرة العود التي تكون من الفضة الخالصة، وكذلك أغطية شراب الماء التي تكون كذلك من الفضة، بل وكان البعض يلبس قبقاب الحمام بالفضة، أو بمعدن يشبهها، وتأتي بعد ذلك آنية الشاي فالسماور أو السموار يجب أن يكون كبير الحجم، وهو إما من المعدن الأبيض أو النحاس الأصفر، ومعه فناجين الشاي التي توضع لها ملازم من الفضة لتمسك بها يد الشارب، وكذلك البراريد، وآنية الأكل من الصحون والزبادي توضع في تبسي من النحاس الأصفر، والاتريك الذي يضيء المجلس والفانوس الذي يوضع في البيت، وكل ما يلزم للبيت من آنية، و يسير هذا الموكب في شوارع المدينة من بيت العروس إلى بيت العريس، والحمالون الذين يحملون الجهاز يغنون و يصخبون و يشاركهم صبية البلدة الذين يمرون بهم والذين يتندرون على حامل القبقاب يعيّرونه بحمله، ولا يذهب من أهل العروس إلا أشخاص قليلون، فإذا وصلوا إلى بيت العريس رُحّب بهم وانطلقوا إلى المجلس المعد للعروس، فقاموا بفرشه ومعهم المنجد الذي قام بصنع الفرش وتنجيده، وربما ظهر لهم بعض النقص فأرسلوا في استكماله من بيوتهم، والعادة أن أهل العريس لا يشتركون في حضور هذا العمل، وإنما يتركونه لأهل العروس، و بعد خروجهم يكملون النقص إن وجد، فإذا أتموا فرش البيت ووضعوا كل شيء في موضعه، دعوا إلى تناول الطعام قبل انصرافهم، حتى ولو حضروا في غير وقت الطعام فإن أهل العريس يسرعون بإعداده، حالما يعلمون بأمر قدومهم، هذا وتكون ملابس العروس في داخل صندوق

السيسم المقفول معبأة في البقش، وتبقى كذلك إلى أن تحضر والدة العروس أو بعض أهلها معها في ليلة الدخلة حيث يتولون أمر هذه الملابس لعروسهم.

ليلة العرس

يجتمع المدعوون في بيت العريس ليلة العرس، أما الأقرباء والأصدقاء والجيران فهم متواجدون من قبل بضعة أيام، يعملون في تهيئة مكان الحفل وتجهيزه، ويكون هناك الطعام جاهزاً لإطعامهم ظهر كل يوم ومساءه، فالطباخ أعد مكانه قبل أيام من ضمن ترتيبات الفرح، وقد أحضر آنيته ومساعديه، وهناك من يتولى تنظيم هذه الأمور مع الطباخ، فيعين له عدد الذبائح التي تذبح يومياً، ومقدار ما يرسل للنساء وما يرسل للرجال، وهؤلاء هم أهل الخبرة بهذه الأمور، وقد أدركت أشهرهم وهو المرحوم الشيخ درويش سندي في مدينة جدة، وكان نافذ الكلمة في كل ما يشير به على الناس، وهناك آخرون لا يشتركون إلا في بعض الأعراس والمناسبات الخاصة بأصدقائهم وأقربائهم، والقهوجي كذلك أحضر آنيته ومعاونيه لتقديم الشاي والقهوة إلى الحاضرين، وهناك من يقومون بتوزيع كؤوس الماء البارد المثلج، ويكون مكان الحفل قد أضيء بالأتاريك الكبيرة وهي نوعان منها النوع المعلق، وهذا تعمل له قواعد خشبية متينة تثبت في الجدران المحيطة بمكان الفرح وتعلق بالذات أمام المنازل في مكان الحفل، والنوع الثاني يسمى الجلاسي وله قاعدة بحيث يتسنى وضعه في الأرض أو على الموائد الكبيرة التي تنتشر أمام الدكاك، وفي موضع العقد، كما يوضع أتريك في كل غرفة من غرف البيت أو البيوت المقام فيها العرس، وهذه الأتاريك هي مصابيح كبيرة تضاء بالغاز «الكيروسين» أما المصباح نفسه فمن قماش خاص لا يحترق يسمونه كبوت، وهو محاط بالزجاج الشفاف، وكانت هذه الأتاريك أو المصابيح يملكها رجلان في جدة، أولهما الشيخ محمد حسين الأصفهاني جد الأستاذ محمد حسين الأصفهاني، وهو أول من أدخل هذه المصابيح إلى مدينة جدة، وكان الذي يتولى أمورها قريب لهم اسمه الحاج مرزا، والثاني هو الشيخ الماس خميس وقد أصبح مشهوراً بهذا العمل فيما بعد، ولم يبطل العمل بهذه المصابيح إلا بعد دخول الكهرباء إلى مدينة جدة. إذا اجتمع المدعوون وتكامل عقدهم انتدب أهل العريس شخصاً أو اثنين ليدعوا أهل العروس، وحينما يذهب هؤلاء المندوبون يأخذون معهم معاشر الحلوى الخاصة ببيت العروس، فيستقبله أهل العروس مرحبين، وبعد تناول القهوة يتم توزيع الحلوى التي أحضرها هؤلاء المندوبون على المدعوين، ثم يدعوهم



صورة الدبش

للذهاب معه إلى بيت العريس، ذلك أن الحفلة الكبرى للرجال إنما تقام في منزل العريس، وليس في منزل العروس، فإذا قدم أهل العروس واستقر بهم المقام أديرت عليهم القهوة، ثم حضر العريس مع المأذون، ويكون العريس مع أصدقائه في مقعد بعيد عن مكان العرس، وقد استعد لهذه الليلة فحلق وتعطر، ثم ألبس الجبة والعمامة، وحين خروجه يستقبله المنشدون وأشهرهم المرحوم الشيخ حسن جاوة، والكردوس، يقف العريس ومعه المأذون فقط، ومن خلفه خاصة أصدقائه وأهله، فينشد له المطربون مقدمين له التهنئة شعراً، يشمل اسمه واسم عائلته والشكر للحاضرين، ثم يسير ومعه المأذون إلى مكان الحفل، فيقوم المأذون بمراسم العقد ثم يتبعه المنشد أو المنشدون بإنشاد ما لديهم من الشعر، وكثيراً ما تلقى خطبة من أحد أصدقاء العريس أو من تلاميذ المدارس يهنىء بها العريس متمنياً له حياة زوجية سعيدة، ويشكر الحاضرين. وفي هذه الأثناء تدار معاشر الحلوى على الحاضرين، فإذا تم توزيعها قام العريس ومعه المأذون واصطف معه أهل العروسين لتقبل التهاني من المدعوين، وتتم بهذا الحفلة الأولى في تلك الليلة وهي حفلة العقد.

هذا هو التقليد الذي كان متبعاً في مدينة جدة، ونستطيع أن نقول: إن الناس في مكة المكرمة يمارسون نفس هذا التقليد باستثناء أمرين: الأمر الأول: أن والد العروس في مكة يقوم بتأثيث المجلس ولا يلتفت إلى الغرف الأخرى الملحقة به، بل يقوم العريس أو أهله بتأثيثها، الأمر الثاني: أن حفلة عقد القران لاتقام في بيت العريس وإنما تقام في بيت العروس، ذلك أنه إذا تجمع المدعوون في بيت العريس ذهبوا جميعاً يتقدمهم العريس والمأذون وأمامهم حملة مباخر العود، ويمشي من خلفهم كافة المدعوين يتقدمهم موكب الإضاءة الذي ربما تكون من عشرين شخصاً، يحملون الأتاريك الكبيرة على رؤوسهم فإذا وصلوا إلى بيت العروس خرج والد العروس وبعض أهله وأصدقائهم مصطفين لتحيتهم والترحيب بهم، وحينئذ يقف الموكب حيث ينشد المنشدون قصائد التهنئة والتبريك، ثم يجلسون في المكان المخصص لهم، وكل المكان تقريباً هو مخصص لهم، لأنه من المعروف أن العريس يحضر ومعه مدعوون كثيرون، وتكون الحلوى قد سبق إرسالها إلى بيت العروس، فتتم المراسم التي وصفناها سابقاً إلى أن يصطف الجميع للتهنئة بالزواج.

الدُّخْـلة

إذا انتهت حفلة عقد القران تفرق الكثير من المدعوين، إلا الأهل والأصدقاء والجيران، فهؤلاء يقوم أصحاب العرس بتقديم عشاء خفيف لهم يسمى التعتيمة، وهي عبارة عن مائدة كبيرة تحتوي على الكعك والمعمول وأنواع الحلويات والأجبان والزيتون التي يستعد كل بيت فيه عرس بعملها، وخاصة الكعك والمعمول، وهذا المعمول هو عبارة عن أقراص مستطيلة من الدقيق تعجن بالسمن والسكر، ويوضع في داخلها معجون التمر بعد إخراج النوى منه ثم تخبز في الفرن، أما الكعك فهو أقراص صغيرة مدورة تعجن بالسمن، وتحشى باللوز والسكر ثم تخبز في الفرن، وهذه دائماً تقدم للحاضرين صباحاً ومساء في كل من بيت العروس والعريس، أما الحلويات فهي الطحينية، والمهجمية واللدو واللبنية والهريسة، وكثير من هذه الأصناف لايزال باقياً حتى الآن. بعد مضي ساعة أو أكثر على انتهاء حفلة العقد، يعود الناس مرة أخرى، وخاصة الأصدقاء والجيران، لحضور حفلة الدخلة، وفي الساعات التي تفصل بين حفلة العقد وحفلة الدخلة أو حفلة القران، يتحلق الناس حول المطربين من المغنين الذين أحضروا خصيصاً من مكة المكرمة لإحياء هذه الحفلة، وكما ذكرنا فإن أشهرهم كان المرحوم الشيخ حسن جاوة والمرحوم الشيخ



صورة تمثل خرجة العريس

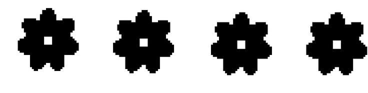
الكردوس، وكنت أسمع باسم المطرب صالح حلواني ولكني لم أدركه، و يبدأ المغني في الغناء الذي يبدأ بالجس، والجس هو إنشاد أبيات قليلة من الشعر، فإذا انتهى منها أبدى السامعون إعجابهم بنغمة مشابهة للنغمة التي يختتم بها المغني هذا الإنشاد، وكثيراً ما يجتمع شبان الحارة حول المغني من خلف الدكاك المنصوبة مجاو بين على إنشاده وتشجيعه، وكان هؤلاء المغنون من أصحاب الأذواق والفراسة، فهم يغنون لكل طبقة ما يعجبها و يروقها، فإذا كان أغلب السامعين من فتيان الحارة، كان الغناء من الشعر الذي يعجب به الفتيان من الناس، وإن كان فيهم المتعلمون والمثقفون، سمعت شعراً حديثاً حسن اللفظ جميل المعاني، وهكذا وفي هذه الأثناء تدار أكواب الشاي على الحضور، وتصلح الشيش للمدخنين، فإذا مضى من الليل أغلبه يكون قد آن الأوان للذهاب بالعر يس إلى بيت العروس حيث يزف إلى عروسه، و يراها لأول مرة، وهذا الذهاب يجب أن يسبقه اتفاق بين الأسرتين على الموعد الذي تكون فيه العروس حاضرة للزفة، لأن وفداً من نساء بيت العر يس يضم والدته وأخواته وخالاته وعماته و بعض الصديقات المقربات، يجب أن يسبق الرجال إلى بيت العروس، و يسمى هذا الوفد «النصاصة» أو على الأصح النصاصات (مفردها نصاصة) وهن اللاتي ينصصن العر يس أو يحطن به حين دخوله إلى المكان الذي فيه العروس، وكان هذا المكان اسمه «الر يكة» وسنتحدث عمّا يكون في بيت العروس بتفصيل فيما بعد. و يقوم موكب العر يس بنفس الأسلوب الذي وصفناه سابقاً، يتقدمه حملة الأتار يك ويحيط به أصدقاؤه وأهله وأقر باؤه، فإذا وصل الموكب إلى بيت العروس وقف الموكب وأنشد المنشدون ثم أجلسوا على الدكاك في انتظار الإذن للعر يس بالصعود إلى الدار لرؤ ية العروس، وفي هذه الأثناء تدار القهوة والشاي و يستمر المغنون في الإنشاد، وربما مكثوا إلى أن ينبلج نور الصباح، فيدعى العر يس لرؤ ية عروسه، وما أن يدخل العر يس إلى داخل الدار حتى يتفرق المجتمعون كل إلى داره، فلا يبقى إلا أهله وذووه. فإذا أقبل العر يس استقبلته أمه والنساء النصاصات اللاتي معها، واستقبله كذلك من السلالم «الزفافات» وهن مجموعة من النساء يضر بن الدفوف، و يغنين غناءً اسمه الزفة، وهو نفس ما يعمل للعروس حينما تخرج من حجرتها لتذهب إلى مكان الر يكة، فإذا وصل العر يس أحاط به أهله من النساء وتقدمت «المقينة» وهي المرأة التي تشرف على ز ينة العروس ولبسها وإعدادها للجلوة، فكشفت عن وجه العروس الذي يكون مغطى بقماش من الحر ير، ربما كان أكثر من طبقة بحيث لا تستطيع المسكينة أن ترى طر يقها وإنما تقاد من يديها، والآداب في ذلك الزمان تقضي ألاّ تفتح العروس عينيها حينما تكشف وجهها، بل تبقى مغمضة العينين، بل إنه لو حدث أن فتحت عينيها خطأ

فلابد أن تغمض طرفها في الحال «ولله في خلقه شؤون» يقوم العريس في الحال بلصق الجنيهات الذهبية أو الغوازي على جبين العروس وخديها، وهذه الجنيهات أو الغوازي التي تلصق على وجه العروس خاصة بالمقينة، ثم يلبسها «التصبيحة» وهذه التصبيحة هي عبارة عن حلي ثمينة تقدم هدية للعروس من العريس، وكان في ذلك الزمان أثمنها «طوق الألماس» وهو عبارة عن عقد من الماس مصوغ بالذهب، ويفضل منه الأكبر حجماً، وكان الماس المعروف في ذلك الزمان هو الألماس الفلمنك، وهذه النسبة فيما أظن ترجع إلى مصانع الألماس الموجودة في بلجيكا، وهي التي ينتسب سكانها إلى الفلمنك ولهم لغة خاصة بهم، وكان هذا الألماس يستورد خاماً من إفريقيا التي تحتلها بلجيكا، أو من جزر جاوا التي كانت تحتلها هولندا، أما الألماس البرلنتي المعروف حالياً، فلم يكن معروفاً في أسواق الحجاز، وكان أغلى الأطواق يساوي عشرين جنيهاً من الذهب، فإذا قام العريس بوضع التصبيحة في عنق العروس، انصرف ماشياً إلى الخلف دون أن يفارق نظره وجه العروس، ويقوم في هذه الأثناء بنثر الغوازي الذهبية التي تسارع الحاضرات من النساء في غرفة الريكة للحصول عليها، وهذه الغوازي هي عبارة عن عملة ذهبية في حجم الجنيه الذهب، ولكنها أخف وزناً وأقل سعراً، ومفردها غازية، وهي تنسب إلى سلاطين آل عثمان الذين كانوا يسبقون أسماءهم بلقب الغازي، وعلى هذه الغازيات أسماء السلاطين وتاريخ الصك، وهناك عملة أكبر من الغازية اسمها محمودية، وهي ضعف حجم الغازية ولعل أول من صكها من السلاطين هو السلطان محمود، فنسبت إليه. كما أن هناك ريالات ذهبية بحجم الريال الفضة ومصكوك عليها اسم السلطان التي صكت في عهده، وتاريخ الصك، ويبدو أن هذه العملات جميعها قد انقرضت أو هي في سبيلها إلى الانقراض، وقد أدركت الغازية وسعرها ثلاثة ريالات، أي حوالي قيمة نصف جنيه أو أقل قليلاً. إذا انتهى العريس من نثر الغوازي، وخرج من مكان الريكة، دعي أهله الذين يراد لهم أن يروا العروس مثل أبيه وإخوته وأخواله وأعمامه، فدخلوا جميعاً إلى غرفة العروس، ويكون وجهها مكشوفاً فيضع كل منهم تصبيحته في حجر العروس أو قريباً منها، وغالباً ما يتفق أهل العريس فيما بينهم على هذه التصبيحة، فإذا قدم العريس طوق الألماس، وضع الوالد إبرة الألماس، ووضع العم مثلاً أسورة من الذهب المرصع بالألماس، ووضع الأخ الحلق، وهكذا بحيث يتجمع للعروس مجموعة كبيرة من المجوهرات حسب مقام العريس وأهله.

يعود العريس بعد ذلك إلى داره، ويكون قد انفض معظم الموكب الذي رافقه إلى بيت العروس، فيتخفف من الجبة والعمامة مستعداً لاستقبال العروس التي يحضرها والدها في عربة

مقفلة يجرها حصان اسمها «التخت» ويمشي والدها خلف هذا التخت إلى أن تصل إلى بيت العريس، فيستقبلها و يصعدها إلى المجلس وتكون والدتها أو واحدة أو اثنتان من أقرب القريبات من النساء المسنات قد حضرن معها حيث يتولين نزع ملابس الريكة الثقيلة التي كانت تلبسها، وإلباسها الملابس الحريرية الجميلة التي تبدأ بها حياتها في بيت الزوجية.

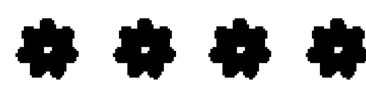
* * * *



يستقبل العريس عروسه في مجلسها، ولكن النساء اللاتي وصلن مع العروس يكن قريبات منها إذا احتاجت العروس إليهن لإصلاح شأنها بعد أن ينفرد العروسان لأول مرة، فإذا كان الضحى وضعت العروس على كرسي في أحد مجالس البيت الكبيرة بعد أن تلبس كل المجوهرات التي قدمت لها في الليلة الماضية، و يدعى العريس «للنصة عليها» أي لرؤيتها، حيث يوضع له كرسي أمامها، وبعد أن يقضي بعض الوقت يذهب إلى بيت العروس لتناول طعام الإفطار هناك وحده حيث يرى والدة العروس لأول مرة حاملاً لها هدية منه تسمى تصبيحة والدة العروسة، وهي عبارة عن قطعة من الحلي متوسطة الثمن، و يعتبر هذا تكريماً خاصاً لوالدة العروس التي تقوم بدورها بتهيئة بدلة كاملة للعريس ولوالده و بعض أهله، ذلك أنه إذا قرب موعد الزواج، أرسلت والدة العروس شخصاً يطلب مقاس بدل التصبيحة، وهم الرجال الذين سيحضرون مع العريس لرؤية العروس ليلة الدخلة، وغالباً لا يرسل لهم إلا بدلة العريس ووالده فحسب، فتقوم والدة العروس بخياطة بدلة كاملة لكل منهما، تتألف من السروال الذي يجب أن يكون مشغول القدمين بشغل الإبرة، ومن الثوب من أحسن الأقمشة كاللاس أو الرشوان ثم الكوت من نفس قماش الثوب والجبة مما سيأتي تفصيله في الحديث عن الملابس فيما بعد. وحينما يخرج العريس ترسل هذه الهدايا من الملابس، وقد أعدت كل منها في بقشة خاصة حيث يعود إلى داره، وبعد انتهاء عملية التصبيحة تجمع المجوهرات التي قدمت للعروس، وتوضع في صحن كبير من المعدن بحيث يراها الجميع.

وليمة العرس

بعد ظهر اليوم التالي لحفلة القران، تقام وليمة العرس في بيت والد العريس حيث يكون قد دعى إليها المدعوون الذين حضروا حفلة العقد والقران، فيتوافد الناس من بعد صلاة الظهر مباشرة جماعات جماعات، وتكون قد أعدت لهم الأماكن التي يجلسون بها، فكلما اجتمع عدد كاف في أحد الأماكن، وهي غالباً في مقاعد البيوت ودواوينها، بادر المكلفون بخدمة المدعوين إلى فرش الموائد، وهي عبارة عن سفرة مستطيلة من القماش، ووضع الطعام الذي يرد من الطباخ الموجود في الدار، والذي كان يتكون من أصناف معينة لا تختلف، فالصحن الرئيسي هو الزربيان) واسمه الحقيقي «البرياني» ويوضع صحن كبير واحد من هذا الأرز المطبوخ بلحم الضأن لكل شخصين، ومعه صحن واحد من السلطة، وكانت غالباً من الطحينة بالزيت أو من السلطة الخضراء، ثم صحن الحلو ويسمونه «الفني» وهو عبارة عن مهلبية من دقيق الأرز المطبوخ بالسكر أو من المشبك، وهو عبارة عن حلوى مصنوعة من الدقيق والسكر على شكل أقراص مشبكة، ومما يجب ذكره أن أهل العروس يحضرون لتلبية هذه الوليمة مجتمعين، وتفرد لهم غرفة خاصة بهم ويقدم لهم الطعام تمييزاً لهم عن بقية المدعوين، فإذا أطعم الطاعمون قاموا لغسل أيديهم، وهناك أناس مخصصون يحملون أباريق الماء والصابون والمناشف حيث يغسل الطاعمون أيديهم بعد أن يصب عليهم الماء في طشوت معدة لذلك، ثم يرشون بماء الورد ويتناول القهوة من رغب في تناولها، فإذا خرجوا من الدار كان العريس ووالده وبعض أهله وقوفاً لتلقّي تهنئتهم، وبانتهاء وليمة العرس يكون قد انتهى كل ما يتعلق ببيت العريس فيما عدا السابع الذي سيقام بعد سبعة أيام من الزواج والذي سنتحدث عنه فيما بعد.



جَلْوَة العَروس

لقد تحدثنا عن حفلات العرس في بيت العريس، وآن لنا أن نتحدث عمّا يحدث في بيت العروس، ابتداء من ليلة الدخلة حتى تكون الصورة مكتملة للقارىء عن حياة الناس في أفراحهم فيما مضى من عهود.

يبدأ الاستعداد في بيت العروس قبل موعد الزواج ببضعة أيام، كما هو الحال في بيت العريس، إلا أن الاختلاف فيما بين البيتين، هو اجتماع النسوة في بيت العروس لعمل الترتيبات الخاصة بالزواج، وتهيئة العروس، بينما يجتمع الرجال في بيت العريس، لترتيب حفلات العرس كما سبق الحديث عنه وتفصيله.

وأول ما يبدأ به النسوة حين اجتماعهن، هو عمل الكعك والمعمول في صوان كبيرة، يعجنون الدقيق بالسمن ويحشونه بالتمر واللوز، كما سبق وصفه، و يرسل إلى الفرن لخبزه، فإذا وصل من الفرن أمّنت له غرفة خاصة وكّلت بها سيدة كبيرة في السن خبيرة بمثل هذه الأمور، و يوضع هذا الكعك مع الأجبان وأنواع الحلويات التي يوصّى عليها صانعوها، وكذلك المربيات والزيتون في مواعين كبيرة، توكّل بها هذه السيدة ومن يعاونها لمقابلة موائد الإفطار والعشاء التي تسمّى التعتيمة —نسبة إلى أنها تقدم في عتمة الليل— فإذا انتهوا من ذلك قاموا في يوم آخر باستعراض ملابس العروس وتبقيشها، أي وضع كل نوع من الملابس في بقشة خاصة بها من الحرير المشغول وتبخيرها بالعود ثم وضعها في الصندوق السيسم الخاص بها وحفظها، ثم يعين يوم آخر لترتيب جهاز العروس، وهو الدبش الذي أوردنا وصفه سابقاً، ووضعه في مكان كبير أو عدة غرف واسعة استعداداً لنقله إلى بيت العريس، وكل هذه المهمات يقوم بها النساء، وفي هذه الأيام يحضر الرجال المقربون من الأهل والأصدقاء لمساعدة والد العروس، فيما قد يحتاج إليه من أثاث، و يقدم الطعام يومياً إلى الحضور من رجال ونساء، بنفس الترتيب الذي سبق وصفه، وللرجال مهمة أخرى، هي إعداد «الريكة» والريكة هي الغرفة التي يرى فيها العريس عروسه وتفرد لها غرفة خاصة في البيت قليلة النوافذ، ثم يحضر النجار مع مساعديه لعمل الريكة، وهي تلبيس معظم هذه الغرفة بالخشب، ثم كسوة هذه الأخشاب بقماش من القطيفة مرصع بقطع صغيرة من المعدن، فإذا انتهوا منها كانت هذه الغرفة أشبه ما تكون بإيوان صغير، وفي هذا الإيوان تعلق

كر يات من الزجاج الملون كبيرة ومتوسطة وصغيرة، لإكمال ز ينة الغرفة ثم تفرش أرضيتها بالسجاد، وما بقي من الغرفة تُنصَّب فيه ستارة كبيرة، يختفي وراءها النسوة اللاتي يدخلن الغرفة قبل وصول العر يس لالتقاط الغوازي حين نثرها، ولمشاهدة «النصة» وتصبح هذه الغرفة بعد إتمام عمل الر يكة مقفلة تماماً، فقد أغلقت نوافذها، والو يل للعروس المسكينة إن كان الجو قائظاً، وقد ألبست الملابس الثقيلة التي كانوا يلبسونها للعرائس، والتي سيأتي وصفها فيما بعد، فإن الحرارة تزداد ارتفاعاً في جو الغرفة حتى أني شهدت بعض العرائس وقد أصبن بالإغماء من حرارة الجو.

وتحجب العروس قبل يومين من الزواج في مكان خاص، فلا تراها إلا أخت شقيقة، أو ابنة عم في مثل سنها، وتطعم طعاماً خاصاً في اليوم الذي ستزف في ليله، هو السمك، وكانوا يدّعون أنه يكسب العروس بياضاً، فإذا كان المساء أدخلت إلى الحمام وتتولى عملية الاستحمام لها نسوة متمرسات، فإذا خرجت من الحمام دعي أصغر أشقائها ليصكِ الخلخال في رجلها، وكان هذا الخلخال الذي تلبسه من الذهب الخالص، إن كان أهلها ميسوري الحال، أو من الفضة الخالصة إن كانوا دون ذلك، وحين يقوم الطفل اليافع بصك الخلخال لشقيقته أو قر يبته تكون الزغار يد قد انطلقت، وهذه الزغار يد تبدأ في بيت العروسين منذ الأيام الأولى التي تفتح فيها البيوت استعداداً لهذه المناسبات السعيدة، وربما ضربت الدفوف كذلك ابتهاجاً بالمناسبة السعيدة، وصك الخلخال معناه قفله في رسغ العروس فوق القدمين، وإذا كان هذا الخلخال صلباً ساعدت بعض النسوة الطفل في عملية الصك هذه، ثم تتولى الماشطة تهيئة شعر العروس، وإزالة الشعر من الجبين والخدين وتسو ية الحواجب، وكانت هذه العملية شاقة بحيث تظهر آثارها في وجه العروس احمراراً في الوجه بفعل هذه المرأة التي تسمى القصاصة، ولم يكن هناك شيء من الروج أو المواد المستعملة حالياً، ولكن كان هناك الكحل، كما يدهن الوجه بما يسمى دهن اللوز، وكان النساء يستعملن ز يت النارجيل في تسر يح شعورهن، وكانت شعوراً طو يلة جميلة تقصّ وتسدل على جانبي الوجه إلى نصف الظهر، فإذا انتهت الماشطة والقصاصة، جاء دور المقينة التي تتولى إلباس العروس ملابس الشرعة، واللفظة فيما أحسب، عر بية صحيحة لأنها تشرع فعلاً ليراها العر يس في جلوتها، وكانت هذه الملابس مع ما يتبعها من الحلي تستأجر خصيصاً لهذه الغاية من نساء متخصصات في هذا الأمر في جدة ومكة، وتسمى هذه الملابس في مجموعها بدلة الشرعة، أما الملابس الداخلية فيحضرها الأهل، و بالنسبة للعروس فإن السروال، وهو أشبه ما يكون ببنطلون البيجاما، يكون من أحسن أنواع الحلل، وتكون رجلاه مشغولتين

بالكنتيل والترتر، وهذا الكنتيل عبارة عن قطع مشغولة من الذهب تعمل على شكل ورود صغيرة، ثم تلصق في أسفل رجل السروال مما يلي القدمين، والترتر هوعبارة عن قطع صغيرة جداً من الذهب تز ين بها هذه الورود، وهذا الكنتيل والترتر كان يرد من الهند، و يتولى بيعه تجار هنود كانت لهم حوانيت في أسفل دورهم في قصبة الهنود، وقد أدخلت قصبة الهنود ضمن شارع الذهب في جدة بعد توسعته، والشغل هذا كما يصنع لرجل السروال يصنع للمحرمة، وهي عبارة عن قطعة من القماش الأبيض توضع على الرأس ثم يقصّ عليها الشعر فتظهر ورود الكنتيل هذه في المحارم فوق الجبين، كما تعمل في الدكة التي يربط بها وسط السروال، و بالنسبة للعروس فلابد أن يعمل لها فستان أو أكثر من الحر ير يز ين وسطه وأعلى الصدر والكمّين بقطع من هذا الكنتيل في ترتيب جميل أخّاذ، ثم ينثر الترتر في سائر الفستان فيظهر براقاً آسراً للأنظار.

إذا آن أوان إلباس العروس بدلة الشرعة، انفردت بها المقينة، فدهنت وجهها بز يت اللوز حتى يغدو لمّاعاً براقاً، ثم كحلت عينيها ووضعت لها خال الحسن من هذا الكحل، ورجلت شعرها وعقصته، ثم ألبستها فوق الملابس الداخلية، وهي السروال والصدير ية، حجلاً من القصب المشغول في رجليها فوق القدمين، ثم ألبستها الثوب وهوعبارة عن ثوب سابغ كله مشغول بالقصب على شكل ورود كبيرة الحجم، براقة اللون، وكثيراً ما يكون هذا الثوب سميكاً حتى يتحمل استعماله لكل عروس، لأنه إنما وضع بقصد التأجير، ثم لف الرأس كذلك بشال من القصب المشغول يسمى مدورة، ثم يوضع في عنق العروس عقود اللؤلؤ، وهي عقود كثيرة، طبقات بعضها فوق بعض، بحيث تغطي هذه العقود الصدر، ثم يوضع فوقها الإبر الرعاشة، وهي عبارة عن دبوس من الماس له ما يشبه الزنبلك فيبدو رعاشاً متحركاً، وتوضع في اليد الأساور الذهبية المرصعة بالماس، وعقود اللؤلؤ كذلك، وتسمى هذه الأشياء في مجموعها التخشيشة، وهي حمل ثقيل على العروس المسكينة، وكانوا يستأجرون هذه المصاغات من الجواهر يين، في مكة وجدة لهذه الغاية، ومن بعض البيوت التي تملك هذه المصوغات وتعدها للتأجير. إذا تم كل هذا لم يبق إلا قلادة التفاح، وقلادة التفاح هذه كانت تحضر من مكة ليلة الدخلة، وتستلم من الرسول الذي يحملها لتوضع في عنق العروس، وقلادة التفاح هي فعلاً قلادة من التفاح الطائفي الصغير الحجم مثل حجم الليمون الصغير، أو أقل، وكانوا يستوردونها من الطائف في أيام ظهور هذا الثمر، وتحفظ في مكة المكرمة في الزمزميات، وهي عبارة عن حنفيات حجر ية يحفظ فيها ماء زمزم لتبر يده، فتوضع هذه القلائد بطر يقة معينة في هذه الزمزميات لتخرج في أيام الأعراس، فإذا كان الزواج في جدة أوصوا أصدقاءهم أو أقر باءهم في مكة لشراء القلادة وإرسالها مع

«الحمَّارة» وهم الذين يقومون بنقل البريد كل ليلة ما بين مكة وجدة، وكذلك الركاب، وهم عادة يغادرون مكة المكرمة مع الغروب، ويصلون إلى جدة قبيل الفجر، فتسلم هذه القلادة إلى السائس الذي يسير وراء حُمُرِ البريد، والركاب، ويوصى بإيصالها إلى الجهة المطلوبة في جدة، ويسرع السائس بإيصالها لمعرفته بأهمية الأمر وبأنه سيجد مكافأة طيبة إذا أوصلها في وقت مبكر، فإذا وصلت قلادة التفاح وضعت في عنق العروس، واكتملت بذلك زينتها، ثم رشت بالعطور، وبماء الورد، وأطلق بخور العود والند، ثم زُفَّت العروس من المكان الذي ألبست فيه إلى الريكة، ويقوم بهذه الزفة نساء متخصصات يضربن بالدفوف ويغنين الأغاني، وفي ليلة الدخلة يجتمع النسوة المدعوات في بيت العروس من أول الليل وهن يرتدين أجمل ملابسهن، وكانت بالإضافة إلى السروال والصديري أو الصديرية الثوب وهو من اليشمك لخفيف، والزبون وهو من القماش الحرير المشغول بالكنتيل والترتر، كما سبق وصفه، أما الرأس فيلف بالمداور اليشمك فإذا اجتمع النسوة أديرت عليهن القهوة والشاي، وانطلقت المغنية تغني مع الفرقة المصاحبة لها، وهن يضربن بالدفوف التي يسمونها الطِّيران (مفردها طار) فإذا حضرت النصاصات وهن أهل العريس استقبلن أحسن استقبال، وغنت لهن المغنيات، وأديرت عليهن القهوة والشاي، فإذا انتهت النصة ورأى العروس عروسه، دعيت الحاضرات وفي مقدمتهن نساء بيت العريس إلى مائدة التعتيمة التي سبق وصفها، ويكون الوقت إذذاك قرب الفجر. وبهذا تنتهي حفلة الدخلة في بيت العروس وبانتهائها تنتهي حفلات بيت العروس.

ليلة الصبحة

في الليلة التالية لليلة القران، تقام ببيت العريس حفلة خاصة بالنساء تسمى ليلة الصبحة، ويدعى إليها جميع النسوة من الصديقات والقريبات، وتحضر النسوة وقد ارتدين أجمل ملابسهن بحسب الترتيب الذي سبق ذكره في وصف الليلة السابقة، ويدعى إليها أهل العروس من النسوة فحسب حيث يحضرن دفعة واحدة، ويخصص لهن مكان بارز قريب من المغنية التي تطرب الحاضرات طوال الليل، فإذا انتصف الليل ألبست العروس لباساً أخف من لباسها في ليلة الدخلة، وغالباً ما يكون هذا اللباس من الملابس الجميلة التي أعدها لها أهلها، وزينت بالحلي التي قدمت لها في الليلة السابقة، وأضيف إليها ما يكملها من المجوهرات المستأجرة، ولا تبقى العروس طويل وقت مع الحاضرات، بل يكتفى بفترة من الوقت تعود فيها إلى دارها حيث يكون

زوجها في انتظارها، فإذا مضى من الليل معظمه، دعيت المدعوات إلى موائد العشاء التي لاتخرج عن الوصف الذي ذكرناه سابقاً، والتي تشمل الكعك والمعمول والمربيات والزيتون والأجبان، وقد تطورت هذه العادة فيما بعد فحلّت محل هذه التعتيمة: الخراف، الكوزى، وأنواع الطيور والمحشيات، ولكن العادة السابقة كانت أقل كلفة وربما كانت أكثر قبولاً، لأن الأكل الذي يقدم في آخر الليل ربما كان ثقيلاً إذا شكلت أصنافه من اللحوم والدهون.

حفلة السابع

إذا انتهى اليوم السابع للزواج أقام أهل العريس حفلة السابع، وهي حفلة نهارية وتعتبر تكريماً للعروس التي أمضت سبعة أيام كاملة في بيت الزوج، وهي كذلك خاصة بالنساء و يدعى إليها أهل العروس والأقرباء، وخاصة الأصدقاء، أي أنها لا تكون حفلة عامة مثل حفلة الدخلة والصبحة، والبعض يحضر لها بعض المغنيات، والبعض يكتفي باجتماع الأهل والأصدقاء، والطعام الذي يقدم فيها لا يخرج عمّا وصفناه من أصناف الطعام التي تقدم للرجال في حفلات الزواج، وبانتهاء حفلة السابع تنتهي حفلات العرس تماماً.

الرِّفْد

لكي نكمل الحديث عن الزواج لا بد وأن نتحدث عن بعض العادات الجميلة التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر، فقد كان الأهل والأصدقاء يقدمون الرفود (جمع رفد) لكل من العروسين، وكانت الصفة الغالبة على هذه الرفود هي أنها تساعد أصحاب العرس على المهمة المقدمين عليها، فكانت هذه الرفود تصل في شكل أكياس من الأرز والسكر والدقيق وصناديق السمن والشاي، تحملها العربات إلى بيت العريس، خاصة قبل الزواج بيوم أو يومين، وكان يهيأ لها محل خاص لاستقبالها، وشخص معين لاستلامها، وكانت تقيد حتى تردّ بمثلها أو أحسن منها في مناسبة مماثلة للمُهدي، أما بالنسبة للعروس فقد كان الأقرباء من أهلها يرفدونها بالحلي الثمينة، فهذا يحضر لها أسورة من الذهب على شكل ثعبان مرصع بالماس —وكانت هذه الأسورة ترد من مصر— أما الأسورة التي كانت تصنع محلياً،



صورة نصة العر يس

فكانت على شكل عمودين من الذهب التفّا على بعضهما البعض، وجعل لها فتحة لإدخالها في اليد ومن لا يستطيع تقديم المصوغات فإنه يقدم هذه الأنواع من المأكولات التي ذكرناها، والبعض كان يرسل الخراف وخاصة في مكة المكرمة، وكان صاحب العرس الذي يتلقى الرفد يرسل لكل الرافدين في يوم الوليمة معشرة بها أطباق الأرز الزربيان والحلو وخلافه، مما يقدم في الوليمة، وترسل في وقت مبكر إلى بيوت الرافدين حتى يستطيع أن يأكل منها من رغب في وقت الغداء، وكانت هذه الرفود التي تتجمع لدى أهل العرس من الكثرة بحيث كانوا يحتفظون منها ببعض ما يلزمهم و يبيعون الباقي الزائد عن حاجتهم، فتكون في قيمة هذه الرفود بعض الفرج لهم، لأنهم كانوا قد تكلفوا الكثير في حفلات العرس.

ملابس العروس تخلو من الملاية

من أغرب ما أدركته من عادات الناس في الزواج أن العروس تزود بكل ما يلزمها من ملابس جميلة، وغالباً ما تكون كثيرة وتكفيها لفترة طويلة، ولكن هذه الملابس الكثيرة والجميلة تخلو من شيء واحد وهو «الملاءة» أو الملاية كما كانوا يسمونها أولاً، ثم القنعة حينما تطورت وهي ما يتقنع به المرء، أي أن العروس لاتزود بالملابس التي تستطيع بها مغادرة البيت، وكانت الحجة أنها إذا زوجت فإن إذن خروجها من دارها لا يكون إلا في يد الزوج، أو يد رئيس العائلة في بيت الزوج، فإذا رغب في خروجها أحضر لها ملابس الخروج، وإلا فلا، وكان المتبع أن تبقى العروس عاماً كاملاً لا تعرف فيه طريق الخروج من البيت، ويمكن لأهلها أن يزوروها، ولكنها لا تزور أحداً ولا تفكر في الخروج من الدار طيلة السنة الأولى، إلا إذا حدث أمر قاهر كمرض أحد أفراد عائلتها الأقربين، أو الوفاة —لا سمح الله— فحينذاك يمكن السماح لها بالخروج، أما إذا سارت الأمور طبيعية، فإن موعد الخروج بعد العام يتحدد، و يكون خروجها أول ما تخرج، إلى بيت أهلها الذين يقيمون لها حفلة كبيرة نهارية، قد يحضرها بعض الفتيات وترتفع فيها الزغاريد وتضرب فيها الدفوف، وتسمى هذه الحفلة «البداية» ثم تتوالى الدعوات لها من أهلها وأقربائها، فيقال حينذاك: إن العروس «مبدية» أي أنها تحضر حفلات البداية.

العريس يبقى أسبوعاً في البيت

لم يكن هناك شهر عسل، ولا رحلات، كما هو الحال الآن، وإنما كان هناك الترتيب الشرعي، فإذا تزوج الرجل بكراً، بقي معها سبعة أيام، لا يخرج إلا بإذنها، وإن تزوج ثيباً فمن حقها أن يقضي معها أياماً ثلاثة، لا يفارقها إلا بإذن منها، والواقع أن هذه الفترة كانت ضرورية ليتعرف فيها الزوج على زوجه، وتتعرف هي على شيء من أخلاقه وعاداته، خاصة وأنهم كانوا يتزوجون على غير معرفة سابقة، بل على غير رؤية، والسعيد منهم من يحظى بنظرة خاطفة أو لمحة عابرة.

وصايا للعروس

وقد لاحظت أن كثيراً من الزوجات ينتقلن إلى بيوت أزواجهن وهن خائفات، وكان الأهل يجتمعن على العروس قبل الزواج بيوم أو يومين، فيوصينها ويشددن الوصية عليها في أن تكون طيّعة رضيّة الطبع، فهي ستمثل أهلها في أسرة أخرى، فيجب أن تعطي عن أسرتها أحسن مثل في التربية والآداب، ولقد سمعت بعضهم يقول لابنته:

«أبوه أبوك، وأمه أمك، وأخواته أخواتك، خذي رضاهم كما كنت تأخذين رضاءنا».

وسمعت والدة تقول لابنتها:

«إذا كان لديك فهو زوجك، وإن حرج من عندك فهو زوج غيرك» والمعنى أن عليها ألاّ تسأل أين ذهب؟ وكيف قضى وقته؟ وماذا عمل؟

وكان أهل الفتاة المزوجة حديثاً، وخاصة من الرجال، يمتنعون عن زيارتها في الأسابيع الأولى حتى يصل العريس نفسه، فيدعوهم قائلاً: إن ابنتهم قد اشتاقت إليهم، فيمتنعون، فلا يزال يلح عليهم حتى يحضر البعض بعد الإلحاح.

القصد من هذا، أن الناس كانوا يودون لبناتهم أن تستقر زيجاتهن، وأن تستمر فلا يتدخلون في شؤون البنت بعد الزواج ويعملون كل ما في وسعهم لإشعار الزوج وأهله أنها قد انتقلت إليهم بصورة نهائية، وأنها أصبحت عضواً في الأسرة التي انتقلت إليها، وهناك حكايات تروى عن كبير جدة عمر نصيف وكان له سبع بنات متزوجات.

جاءته إحداهن تشكو من زوجها، فقال لها ما دمت قد حضرت فاطبخي لنا اليوم الطبخة الفلانية، فإني قد اشتقت أن آكل من يدك الزكية، فإذا كان المساء قال لها: لقد كان طبخك اليوم حسناً ولكني أشتهي أن تصنعي لنا غداً كذا وكذا، فإن عندي ضيوفاً على الغداء، ومازال بها حتى عادت إلى بيت زوجها من تلقاء نفسها، بعد أن شعرت أن والدها إنما عبر عن اعتراضه على ترك بيت زوجها بهذا الأسلوب العجيب، لأن بيته لا ينقصه الطباخات أو صانعو الطعام.

على هامش العرس

لكي يكون الحديث كاملاً عن عادات الناس في أعراسهم، نذكر طرفاً عن بعض ما كان متّبعاً في الأعراس الكبيرة ولعل له بقايا حتى اليوم.

عشاء الدخلة

كان والد العريس إذا اقتربت ليلة القران يبعث بمبلغ من المال يساوي العشر من المهر إلى والد العروس باسم «عشاء الدخلة» وكأنه تعبير عن تقديم مبلغ ولو رمزي معونة لأهل العروس في تكاليف ليلة الدخلة التي ستقام في بيتهم، فإذا كان المهر مائة جنيه أرسلوا عشرة جنيهات، وإذا كان خمسين أرسلوا خمسة، ولكن العائلات الميسورة لم تكن تتقبل هذه المنحة لأنهم يعتبرون أنهم قادرون على مصاريف الزواج، وليسوا بحاجة إلى شيء من المال بهذه المناسبة، ولهذا فإن عشاء الدخلة هذا ربما كان سارياً في الطبقات الفقيرة أو المتوسطة الحال.

معاشر الحل

هناك عادة أخرى كان يرسلها العريس أو والده على الأصح في اليوم الذي سيتم القران في ليلته، وهي معاشر كبيرة ملأى بصحون كبيرة فيها الهيل، والبن، والقرنفل، والمستكاه، وأنواع السجائر، والدخاخين وأنواع التنباك، وما إلى ذلك وربما وضع فيها السكر القوالب أو السكر المصري الذي كان يرد في قوالب كبيرة على شكل مسلة صغيرة، أو على شكل عمودي مدبب في أعلاه وكانوا يسمونه السكر المصري، وكان في لونه بعض الإحمرار.

الحل للمغنية

وكان كل من بيت العروس وبيت العريس، يحضر للمغنية هذا الحل، ولكن بشكل أقل مما وصفناه آنفاً، ويوضع هذا الحل أمام المغنية طول مدة الحفلة على أساس أنه مخصص لاستعمالها، فإذا انتهت من غنائها قامت إحدى تابعاتها بجمع هذا الحل وإفراغه في أكياس يحضرونها لذلك، وتأخذه المغنية معها حيث تتصرف فيه بالبيع إن كان كثيراً وخاصة في مواسم الأعراس.

البدل للمغنيات

وهناك أيضاً البدل التي تعد للمغنية وأفراد فرقتها، وهي تتكون من الملابس الداخلية والفستان، ويمتاز ما يقدم للمغنية عمّا يقدم لبقية أفراد الفرقة بأن يكون أحسن نوعية وأغلى ثمناً.

الجبة للمأذون والمنشدين والخطباء

وكانوا كذلك يقدمون الجبة للمأذون، وللمنشدين، والخطباء، في الأعراس، فإذا أنشد المنشد قصيدته جاء من خلفه من يفرد الجبة على كتفيه، وكذلك يفعل مع الخطيب ومع المنشد، ثم استبدلت بعد ذلك بالعباءات «المشالح» بعد أن ترك الناس ارتداء الجبة إلى المشلح، وقد رأيت بعض الناس يستأجرون هذه الجبب من أصحاب الدكاكين في السوق المخصص لهم، وهو السوق المتفرع من السوق الكبير إلى سوق الحراج، في جدة، وكان فيه باعة الجبب الحريرية والشيلان والطرابيش وغيرها، فإذا كان يوم العرس أبرزوها أمام الناس، وكأنها قد قدمت رفداً منهم للمنشدين والمأذون والخطباء، ثم يسترجعونها من المنشدين والمأذون لقاء مبلغ من المال يرضونهم به، أما الخطباء فكانوا غالباً، إما من أصدقاء العريس، أو من تلاميذ المدارس، وهؤلاء لا يحفلون بأمثال هذه الأمور، وقد انقرضت هذه العادة أو أوشكت على الانقراض.

المـآتم

الفزعة ـ الوجبة ـ قطع العزاء

كان للناس عادات في مآتمهم، لا يزال بعضها قائماً حتى الآن، والبعض الآخر قد اندثر أو تطور، وسنتحدث عن عادات النساء في المآتم لأنها أكثر من عادات الرجال وأشد تنوعاً وتعقيداً.

فإذا مات الميت أسرع النسوة بالذهاب إلى بيت الميت للمشاركة في المآتم، وتسمى الأيام الثلاثة الأولى «الفزعة» ولعلها مأخوذة من الفزع لحادث الوفاة، و يبقى النسوة في البيت يندبن الميت إلى أن تخرج الجنازة من الدار، فيشيعنها بالبكاء والعويل بأصوات عالية، وكان تعديد أوصاف الميت والمغالاة في ذلك سائداً في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر، وكان بعض النسوة يتفنن في هذه الأوصاف وفي رفع الأصوات بالندب والعويل، مما يتنافى مع رهبة الموت واللوعة الحقيقية للحزن.

فإذا انتهت أيام الفزعة، بدأت أيام الوجب، واحدتها وجبة، وكانت هذه الوجبة تقام كل يوم أحد وثلاثاء وخميس، يستعد فيها أهل الميت بالطعام الذي كان ينحصر في أنواع معينة أهمها: الرز باللحم والحمص، واللحم الكبير، وهو ما يسمى حالياً بـ«كباب الحلة» والباذنجان الأسود المحشو باللحم المفروم والمطبوخ بالزيت، والكبيبة، والسمبوسك، والتمر، وسلطة الطحينة بالخيار، وكان النسوة يأتين من بيوتهن إلى بيت الميت من وقت الضحى، فإذا أقبلت إحداهن على سلّم المنزل رفعت عقيرتها بالبكاء مجددة أحزان أهل الدار، ثم دخلت لتشارك في هذا المأتم الذي يستمر إلى قرب العصر حيث تمد موائد الطعام للحاضرات، وفي هذه الأثناء تدار عليهن أكواب القهوة المرة والشاي، و يدخن منهن من يدخن في الشيشة، أو تدار عليهن السجائر الملفوفة.

أما النسوة من أهل الميت فيجلسن في صف طويل تترأسه أكبر النسوة فالتي تليها، فإذا أقبل المعزيات انكببن على رؤوسهن يقبلنها و يعزينهن، وتستمر هذه الوجب في الثلاثة أيام المفردة والتي ذكرناها من كل أسبوع، حتى تنقضي أربعون يوماً على وفاة الميت، فيقام له يوم «الأربعين» و يعتبر هذا اليوم نهاية لعزاء السيدات.

ملابس السيدات في المآتم

كان النساء يرتدين الملابس البيضاء في أيام الموت، فإذا توفي الميت قام أهله بارتداء هذه الملابس البيضاء والخالية من أي زخرف أو زينة، وهي السروال والصديري وفوقه الفستان الأبيض الطويل ويسمونه «الكرتة» أما الرأس فيكون بمحارم بيضاء تجمع الشعر في ضفيرتين، ويستر ذلك كله مدورة بيضاء كذلك من الشيمك الخفيف، وهذا هو نفس لباس السيدات اللاتي يحضرن للعزاء، فإذا رأيت النساء جميعاً في هذه الملابس البيضاء الجميلة، فسترى منظراً عجباً، وإني لأذكر أن زوجة أحد السفراء العرب حضرت مرة مأتماً نسائياً في دارنا، فوصفت المنظر قائلة: إنهن يشبهن الملائكة. وبكل أسف فإن نساءنا قد تخلين الآن عن هذه الملابس الجميلة البيضاء، وأصبحن يرتدين السواد مقلدات بذلك نساء مصر في أحزانهن، وكان الأولى بهن أن يحتفظن بملابسهن البيضاء الجميلة بدلاً من التقليد الذي يخلو من الجمال.

كل امرأة تندب موتاها

ومن أعجب ما لاحظته وأنا صغير السن أن النساء إذا اجتمعن وبكين وعزين الحاضرات من أهل الميت لم يكن بكاؤهن على الفقيد المتوفى، وإنما كانت كل واحدة منهن تبكي عزيزاً لها، غادر هذه الحياة وخلف بعده اللوعة والأسى، فكأن هذا الجمع يذكرهن بأحزانهن الخاصة، ولاشك أن الحزن يعدي كما يعدي الطرب والسرور، وقد لاحظت كذلك أن من برح بها الحزن لا ترفع صوتها بالبكاء، وإنما يكون البكاء في صمت تشعر به باللوعة والحزن العميق، أما أولئك الندابات اللاتي يملأن الدنيا عويلاً وصراخاً، فهن أبعد ما يكن عن حقيقة الحزن، ترفع الواحدة منهن عقيرتها بالبكاء والعويل، ثم تقدم لها الشيشة وأكواب الشاي، فتنفث من دخان الشيشة، وتكرع أكواب الشاي، وكأنها في مجلس أنس لا في دار أحزان.

قطع العزاء

ولعل مما يحسن ذكره أن هذه الوجب التي كانت تستمر إلى أن يكمل الميت أربعين يوماً ثم تتوقف، قد انتهت وأصبح العزاء لمدة ثلاثة أيام، ثم يكون في اليوم الثالث أو الذي يليه يوم قطع العزاء، ويجتمع فيه النسوة بالمئات للتعزية التي تشمل تناول طعام الغداء، وحبذا لو تطورت هذه العادات فأصبحت من بعد العصر إلى غروب الشمس، وخلت من الموائد التي يتحلق حولها النساء للطعام، فيكفي أهل الميت ما كربهم من مصابهم بفقد عزيز أو حبيب، وليس هناك ما يدعو إلى إشغالهم بإطعام الناس في أيام الموت.

عزاء الرجال

القراءة - الثالث - العشرين - الأربعين - الحول

إذا مات الميت وشيّع إلى مثواه الأخير، اجتمع الناس للعزاء بعد صلاة العصر، في مسجد يعينونه عند دفن المتوفى، وذلك بأن ينادي أحد الرجال عند خروج الناس من المقبرة للقراءة في مسجد الشافعي أو غيره من المساجد بعد العصر، فيحضر الناس لصلاة العصر في المسجد المعين، وبعد الصلاة يتناول كل منهم جزءاً من القرآن. وكانت هذه الأجزاء تسمى «أرباعاً» واحدتها «ربعة» وتتوفر في المساجد، فيقرأون في هذه الأجزاء إلى قرب المغرب، ثم يقوم أهل المتوفى في مكان معين عند باب المسجد، فيقفون لتقبل العزاء من الحاضرين، ثم يصلون المغرب وينصرفون، ويستمر العزاء هكذا ثلاثة أيام، فإذا كان اليوم الثالث وزع على الحاضرين بعض الحلوى التي تشبه الحلوى التي تعمل في الأفراح وتسمى الحلاوة اللوزية، ثم تطورت هذه العادة في العزاء، فأصبحت تقام بعد غروب الشمس في بيت المتوفى، وتستمر إلى صلاة العشاء بنفس الترتيب الذي وصفناه آنفاً في المسجد، يحضر المعزّون ويتناول كل منهم جزءاً من القرآن يتلو فيه، ثم يهبون هذه القراءة إلى روح الميت، ثم يعزّون وينصرفون، ولم يكن هناك مقرئون يقرأون

القرآن كما هو حاصل في هذه الأيام، ثم تطور الأمر إلى اجتماع الناس في دار الميت بعد صلاة المغرب لفترة بسيطة يستمعون فيها إلى المقرىء يتلو شيئاً من آيات الذكر الحكيم، فإذا ختم المقرىء بعض الآيات صمت قليلاً ثم قام الناس للعزاء حيث يعين مكان لأهل المتوفى يتقبلون فيه العزاء من الناس، وهذه العادة تسمى «القراءة المدنية» وهي نسبة إلى المدينة المنورة، ذلك أن بعض أهالي جدة ومكة حضروا وفاة بعض معارفهم في المدينة المنورة فأعجبتهم الطريقة التي يتبعها أهل المدينة، وهي السائدة حالياً في كل من مكة وجدة، فنقلوها إلى مكة وجدة، فأصبحت عادة متبعة لا يضطر المرء معها إلى الانتظار وقتاً طويلاً، وإنما هي دقائق يؤدي فيها واجب العزاء ثم ينصرف، وقد بطلت عادة تقديم الحلوى في اليوم الثالث منذ وقت طويل.

وقد أدركتُ أهل مكة المكرمة يدعون الناس إلى الغداء بعد انتهاء ثالث أيام العزاء، وهذه توجه لمن يحضر العزاء في اليوم الثالث، وكان الناس في مكة يحرصون على أن يعزّوا في اليومين الأولين، ولم يكن يحضر للعزاء في اليوم الثالث إلا الفقراء من الجيران الذين تسرهم هذه الدعوة، حيث يطعمون ما لا يتوفر لهم إلا في مثل هذه المناسبات.

وقد سمعت أن أهل مكة كانوا يقيمون مأدبة لمن يشيعون الميت إلى مثواه الأخير، فإذا عادوا من دفن الميت رجعوا إلى دار المتوفى حيث يطعمون، ولكنني أظن أن هذه العادة انتهت منذ وقت طويل لأنها من العادات السيئة، فالناس مشغولون بأحزانهم عن إقامة الدعوات وفرش موائد الطعام.

عادات حسنة في الوفاة

ولقد أدركتُ الناس إذا مات الميت، أرسلوا لأهل المتوفى ألاّ يشغلوا أنفسهم بأمر الطعام في هذا اليوم حيث يتكفّل به قريب من خاصة أهل الميت أو صديق حميم، ولا شك أن هذه عادة حسنة لأن أهل المتوفى مشغولون كما ذكرنا بمصابهم وأحزانهم، وانه لمما تحسن الإشارة إليه أن هذه العادة الحسنة قد تجددت في هذا الزمان، وعلى نطاق واسع، بحيث يقوم الأقربون والأصدقاء بإرسال الطعام يومياً لعدة أيام بعد الوفاة، ولا شك أنها عادة حسنة، بشرط عدم التغالي فيها بالتفاخر في تقديم الألوان المتعددة، بحيث لا تتحول عن الغرض الأصلي منها، وهو إشعار أهل الميت بالمواساة الحقيقية لهم، وصرفهم عن الاهتمام بأمور أخرى تزيد من متاعبهم وهمومهم.

يوم العشرين والأربعين والحول

وكان الناس إذا مضى على وفاة الميت عشرون يوماً، أقاموا له يوم العشرين، وذلك بحضور مقرىء أو أكثر لتلاوة القرآن الكريم على روح المتوفى، من الصباح إلى ما بعد الظهر، حيث يحضر المدعوون الذين يكونون من خاصة الأهل والأقرباء، فيمد لهم الطعام، ويقرأون الفاتحة على روح الميت، ثم ينصرفون، ويقام يوم الأربعين بنفس الترتيب إذا مضت أربعون يوماً على الوفاة، كما يقام الحول إذا مضى عام كامل على وفاة المتوفى بالصورة التي وصفناها، ويتكرر هذا الحول كل عام في موعده المعين، وقد انتهت هذه العادات تماماً وليس من يحفل بها الآن.

قراءة القرآن في شهر رمضان

وقد أدركت النسوة من أهل المتوفى يستأجرن بعض المقرئين وصبية المدارس لقراءة القرآن على أرواح موتاهم طيلة شهر رمضان، وإذا كان القارىء صغير السن صعد إلى مجلس النساء حيث يقرأ بمحضر منهن، والبعض كان يتغالى في ذلك فتكون القراءة طيلة شهور رجب وشعبان ورمضان، وكان التلاميذ الذين يمارسون هذه القراءة يخرجون في نهاية الشهر بمبلغ كبير يساعدهم على شراء كسوة العيد، وقد انتهت كذلك هذه العادة تماماً على حسب ما أعلم.

القراءة في موضع الغسل

وكان الناس كذلك يقرأون القرآن في موضع غسل الميت، في الثلاثة الأيام الأولى لوفاته، وتتم هذه القراءة بعد العصر، وكانوا يقولون إن روح الميت تأنس بهذه القراءة، وقد انتهت هذه العادة كذلك.

الأعياد

كان الناس في الأعياد وخاصة في عيد الفطر أكثر تزاوراً، وأشد تواصلاً من بقية أيام العام، وكانت مدينة جدة مقسمة إلى أربع حارات هي: حارة الشام، والمظلوم، وحارة اليمن، والبحر. فإذا كان اليوم الأول من أيام العيد، خرج الناس لصلاة العيد في المصلى العائد لآل نصيف، خارج باب مكة، والذي كان يسمى «المشهد» وكان الإمام يخرج من بيته، و يلتف الناس حوله في طريقه من بيته في داخل مدينة جدة، إلى أن يصل إلى المشهد، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، و يكون المصلى قد امتلأ بالناس الذين يخرجون من بيوتهم مبكرين، وقد ارتدوا أجمل ملابسهم وحمل الخدم لهم السجاجيد التي تفرش لهم في الموضع الذي يصلون فيه، فإذا انتهوا من صلاة العيد، ذهب البعض منهم لزيارة المقابر، ثم لتهنئة قائمقام جدة، وقائد الحامية في ثكنة جدة خارج البلد، وهذا بالنسبة للناس الذين يقتضي مركزهم الاجتماعي زيارة الحكام، ثم تجتمع كل أسرة في بيت رئيس العائلة حيث يتناولون طعام الإفطار الذي يشبه الطعام الذي وصفناه في الأعراس من الكعك، والمعمول، والأجبان، والزيتون، مضاف إلى ذلك أصنافاً معينة يختص بها العيد، وتسمى الدبيازة، وهو نوع من الحلو المطبوخ، يجمع بين البلح والزبيب والمكسرات ثم البندق والمشمش الشامي الناشف، وتطبخ هذه الأصناف جميعاً بشيء من السمن، ثم تبرد وتقدم للطاعمين، ولايزال البعض من أهل جدة، وخاصة من السيدات المسنات، يقمن بعمل هذه الدبيازة وطبخها في أيام العيد، وبعد تناول الإفطار ينطلق الناس لتهنئة أهلهم وأقربائهم بالعيد، حتى إذا حل الظهر، عاد كل إلى بيته لتناول طعام الغداء مع أسرته مجتمعة، ثم يأوون إلى الراحة حيث أن أغلبهم لم ينم في ليلة العيد إلا غراراً، وبعد العصر ينطلق الأطفال إلى أماكن العيد وهم في أجمل ملابسهم، فتشترى لهم لعب العيد، كما ينطلق منهم من ينطلق لاستعمال الملاهي المنصوبة في الساحات المعينة للعيد مثل الصناديق، وهي صناديق لها عجل تدار بحيث تصعد ثم تهبط بشكل دائري ويتجمع فيها الأطفال الصغار، وكذلك الألواح، وهذه يستعملها الأكبر سنًّا من الفتيان، وهي عبارة عن ألواح مشدودة بالحبال المتينة، يستعملها الفتى لتذهب به علواً وسفلاً، وما إلى ذلك من ألعاب أخرى، ولاتزال ساحات العيد في مدينة جدة تقام حتى اليوم، ولكن إقبال الناس عليها قل حيث توجهوا إلى

مدن الملاهي الأكثر تطوراً، و يسمى اليوم الأول من أيام العيد «عيد الحكومة والأهل» أي أن المعايدة فيه تتم للحكومة، ولخاصة الأهل والأقرباء.

وفي اليوم الثاني يكون عيد حارتي اليمن والبحر، فينطلق الناس لزيارة دور بعضهم البعض في هاتين الحارتين، وكانت علامة العيد أن يكون باب البيت مفتوحاً، فيدخل الناس في هذا البيت المفتوح الأبواب حتى ولو لم يعرفوا صاحبه، وكان الناس يعدون المقاعد والدواوين لاستقبال زوار العيد، فيفرشونها بالفرش الجميل كل حسب استطاعته، و يوضع صحن كبير به أنواع الحلوى، وإلى جانبه مرش لماء الورد أو زجاجة من زجاجات الكولونيا، ويجلس صاحب البيت أو أحد أبنائه لاستقبال الزوار حيث يتبادلون التهاني، و يتناولون الحلوى، و يتعطرون ثم ينطلقون إلى بيت آخر، وإذا كان صاحب البيت وحيداً واضطر للخروج لمعايدة جيرانه، فإنه يترك خادماً لاستقبال الناس، وقد وضع ورقة بيضاء، وقلّما يسجل به الحاضرون أسماءهم حتى يسارع برد الزيارة إليهم إن لم يكن قد زارهم من قبل، و يستمر الناس من الصباح الباكر إلى وقت الظهر في هذه الزيارات، وفي اليوم الثالث يكون عيد حارتي الشام والمظلوم، وفيه ينطلق الناس إلى زيارة أهل الحارتين المذكورتين بنفس الترتيب الذي وصفناه آنفاً، والواقع أنه رغم قصر الوقت المحدد للزيارات، إلا أن أهل البلدة تقريباً كانوا جميعاً يتزاورون، وكانت الطريقة التي تترك بها البيوت مفتوحة لاستقبال جميع القادمين تتيح الفرصة لتعارف كثير من الناس مع بعضهم البعض، كما أن الكثيرين ممن كانت تشوب علاقاتهم بعض الشوائب تتاح لهم الفرصة لتصفية القلوب بهذه الزيارات، وللأسف الشديد، فإن ضخامة المدينة وامتدادها قد قضى على هذه العادة الجميلة، فأصبح الناس لا يتزاورون إلا قليلاً، كما أن الكثيرين أصبحوا يغادرون البلاد في أيام الأعياد.

أما في مكة المكرمة، فإنه نظراً لكبر المدينة، فإن المزاورات كانت تبدأ من اليوم الأول وحتى نهاية اليوم الرابع، وفي الصباح و بعد الظهر حتى الغروب، وكانوا يختارون زيارة الضواحي البعيدة مثل جرول والمعابدة من بعد العصر من أيام الأعياد.

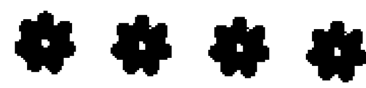
وفيما أعلم، فإن ترتيب الأعياد في المدينة المنورة والطائف، كان يشبه بطريقة ما، ما وصفناه من ترتيباتها، في كل من جدة ومكة المكرمة.

العيدية

ولإكمال البحث فيما يتعلق بالعيد، فإن الأطفال كانوا يمنحون في أيام العيد من الأهل والأصهار العيديات في شكل ر يالات من الفضة، إذا ذهبوا لز يارتهم، ولهذا فقد كان الأهل يحرصون على ألاّ يزور أولادهم بيوتاً لم ترتفع الكلفة بينهم و بين أهلها حتى لا يحرجون بمنح أطفالهم العيديات، وإنما يقتصر ذلك على المقر بين من الأهل ممن تعودوا رؤ يتهم في كل حين.

كسوة العيد

تعود الناس في الحجاز أن يهيئوا كسوة العيد لأولادهم وأنفسهم ولعائلاتهم خلال شهر رمضان المبارك، حتى إذا حل العيد لبسوا الجديد وتز ينوا بهذه الحلل الجديدة في أول أيام عيد الفطر المبارك وما تلاه من أيام، وقد رأيت الناس في جدة يشترون كسوة العام خلال هذا الشهر، وكان الحصيف منهم من يسارع بالشراء قبل الزحمة، فيشتري كسوة الأولاد خلال شعبان، أو رجب، و يرسلها للخياطين من وقت مبكر، وكانوا يحرصون على أن يلبس الأولاد الجبة والعمامة الحجاز ية، أما الجبة فيصنعها الخياط، ولكن المشكلة هي في العمامة بل في لف العمامة.

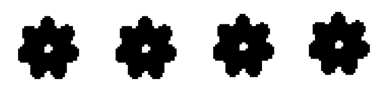


العمامة الألفي

وكانت هذه العمامة تسمى العمامة الألفي، وحتى الآن فإني لا أعرف هذه النسبة هل هي إلى تاجر اسمه الألفي، كان يستورد هذه العمائم الحجازية و يبيعها، أم أن النسبة إلى اللفة نفسها، على أي حال كانت هذه العمائم هي اللباس الرسمي في الحجاز، بل واللباس الشائع في أوساط التجار، والعلماء، والأساتذة، وأبنائهم، بل وحتى الطبقة المتوسطة من الناس، وسيأتي تفصيل ذلك حينما نتحدث عن الملابس وأنواعها في الفصل الخاص بها، ولكنا نوجز الحديث عن العمامة لضرورتها في أيام الأعياد بالذات، والعمامة الحجازية هي لباس للرأس من الخوص الرقيق مكسوة من الخارج بقماش حريري مختلف الألوان، يجمع بين الأصفر والأحمر والأسود والأخضر، ومكسوة من الداخل بقماش حريري أزرق أو أبيض، ولكن هذه العمامة يجب أن تلف، واللفة مكونة من الشاش الأبيض الذي يبلغ طوله عدة أمتار، وكان الذي يتولى لف العمامة يضعها فوق إحدى ركبتيه، ويمسك بطرف اللفة، ويبدأ في تكويرها على العمامة بإتقان، بحيث تبدو متدرجة وتكون عالية من الجانبين، أما مقدمتها فتكون اللفة فيها صغيرة لتوضع في وسط هذه المقدمة العدبة، وكان الأشراف يميزون عمائمهم بأن تكون العدبة طويلة وتغطي جزءاً من رأس العمامة، وكان الناس الذين يلبسون العمائم بصورة دائمة يتعلمون كيف يلفّونها بأنفسهم، لأنهم يحتاجون إلى تغيير اللفة كلما اتسخ القماش الأبيض الذي تتكون منه اللفة، ولكن هناك بعض الرجال اشتهروا بالتفنن في إتقان لفّة العمامة بحيث تظهر في شكل جميل متقن، وكان الناس وخاصة الصغار الذين لا يلبسون العمائم إلا في المناسبات يلجأون إلى هؤلاء المشاهير في لف العمائم، ليقوموا بلف عمائمهم، وكان من أشهرهم في مدينة جدة المرحوم الشيخ إبراهيم الصبان، وكان من كبار التجار الذين تخصصت عائلتهم في تصدير جلود الضأن والماعز إلى الخارج، وكنا نلجأ إليه في المناسبات الهامة، كالأعياد، أو الحفلات المدرسية، بعمائمنا ليلفّها لنا، وكنا نقضي الساعة تلو الساعة انتظاراً لأخذ العمامة من كثرة إقبال الناس على الرجل، ونراه وهو عاكف على لف العمامة تلو الأخرى دون ضجر، ومبسم الشيشة في فمه ينفث منه الدخان، وقد انتهى عهد العمامة بعد أن شاع لبس العباءة العربية والعقال، وأصبحت لا تُرى إلا على رؤوس قلّة قليلة لم تزل محتفظة بها، وكان آخر من يلبس العمامة الحجازية من

الرجال المعروفين، الشيخ الشنقيطي سفير الأردن الأسبق في جدة، والتي ورثها عن والده الشيخ الشنقيطي الذي كان إماماً للشر يف الملك عبد الله بن الحسين وهاجر معه إلى الأردن.

أما العمامة نفسها فهي موجودة الآن في أسواق مكة المكرمة، و يشتهر بها بعض الحجاج الأفارقة الذين يستعملونها دون لفّة، ومنهم رسميون كبار تظهر صورهم في وسائل الإعلام المختلفة.



الفصل الثاني

المـــــــدن

كانت المدن في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر، بل و بالتحديد حتى منتصف الستينات بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام١٣٦٤ هجرية- (١٩٤٦ ميلادية) كانت المدن الرئيسية في الحجاز محصورة إما داخل الأسوار الحقيقية، مثل مدينة جدة، أو الحدود الشبيهة بالأسوار، مثيل المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف.

مدينة جدة

وأستطيع أن أتحدث عن مدينة جدة بتفصيل أكثر لأنها المدينة التي ولدت ونشأت بها، لإعطاء صورة واضحة عنها، فلقد كان هناك سور يحيط بالمدينة، بناه السلطان الغوري في عام٩١٥ للهجرة، وكانت حدود المدينة داخل السور تمتد من عمارة النشار حالياً، وحتى عمارة باخشب من الناحية الشمالية، وفي هذا السور باب أمام الموضع الذي كانت تشغله قائمقامية جدة واسمه الخزنة، وهو يقع أمام ميدان البيعة الحالي تقريباً واسمه (باب جديد) وما خلف السور فضاء ليس فيه سوى مبنى الثكنة العسكرية، أما فندق قصر جدة فلم يكن قد بني بعد، وكذلك المباني المحيطة به، ويمتد السور شرقاً من خلف فندق قصر جدة إلى أن يصل إلى باب مكة، حيث يوجد فعلاً باب اسمه باب مكة، وهذا الباب كان فعلاً هو الذي يخرج منه المسافرون والبضائع التي ترسل إلى مكة المكرمة.

وكان يلتصق به مبنى صغير «للكوشان» وهو التصريح الرسمي بخروج البضائع والأشخاص واستيفاء الرسوم المفروضة عليهم حينما كانت الرسوم مفروضة على الحجاج والأهالي والبضائع في العهد الهاشمي، وأوائل العهد السعودي، أما مركز التفتيش على السيارات واستيفاء الرسوم الخاصة بها في العهد السعودي، فكان في باب جديد(١) ويمتد السور جنوباً

(١) انظر الحلقة الخاصة بالشيخ عبد الله السليمان في كتابنا أعلام الحجاز في القرن الهجري الرابع عشر.

خلف مقبرة الأسد حتى يصل إلى شارع باب شريف، وكان هناك باب اسمه «باب شريف» وهو بعد موقع «فندق الحرمين» الواقع في باب شريف وقريباً من مدخل شارع الهنداوية المتصل بشارع الملك عبد العزيز، ويمتد السور غرباً حتى يصل إلى موضع فندق قصر البحر الأحمر حالياً، وفيه باب قريب من عمارة الجفالي الحالية في شارع الملك عبد العزيز اسمه باب الصبَّة، وهذا الباب خاص بخروج البضائع والحجاج من الجمارك، وعليه حرس جمركي، وهناك باب آخر بين عمارتي الأمير منصور حالياً الموجودة في شارع الملك عبد العزيز، والتي تعتبر مدخلاً إلى شارع قابل، وهذا الباب اسمه باب «البنط» ولعل الإسم هو باب «البورت» ومعناه بالإنجليزية باب الميناء وحرفت كلمة **Port** الإنجليزية إلى بنط. (١)

هذه هي حدود مدينة جدة حينما كانت داخل السور، وكان شارع الملك عبد العزيز الحالي خلاء كله، فلقد كان المبنى الوحيد في موضع فندق البحر الأحمر هو مركز للشرطة، اسمه البحرية وعلى امتداده. وكان مكان قصور الأمير طلال التي كانت تستعملها بلدية جدة إلى وقت قريب، كان السجن المسمى بالقلعة، وبعده بيت الشيخ محمد الطويل الذي اشتراه الشيخ عبد الله الفضل، وقد أزيل هذا المنزل وهو خلف المنزل القديم الحالي «بيت باجنيد» الذي اشترته

---

(١) **باب البنط**: تفضل الأستاذ عبد الوهاب أبو زنادة بالكتابة إلي معلقاً على التفسير الذي أوردته لكلمة باب البنط والمنشور في الحلقة الثانية من هذا البحث بتاريخ ١٤٠١/١/١٤ هـ وكنت قد ذكرت فيه ما يلي:

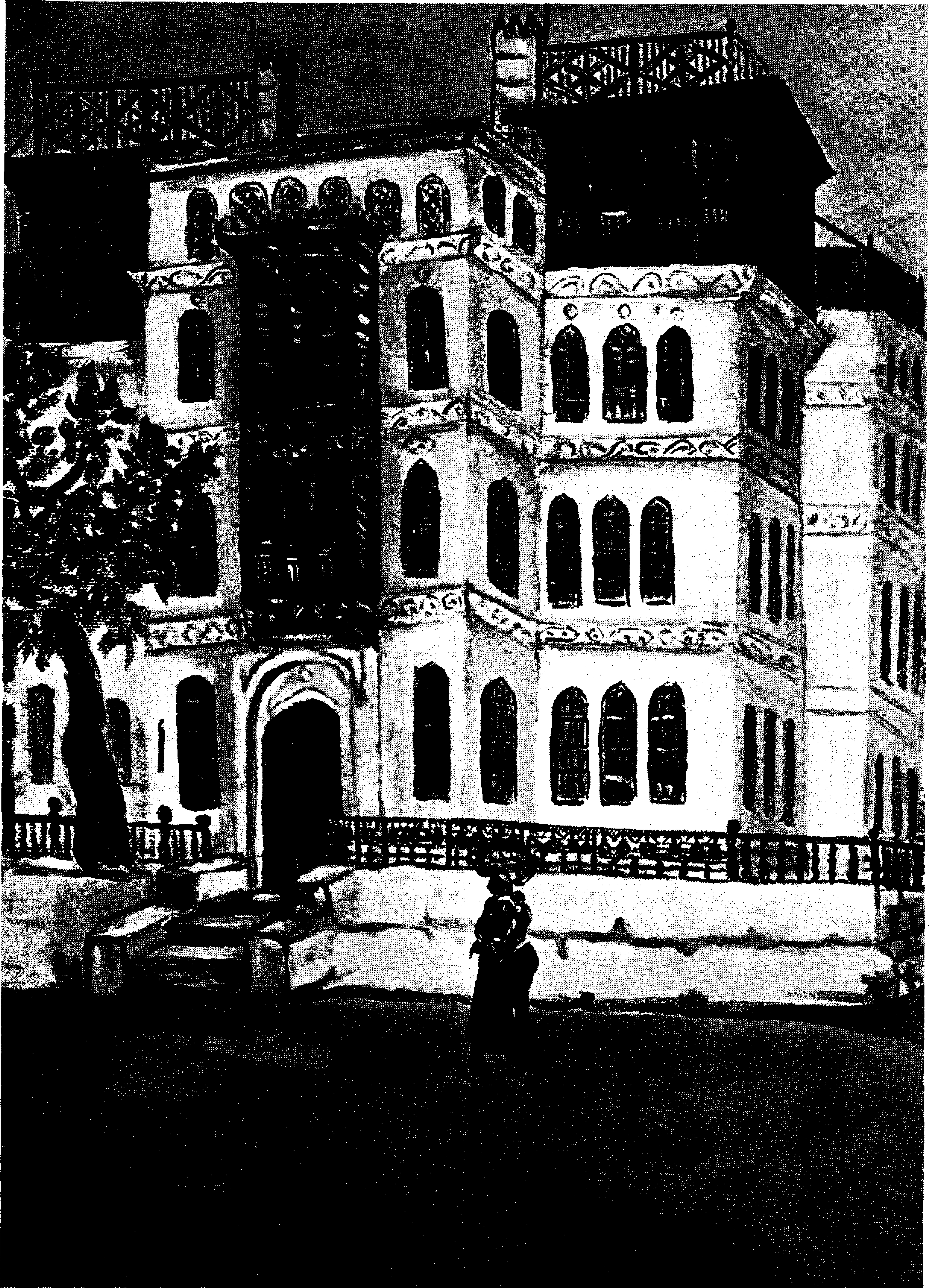
« وهذا الباب اسمه «باب البنط» ولعل الإسم هو باب البورت ومعناه بالإنجليزية باب الميناء حرفت كلمة **Port** الإنجليزية إلى بنط».

يقول الأستاذ أبو زنادة:

ولا شك أن تعليلكم يعكس واقع الأمور بحكم وجود الميناء القديم لمدينة جدة مقابل هذا الباب من الناحية الغربية، لكن الواقع في حدود معرفتي فإن كلمة بنط معربة عن أصل لاتيني **Ponto** وتكتب في الإنجليزية **Punt** وتعني زورقاً ضيقاً مسطح القاع، جوانبه مربعة، يتم توجيهه وتحريكه على سطح الماء بواسطة عصاة طويلة غليظة، ويستعمل في المناطق ذات المياه الضحلة أو ذات المعوقات الطبيعية، كالشعاب المرجانية وتستعمل كلمة بنط الفيا للدلالة على المرسى الذي يستقبل هذه الزوارق، أو القوارب المشابهة مثل مرسى بنط أريناس **Punta Arenas** في تشيلي وهو آخر مدينة مأهولة في أقصى الطرف الجنوبي من قارة أمريكا الجنوبية.

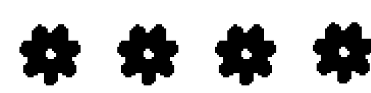
انتهى ما ورد في رسالة الأستاذ الأديب عبد الوهاب أبوزنادة.

وإنني لأشكر له ما تفضل به من إيضاح، أفدت به علماً جديداً، وهو قد زاد التعليل الذي ذهبت إليه وضوحاً، لأن كلمة البنط أصبحت تدل على المرسى وعلى نوع معين من القوارب، هذا وإني أود أن أذكر هنا ما سبق أن كررته في مناسبات سابقة، من ترحيبي بكل ما يجد لدى السادة القراء، وخاصة من أصحاب الاختصاص من معلومات أو تعليقات، تضيف جديداً إلى ما أكتبه، أو توضح جوانب من البحث لم أتطرق إليها، أو تعطي تعليلاً أصح لما أذهب إليه، فإنني أسجل ما أعرفه أو ما بقي في ذاكرتي مما أدركت وأنا بعد ككل إنسان محل الضعف والنسيان.



صورة لقصر نصيف في جدة

بلدية جدة، وقامت بتجديده ليمثل البناء القديم في جدة. و باستثناء مخزن للأخشاب كان يملكه آل الهزاز، وفي موضعه الآن عمارات صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل في شارع الملك عبد العزيز، لا يوجد إلا بيت واحد كان للشيخ عبد الله بكر في موضع عمارة الشيخ سليمان الحمد حالياً، ومخزن للغاز اسمه «الغاز خانة» قريباً منه، وكل هذه العمارات والمباني التي يضمها شارع الملك عبد العزيز على استدارته حدثت بعد السور، وخاصة العمارات الشاهقة التي تقوم في شارع الملك عبد العزيز وما حوله، وشارع الذهب الذي هو الشارع الموازي لشارع الملك عبد العزيز، والمؤدي إلى ميدان البيعة، كل هذا حديث لأنه تم فتح هذا الشارع بعد أول الهدميات التي تمت في مدينة جدة لإحداث الطرق بها وتوسعتها، فإذا انتقلنا إلى الناحية الجنوبية نستطيع أن نقول إن الجانب الجنوبي من شارع الملك عبد العزيز المؤدي إلى باب شريف ابتداءً من عماير آل زينل وحتى المستشفى العام كلها مبان حديثة، وكان هناك فضاء كبير أمام المستشفى العام من جميع الجهات، وكان شارع العيدروس هذا، كله خلاءً تماماً إلا من بعض البيوت الصغيرة، وأبرزها بيوت آل مسعود التي كان أمامها السور الشرقي للمدينة، والممتد حتى مدرسة الفلاح، فإذا وصلنا إلى الجهة الشرقية والشمالية وجدنا أن جميع المباني التي في باب مكة حديثة باستثناء بعض الحوانيت الصغيرة خارج باب مكة، و بعض البيوت الصغيرة العائدة لوقف نصيف، وجميع مباني شارع باب مكة سواء ما كان في موضع السور مثل عماير باخشب والموصلي وغيرهم، أو خارج السور، كل هذه المباني حديثة، والبيت أو البيوت الوحيدة التي كانت في الجهة الشمالية هي بيوت آل مهنا، والفيلا الكبيرة التي شيدها الحاج يوسف زينل بالمسلح، واستأجرتها شركة أرامكو، ومبنى الخزنة الذي كانت تشغله قائمقامية جدة، وقد أزيل لقدمه ولا يزال مكانه خلاءً، والمنزل الذي شيده الحاج عبد الله علي رضا بالمسلح، واستأجرته السفارة الهولندية أولاً، ثم شرطة جدة وبقي خالياً، و بيوت باجنيد و بيوت آل باناجة التي كانت تشغلها السفارات الأجنبية، أما ما خلف السور مثل محلة البغدادية فلم يكن بها إلا بعض البيوت الصغيرة، وهي من أوائل الضواحي التي تم تعميرها، وكذلك محلة العمارية والهنداوية والثعالبة، وكل هذا العمران الذي امتد عشرات الكيلومترات في كل اتجاه، فهو حديث تماماً. فسبحان مغير الأحوال.





صورة بيت موسى أفندي بغدادي



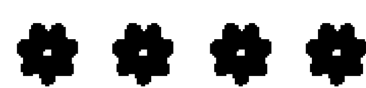
صورة للخزنة بمدينة جدة

مكة المكرمة

أما بالنسبة لمكة المكرمة فإن حدودها من ناحية الشمال تنتهي بالثكنة العسكرية الموجودة حالياً، ولم يكن هناك بناء بعدها، وكان المبنى الذي يقابله ولعله لايزال قائماً حتى اليوم هو مبنى صغير، ذوثلاث طبقات، وما بعد ذلك خلاء، وفي آخر الفضاء المواجه للثكنة العسكرية وقبل دكاكين «البيبان» كانت هناك قهوة المعلم التي تستقبل أهل مكة القادمين إليها، حينما كانت وسائل النقل هي الجمال والبغال والحمير، أما منطقة الشهداء فكانت ضاحية صغيرة بها بعض البيوت الصغيرة، يستعملها أهل مكة المكرمة استعمالاً مؤقتاً في أيام الصيف، وماعدا ذلك فخلاء كامل، ليس فيه شيء، فكل هذه المباني التي تشمل أحياء النزهة والزاهر والرصيفة وغيرها هي مبان حديثة، فإذا توجهنا إلى جهة الجنوب وجدنا أن امتداد منطقة جرول والحفاير وشارع المنصور كلها حديثة كذلك، وأهم البيوت التي كانت موجودة في منطقة جرول هو بيت المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان، الذي قام بعمارته في الستينات، وما حوله كان عبارة عن مجموعة من الأكواخ الخشبية، أو ما يشبهها، وقد تحولت الآن إلى شوارع عريضة وقصور مشيدة، وإني لأذكر أننا حينما بدأنا عمارة المكان الذي تشغله شركة المغربي في شارع المنصور في أوائل السبعينات، كان الشارع كله فضاء خلاء، أما حدود مكة من ناحية الشرق فكانت تنتهي بالقصر الملكي بالمعابدة، وكان ملكاً لآل السقاف وقد نزل به جلالة الملك عبد العزيز أول دخوله إلى مكة المكرمة، وكان قبله مبنى اسمه الشيبية يملكه آل الشيبي، وهو في موضع قصر الرحاب الذي بناه المغفور له جلالة الملك فيصل رحمه الله. فكل الضواحي التي امتدت الآن إلى منى، ثم تجاوزتها إلى مناطق العزيزية وحوض البقر، وما إليها هي حديثة تماماً، بالإضافة إلى العمارات الشاهقة التي قامت في كل مكان من أنحاء مكة المكرمة، وكذلك الشوارع التي أحدثت والجبال التي أزيلت، أو أزيل بعضها نتيجة للتوسعات الكبيرة التي تمت للمسجد الحرام، كل هذه التغييرات الضخمة هي حديثة بعد النصف الثاني من الستينات.

الطـــائف

وما أذكره عن مدينة الطائف، أن المدينة كانت محجوزة داخل السور الذي كان يتمثل في ثلاثة أبواب: باب شبرا —أو باب الحزم— وهو الباب المواجه لقصر شبرا، ولم يكن حول قصر شبرا مبان، بل كان ما بينه وبين باب شبرا فضاء تام، وأول ما بدأ العمران فيه في أوائل الستينات، ثم باب الريع، وهو الباب الذي كان تحت الجبل الذي فيه بيوت آل الكتبي، والعطار، وحوله سوق للخضار والجزارين، أمام مبنى يشبه القلعة، يؤدي إلى الثكنة العسكرية التي كان وجودها يمثل ما يشبه السور لمدينة الطائف، وباب الريع هذا يؤدي إلى ضاحية السلامة وقروة التي كان بها بعض البساتين، والبيوت التي يسكنها أصحابها من أعيان أهل مكة المكرمة، أو يؤجرونها وكذلك بعض البيوت الصغيرة التي كانت تؤجر للمصطافين من أهل مكة المكرمة كذلك، والباب الثالث هو باب ابن العباس، وهو ملاصق لمسجد ابن العباس، وكان ما حوله خلاءً من جميع الجهات باستثناء بعض البيوت الصغيرة التي بدأ تعميرها في الستينات، وعلى أي حال فإنني أذكر أنه لم يكن في منطقة شهار سوى بستان شهار الذي يملكه آل سراج، وما حوله خلاء كامل إلى بستان حوايا الذي كان ينفرد في موقعه، والذي كان مجرى السيل يشكل حاجزاً طبيعياً بينه وبين ضاحية الهنداوية، التي تمتد من جوار المستشفى العام إلى بستان الجوية، وقد بدأ التعمير كذلك في هذا الشارع تدريجياً في الستينات، وكل ما حدث بعد ذلك في مدينة الطائف من امتداد العمران في كل اتجاه هو بعد الستينات، أما منطقة الهدا فإن العمران لم يبدأ فيها إلا بعد فتح طريق كرا الذي تم خلال الثمانينات.



المدينة المنورة

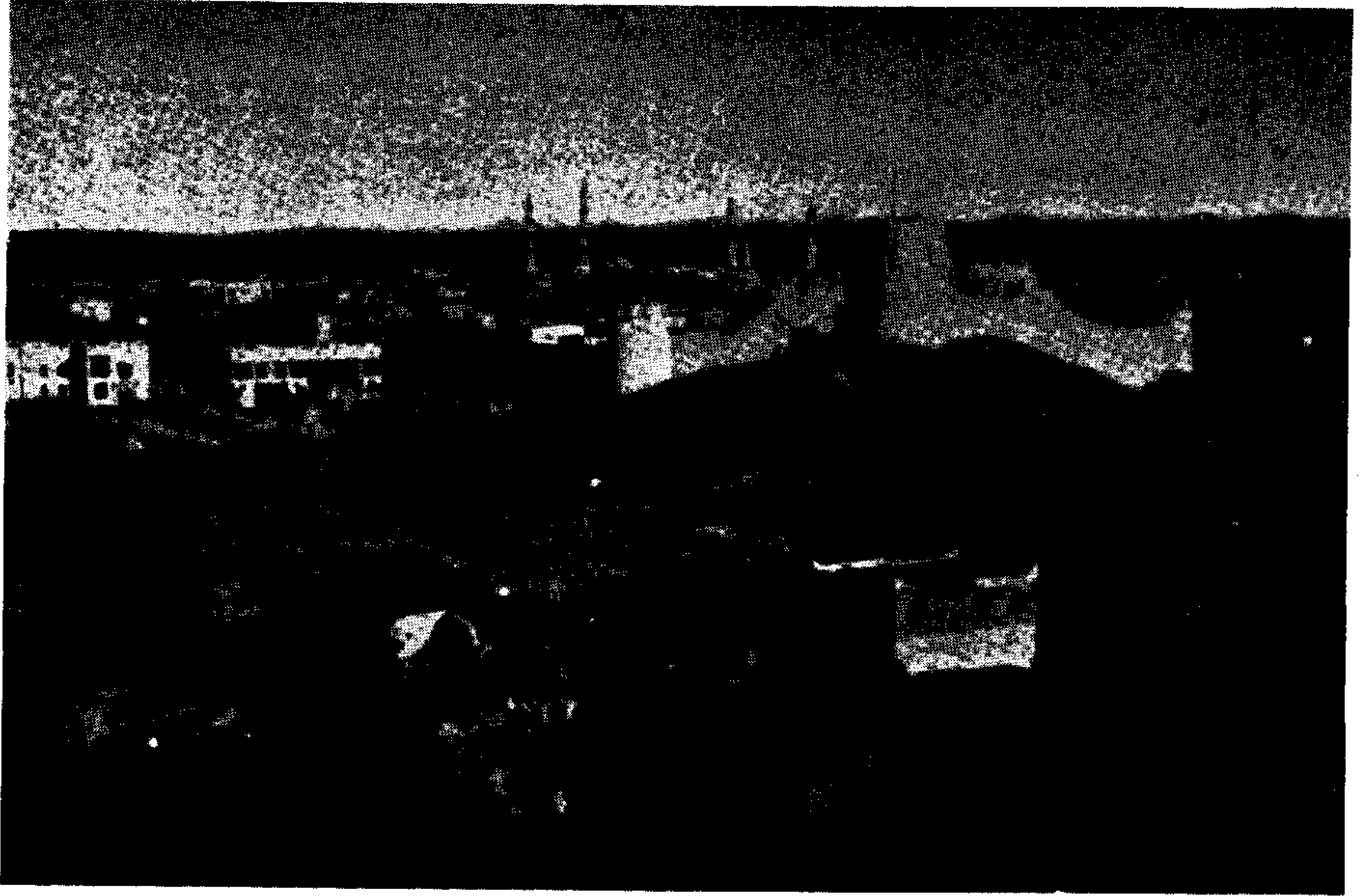
أما المدينة المنورة فكان بها كذلك باب العنبرية، وهو في الجهة الجنوبية، وهو نهاية العمران بالنسبة لهذه الجهة، ولم يكن أمامه إلا الفضاء الواسع، وفي الجهة الجنوبية باب الشامي، وهو في موضع محطة أبوالعلا حالياً عند جبل سلع، وما خلفه فضاء باستثناء البساتين الموجودة حول جبل أحد، وفي طريق سلطانة وبها بعض البيوت الصغيرة كذلك، أما في الجهة الغربية فكان مسجد الغمامة وحوله بعض البيوت، وأبرزها بيت الخريجي، وكانت الساحة الكبيرة أمامه إلى باب الشامي تكاد أن تكون خالية، باستثناء بعض البيوت المقامة في امتداد الساحة مما يلي شارع العينية، والمسافة ما بين مسجد الغمامة وقباء كانت خالية تماماً من العمران، إلا من بعض البساتين التي تحتوي على مساكن صغيرة، وكل ما حدث بعد ذلك من عمران كبير سواء في داخل المدينة المنورة أو خارجها في جميع الاتجاهات هو حديث بعد الستينات، ونستطيع أن نقول: إن المدن تضاعفت مساحاتها أضعافاً كثيرة، كما تضاعف سكانها عشرات المرات، وهذا ينطبق على كل مدن المملكة، لا على مدن الحجاز فحسب، وليس من أغراض هذا البحث تقديم الإحصاءات والخرائط، فهي متوفرة عن كافة مدن المملكة في مكانها، وإنما الغرض هو تصوير ما كانت عليه الحال قبل ثلاثين عاماً، ليحيط بذلك من لم يدرك ذلك الزمان.

البيوت والأسواق والحوانيت

أثمان العقار وأجورها

وكان العقار رخيص الثمن، وكان البيت المتوسط يبلغ ثمنه ثلاثمائة جنيه، وهو يكفي لسكن ثلاث عوائل، أما البيوت الكبيرة المشهورة والتي تقع في الشوارع العامة، أو في مواجهة البحر في باب جديد موضع فندق البحر الأحمر، وامتداد شارع الملك عبد العزيز إلى فندق قصر جدة، فكانت أثمانها تصل إلى ألف جنيه ذهب، وربما أكثر بحسب حالتها من الجدة والقدم.

وكانت أجرة الدار المتوسطة في حدود ثلاثمائة ريال، وكان كثير من الناس يسكنون في دورهم والذين لا يقدرون على شراء الدور يسكنون في دور مؤجرة، وكان البعض يستأجر مجلساً واحداً بما يتبعه من إحدى الدور، و يستأجر الآخرين بنفس الترتيب.



منظر للمدينة المنورة من الجهة البحرية عام ١٣٢٥ هـ



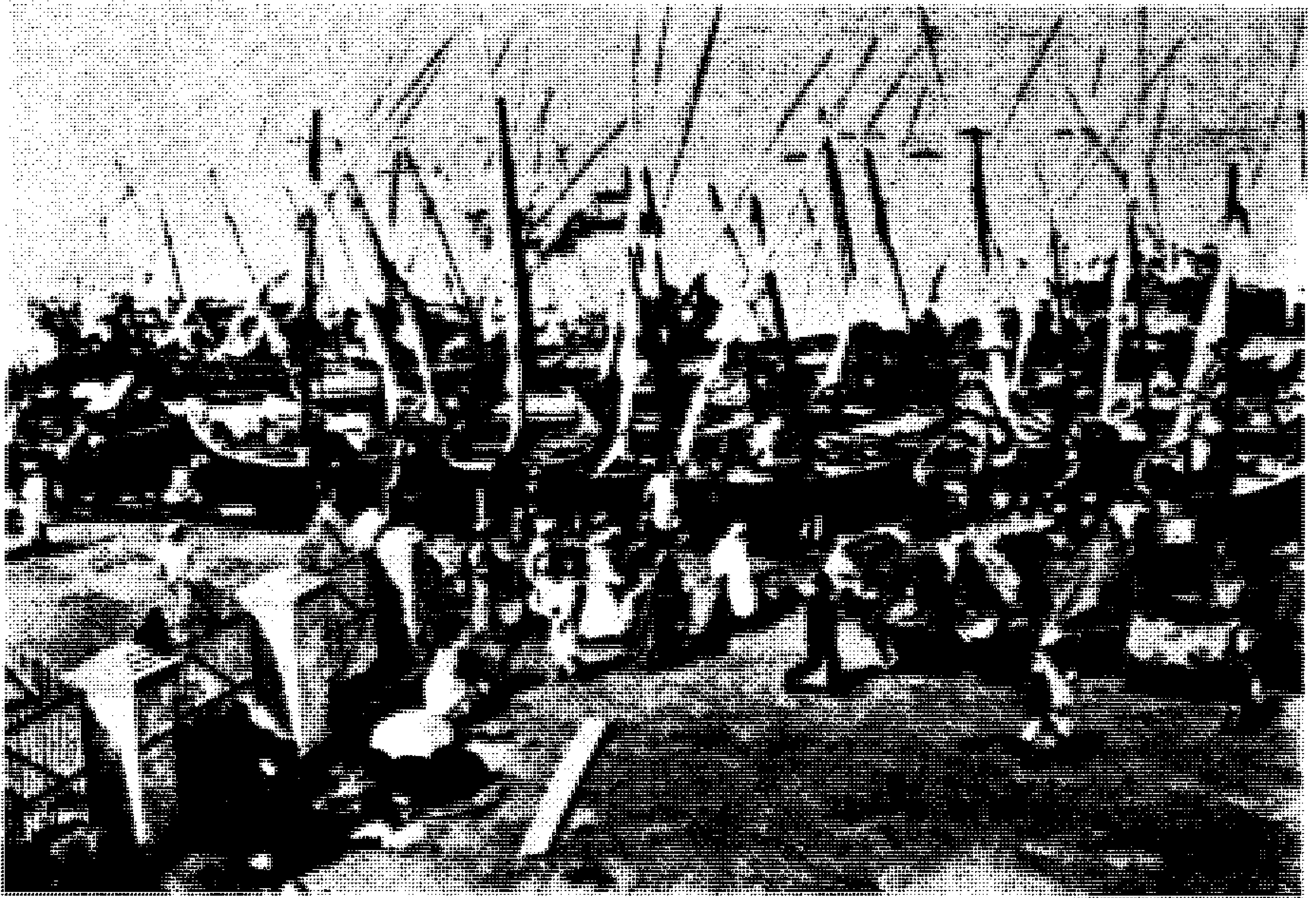
منظر يمثل المسافة بين جبل سلع وجبل أحد

بيوت القنصليات

وكانت أحسن الدور موقعاً وأجملها بناء تؤجر في جدة على السفارات الأجنبية، وكان للشيخ عبد الرحمن باناجة -يرحمه الله- نصيب الأسد في هذه البيوت، التي تستأجرها السفارات، وكانت تسمى القنصليات في ذلك الوقت، لأن درجة التمثيل كانت على مستوى القنصلية، ثم تحولت فيما بعد إلى درجة الوزير المفوض، نقول: كان آل باناجة يملكون معظم البيوت التي تقع في باب جديد، أمام البحر -شارع الملك عبد العزيز أمام فندق البحر الأحمر، إلى فندق قصر جدة حالياً- وكانت السفارة المصرية تسكن في موضع عمارة النشار حالياً، وإلى جانبها الدار التي لاتزال موجودة وقد اشتراها الشيخ عبد الرحمن الصيرفي وكان يسكنها السفير أو الوزير المفوض الإيطالي، وقد بنيت هذه الدار خلال ستة شهور بعقد مع السفارة الإيطالية، وإلى جانبها كان هناك بيت آخر كان مقراً للقنصلية الإيطالية، ثم حلت فيه السفارة السورية بعد نيل سوريا استقلالها، وهذا البيت هو الذي يقوم محله الآن فندق انترناشيونال، الذي بناه المرحوم الشيخ عبود باجبير بعد شرائه من آل باناجة، وأمام البحر لجهة الغرب، كانت هناك الدار التي يملكها الشريف الحسين بن علي، وكان ينزل بها في جدة بعد أن تملكها، وكان قبل ينزل في دار الشريف طه مهنا في حارة الشام، ثم سكنتها السفارة التركية فيما بعد، وبعد هذه الدار كانت هناك بيوت صغيرة لآل باناجة، كذلك كانت مقراً للمستر توتشل الذي عمل في منجم الذهب، وأسس شركة التعدين الأمريكية السعودية، ثم أصبح مقراً للبنك الهولندي، ثم للبنك العربي، وقد اشتراه مع الدار المجاورة له وما يتبعها الشيخ أحمد عشماوي مؤسس شركة الأسواق السعودية، كما ذكرنا قبل، هذه البيوت جميعها كانت ملكاً لآل باناجة، وكانت أجورها تتراوح بين مائتين وثلاثمائة جنيه ذهب سنوياً، وكان هذا يعتبر إيجاراً عالياً يغبط عليه أصحابه، وكانت السفارة الإنجليزية تسكن في دار لآل الناظر، وقد ذهبت في توسعة شارع الذهب الحالي الممتد بموازاة شارع الملك عبد العزيز، وكان إلى جانبها ملعب للتنس، وكانت هذه الدار والملعب التابع لها ملكاً لآل الناظر، أما السفارة العراقية فكانت تسكن بدار آل مهنا في مواجهة فندق قصر البحر الأحمر تقريباً، وكانت السفارة الروسية يوم أن كانت موجودة بجدة تسكن في بيت الزاهر بحارة الشام، وهو ملك آل الهزازي، كما كانت السفارة الهولندية تسكن في أول دار بنيت بالمسلح



صورة مقبرة أمنا حواء



صورة لميناء جدة القديم

للحاج عبد الله علي رضا أمام البحر، وكانت مقراً لشرطة جدة، وهي لا تزال باقية حتى الآن في موضعها غير مسكونة، وحينما بنى الحاج يوسف زينل علي رضا داره الكبيرة أمام فندق قصر جدة، واستقدم لها العمال والمهندسين من الهند، كانت تعتبر من أجمل الدور، وبعد أن سكن فيها فترة استأجرتها شركة أرامكو التي كانت تسكن في منزل للشيخ عبد الرحمن باجنيد خلف دار الحاج عبد الله علي رضا التي أسلفنا ذكرها، ولا يزال هذا البيت قائماً حتى الآن.

يتضح مما تقدم أن أثمان العقار وأجوره كانت في حدود المعقول بالنسبة لذلك الزمان، وأن العقار الثمين هو الذي كان يؤجر إلى السفارات الأجنبية أو الشركات الأجنبية مثل عقار آل السقاف الذي كانت تسكنه شركة جلاتلي هنكي، والقنصلية الفرنسية وغيرها، وكان أمام سجن القلعة في موضع عمارات الأمير طلال حالياً التي كانت تسكنها بلدية جدة في شارع الملك عبد العزيز، وقد اشترى هذا العقار فيما بعد الذي آلت ملكيته إلى والدة الأخ الحاج محمد عبد الله رضا وزير التجارة الأسبق، اشتراه المرحوم الشيخ صالح عيسى بوقري وقد أزيل هذا العقار جميعه في توسعة شارع الملك عبد العزيز، وما بقي منه سيبني عليه أبناء الشيخ صالح بوقري عمارة كبيرة كما علمت والله أعلم.

وكان التجار كما ذكرنا يتخذون من بيوتهم سكناً ومكاتب، أما الدكاكين فكان يملك أهمها أشراف آل غالب في السوق الكبير في جدة، ولم يكن هناك ما يعرف بالخلو أو نقل القدم وكان الإيجار يدفع نصف سنوي، أي يدفع نصف الإيجار في شهر محرم، والنصف الثاني في شهر رجب من كل عام.

عقار مكة

هذا بالنسبة لمدينة جدة، أما بالنسبة لمكة المكرمة، فكانت مشكلة العقار في كل عام تشكل بعض الصعوبات، مما حدا بالحكومة في العهد الهاشمي ثم السعودي إلى تأليف لجنة العقار التي كان يرأسها المرحوم الشيخ عبد الوهاب عطار، وكان رجلاً محبوباً محترماً وكانت هذه اللجنة تحل الخلافات بين المستأجرين بطريقة التراضي، ذلك أن معظم عقار مكة المكرمة كان كما هو جار في الوقت الحاضر يؤجر إلى الحجاج، فإذا كان الموسم طيباً ربما أجَّر الساكن بيته بمثل الأجرة التي دفعها لقاء تنازله عن الدار لفترة لا تزيد عن الشهر إن لم تقل، وقد يؤجر بأكثر أو بأقل، حينذاك يشعر المالك أنه مغبون، لأن المستأجر سكن دون أجر أو بأجر لا يذكر، فيطمع في زيادة

الأجرة للعام التالي، وقد يتغالى في طلبه أو يطلب الإخلاء، وكان بعض الناس وخاصة المطوفين يحرصون على البقاء في دورهم، لأن حجاجهم عرفوها، واطمأنوا إليها، فهم لا يرغبون في التغيير، وهكذا تقع الخلافات وخاصة حينما كانت الإجارة حرة غير مقيدة، وكانت سياسة الحكومة هي حرية العقار، لأن التقييد إذا حلَّ المشاكل العاجلة فهو قد يخلق مشاكل مستقبلية كبيرة، وهكذا فإن وجود لجنة للعقار في مكة المكرمة كانت ضرورة أملاها واقع الحال، أما أجور العقار في الطائف فكان يؤجر إجارة صيفية للمصيفين من أهل مكة الذين يقضون الصيف بالطائف، وكانت هذه الأجور تتراوح زيادة ونقصاً بحسب كثرة القادمين للطائف أو قلتهم، كما كانت هناك بيوت منى التي تؤجر في أيام الحج، وكانت الأسعار تزيد بزيادة عدد الحجاج، وتنقص بنقصهم، ولكن هذه الأجور بصورة عامة كانت في حدود الاحتمال، وفي الخمسينات كنا نستأجر البيوت المتوسطة في منى على الشارع العام بمبالغ تتراوح بين العشرة والخمسة عشر جنيهاً فحسب.

الأسواق في جدة

كان أشهر سوق في مدينة جدة إلى الستينات هو السوق الكبير في جدة الذي يملكه الأشراف آل غالب، وكان فيه كثير من المحلات التجارية وخاصة تجارة الأقمشة وبعض الأحواش التجارية، ذلك أن التجار كانوا في ذلك الزمان يختارون محلات لهم بها مخازن كبيرة لخزن بضائعهم، لتكون أمام أعينهم، وإلى جانب هذه المخازن توجد مكاتبهم، وبعضهم كان محل سكناه في علو هذه البيوت، أو من بعض مباني بيوته توجد المخازن مثل بيوت باناجة في سوق الندا، الذي يبدأ من بعده السوق الكبير الذي نتحدث عنه الآن، ومن أشهر هذه الأحواش حوش الصنيع، الذي كان يملكه الشيخ إبراهيم حمد الصنيع رحمه الله، والذي حوله فيما بعد إلى دكاكين للإيجار، ويطلق عليه الآن شارع الصنيع ويأتي في الترتيب أهمية بعد السوق الكبير شارع قابل، ويمتد من السوق الكبير شارع فرعي كان في وقت من الأوقات خاص بتجار الملابس الرجالية، وهو يمتد إلى سوق الحراج، وكان هناك سوق العلوي الذي يصل إلى باب مكة، وهو خاص بتجار الأرزاق والحبوب والسمانين، وبعض باعة الأطعمة والخبز، وكان هناك سوق الجامع وهو وقف على مسجد الشافعي أقدم مساجد جدة وأكبرها في ذلك الزمان، وكان فيه

كذلك بعض باعة الأطعمة والخبز والمزينين، وبعض الدكاكين الصغيرة ممن كانوا يطلقون عليها دكاكين السكر والشاهي، ثم سوق البدو وهذا السوق كان خاصاً بمعاملات البادية، وما تحتاج إليه من أنواع الأقمشة وهو موازٍ لشارع العلوي، والشارعان يمتدان إلى باب مكة المكرمة، وكثير من هذه الأسواق باقية وتحتفظ بأسمائها حتى الآن.

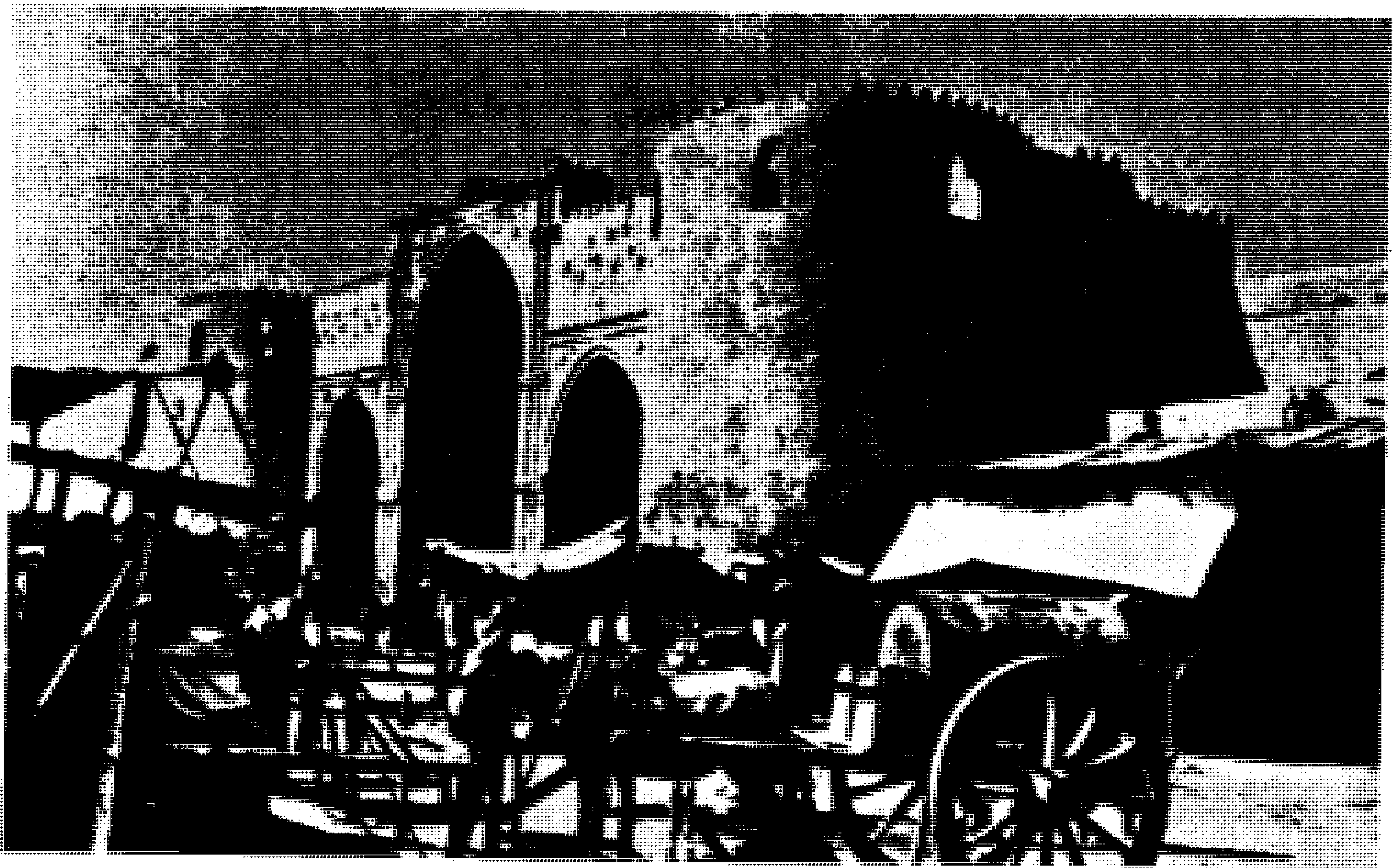
أسواق مكة المكرمة

أما الأسواق التي كانت لها أهمية عظمى في مكة المكرمة، وانتهت من الوجود وأصبحت في ذمة التاريخ، فأهمها سوق سويقة، وكان خاصاً بالقماشين، وباعة العطور، والبخور، وبعض الجواهريين، وباعة الكولندي، وهي صناعة معدنية مزخرفة جميلة الشكل، لأدوات القهوة والشاي والأباريق والصحون والتباسي المعدنية التي كانت ترد من الهند، وأشهر مستورديها هم آل الدهلوي، وكان هذا السوق مسقوفاً وكان أهله يهتمون بنظافته ورشه بالماء، وكان ضيق العرض لا تدخله السيارات ولا العربات فكنت إذا جلست فيه في الصيف أحسست بلطافة الجو، وبرودة الهواء، أما شارع المسعى فكان بامتداد المشعر من الصفا إلى المروة، وكان الشارع متعرجاً وتقوم فيه أهم دكاكين الصرافين، وباعة الخردوات، والعمائم الألفي، والعطور، والمسابح، والطرابيش، وكان شارعاً كبيراً ترتفع فيه العمارات الشاهقة، وفي نهايته باعة المشروبات والمزينين في منطقة المروة حيث يستقبلون الحجاج والمعتمرين لحلاقة شعورهم، أو تقصيرها وليجدوا من المشروبات المثلجة ما يخفف عنهم نصب السعي في الأشواط السبعة بين الصفا والمروة.

وقد أزيلت سويقة كما أزيل شارع المسعى جميعه بكل ما كان في علوهما من أبنية عظيمة، وأدخلت جميعها في توسعة المسجد الحرام في العهد السعودي، كما أزيلت كثير من البيوت في أحياء كثيرة من مكة المكرمة وكان هناك السوق الصغير وهو سوق للأطعمة والخبز يؤدي إلى باب إبراهيم كما كان هناك سوق الهجلة، وهو في موضع فندق الحرم الذي يملكه أغوات الحرم المكي الشريف، وكان في موضعه مركز للأغوات يقيم فيه شيخهم، وقد اضطر بعد ذلك تجار الأقمشة الذين كانوا مختصين بسويقة أن يتفرقوا في أماكن كثيرة نائية، وذلك لامتداد المدينة العظيمة ولعدم وجود سوق خاص بهم كما كان قبل.



صورة لباب مكة ...



صورة لباب جديد...

زقاق البخارية

وكان في مكة كذلك زقاق البخارية، وهو شارع به حوانيت للتركستانيين الذين يسمون في مكة بالبخارية، نسبة إلى مدينة بخارى التي كانت عاصمة من عواصم التركستان، والتي أخرجت كثيراً من العلماء من أشهرهم الإمام البخاري، وهو صاحب أحد الصحاح الستة، وأشهرها وكان هؤلاء التركستانيون قد هاجروا إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف فراراً بدينهم بعد قيام الحكم الشيوعي في بلادهم(١) وكانوا يحترفون الخياطة وعمل الأحذية الجيدة، كما كانوا يصنعون طعامهم الخاص المشهور بهم، وأهمه «التميز» وهو خبز خفيف به ثقوب كثيرة، كما أنهم كانوا يصنعون المانتو واليغمش، وهو عجين محشو باللحم المفروم، وإليهم ينسب الرز البخاري كذلك، وهو طعام معروف للجميع، وكان هذا الزقاق قريباً من الحرم بجوار مطبعة وإدارة جريدة أم القرى، وكان هذا الزقاق يؤدي إلى محلة المسفلة التي عرفت بسكن معظم التركستانيين بها، وقد أدخل هذا الزقاق مع مطبعة أم القرى، وخلافها في التوسعة الجديدة للحرم المكي الشريف.

شارع العينية بالمدينة المنورة

وكان أهم شوارع المدينة المنورة هو شارع العينية، وهو يبدأ من الساحة التي أمام باب السلام في المسجد النبوي الشريف ويمتد إلى شارع المناخة، وكان شارعاً تقوم به الحوانيت على الجانبين، وفي علوه الدور، وقد بقي هذا الشارع إلى أن تمت إزالته لإدخاله في التوسعة المنوي إجراؤها للمسجد النبوي الشريف، وعلى أي حال فإن إزالته لم تتم إلا منذ بضع سنوات.

(١) انظر كتابنا لعنة هذا الزمن، ففيه بعض التفصيل عن هذا الموضوع.

طريقة البناء وموارده

كانت الطريقة المتبعة في البناء في مدينة جدة خلال الأربعينات وما قبلها وإلى الستينات، تعتمد على البنائين الوطنيين، وكانت مواد البناء في عمومها محلية باستثناء الأخشاب، كما سيرد تفصيله فيما بعد.

الحجر المنقبي

وكانت طريقة البناء تعتمد على الحجر الذي يستخرج من مناقب خارج مدينة جدة وكانت هذه المناقب قريبة من البحر في الشمال الغربي لمدينة جدة، وقد أدركت إحدى هذه المناقب الكبيرة وهي قريبة من شارع المدارس الآن في الطريق المؤدي إلى الرويس، وكانت الأخرى في الرويس قرب البحر كذلك قريباً من شركة منجم الذهب، والتي لا يزال البيت الذي أسسته هذه الشركة قائماً في مكانه حتى الآن، وكان هناك متعهدون يستخرجون هذه الأحجار من هذه الأماكن، ويبيعونها بالمائة، وكانت هذه الأحجار رخوة، كما أنها تستخرج غير متساوية، فإذا وصلت إلى محل العمارة المطلوب بناؤها، تولى تهذيبها عمال متخصصون بحيث يجعلونها تبدو متساوية الأضلاع، في أحجام أقرب إلى الاستطالة، وكان الطين الذي يستخرج من البحر «كانوا يسمون البحر الذي لا يزال موجوداً أمام فندق قصر البحر في جدة «بحر الطين» وما بعده إلى الجنوب الغربي كان يسمى بحر الأربعين، وكان يستخرج الطين من هذا البحر، وهو مادة لزجة أقرب إلى السواد، وكان هذا الطين هو المادة التي تستعمل فيما بين الأحجار، وكانوا يساوون هذه الأحجار بأحجار صغيرة اسمها الحشو، ونظراً لأن هذا الطين وهذه الأحجار لايمكن أن تقوم وحدها كما أنها لا تستطيع مقاومة الجو الرطب في مدينة جدة، فكانوا يستعملون في طلاء الجدران مادة النورة.

النورة البلدي

وهذه النورة كانت تتم في مصانع لها قرب باب مكة، يتم فيها حرق الأحجار وتكسيرها حتى تتحول إلى بودرة أقرب إلى البياض، وكلما كان لون النورة أكثر بياضاً كانت أجود نوعاً، وكان العمال الذين يقومون بطلاء الجدران من الداخل والخارج يسمون النوارين، وأحدهم نوار، وكان يفرق بينهم وبين البنائين بأن يدعى الأول المعلم النوار، والثاني المعلم البناء، وكان المعلم هو اللقب الذي يسبغ على رئيس العمال، وهو أشبه بمتعهد تور يدهم، أما المعلمون الأقل درجة فإن ألقابهم هي الصنايعي فيقال صنايعي نوار، وصنايعي بناء، وقراري وهو الذي يقوم بتهذيب الأحجار وإعدادها للبناء.

الخشب لشد الجدران والسقوف

وكانوا يستعملون الأخشاب في مساحات معينة من الارتفاعات، ويسمونها البتر، واحدتها بترة، أي أنهم كانوا يبترون البناء، ويضعون بعض الأخشاب بين الأبنية، ثم يشيدون عليها الجدار الباقي، فإذا وصلوا إلى السقف وضعوا بعض هذه الأخشاب في أماكن النوافذ، وتسمى العوارض ثم قاموا بشد السقف وهو يعتمد على أعمدة أولاً من القندل، وهو خشب مستدير الشكل قوي جداً ومتساوي الطول فيفرشون هذه الأعمدة بعرض السقف، ويجعلون بين كل عمود وعمود مسافة تتراوح بين ربع المتر أو نصفه بحسب ما سيتحمله السقف من طبقات أخرى فوقه، ثم يغطون هذه الأعمدة بألواح من الأخشاب الملساء، ثم يقومون بتجصيص السقف، وذلك بوضع التراب عليه وإدارة الأحجار من حوله ثم طليه بالنورة.

خشب الدوم والخسف

وهذه على أي حال تعتبر طريقة حديثة بالنسبة للزمن الذي وصفناه، فقد أدركت بعض المنازل القديمة في جدة، والأخشاب التي تستعمل فيها من المواد المحلية، فكانوا بدلاً من استعمال أعمدة القندل التي كانت ترد من الهند، أو من بعض موانيء الشرق الأقصى، كانوا يستعملون خشب الدوم الذي كان يرد من الطائف، والذي كان يستخرج من بعض الأودية هناك، وكان خشباً غليظاً قوياً، يبلغ سمكه ضعف سمك أعواد القندل، ولم يكن متساوياً في الطول، فكان يبدأ عريضاً، ثم يتدرج في السمك حتى يكون في آخره رفيعاً، بدرجة النصف أو الربع من السماكة التي بدأ بها، ولم يكونوا يستعملون الأخشاب لتغطية السقوف وإنما كانوا يستعملون الخسف، وهو المادة التي كانت تصنع من أوراق جريد النخل، ثم يهيلون عليها التراب، ويطلونها بالنورة، بالطريقة السابقة لإتمام السقف وكانت هذه الطريقة أقل تكلفة لرخص المواد المستعملة في البناء.

الخشب الجاوي

ويبدو أن ورود الخشب الجاوي الذي كان ينفرد باستيراده آل السقاف من سنغافورة، هو الذي أحدث التغيير الشامل في استعمالات الخشب، ذلك أن السيد السقاف كان له شأن كبير في مدينة سنغافورة، وكان يملك أملاكاً كبيرة فيها، وكان يستورد الأخشاب من سنغافورة إلى جدة بطريقة لا تكلفه شيئاً في أجور النقل، قالوا إنه اتفق مع شركات البواخر التي تنقل الحجاج الجاويين إلى جدة أن يقوم هو بفرش أرضيات البواخر التي تسمى «الأخنان» بالخشب، حيث يسافر الحجاج الكثيرون في هذه الأخنان والنادر منهم من يستعمل الغرف الغالية الأجور، فإذا وصلت الباخرة إلى جدة ونزل منها الحجاج تسلم وكيل السقاف في جدة هذه الأخشاب، ثم عرضها للبيع فلم يكن هناك من يستطيع مجاراته في هذا الأمر، لأن أي مستورد للأخشاب، لا بد أن يدفع أجور نقلها علاوة على أن الناس كانوا يعتبرون أي تجارة غير تجارة الأرزاق والمواد الأساسية، تجارة غير مضمونة ويسمونها «خُمَّانْ» تهويناً لشأنها.

الروشان والشباك والمنور

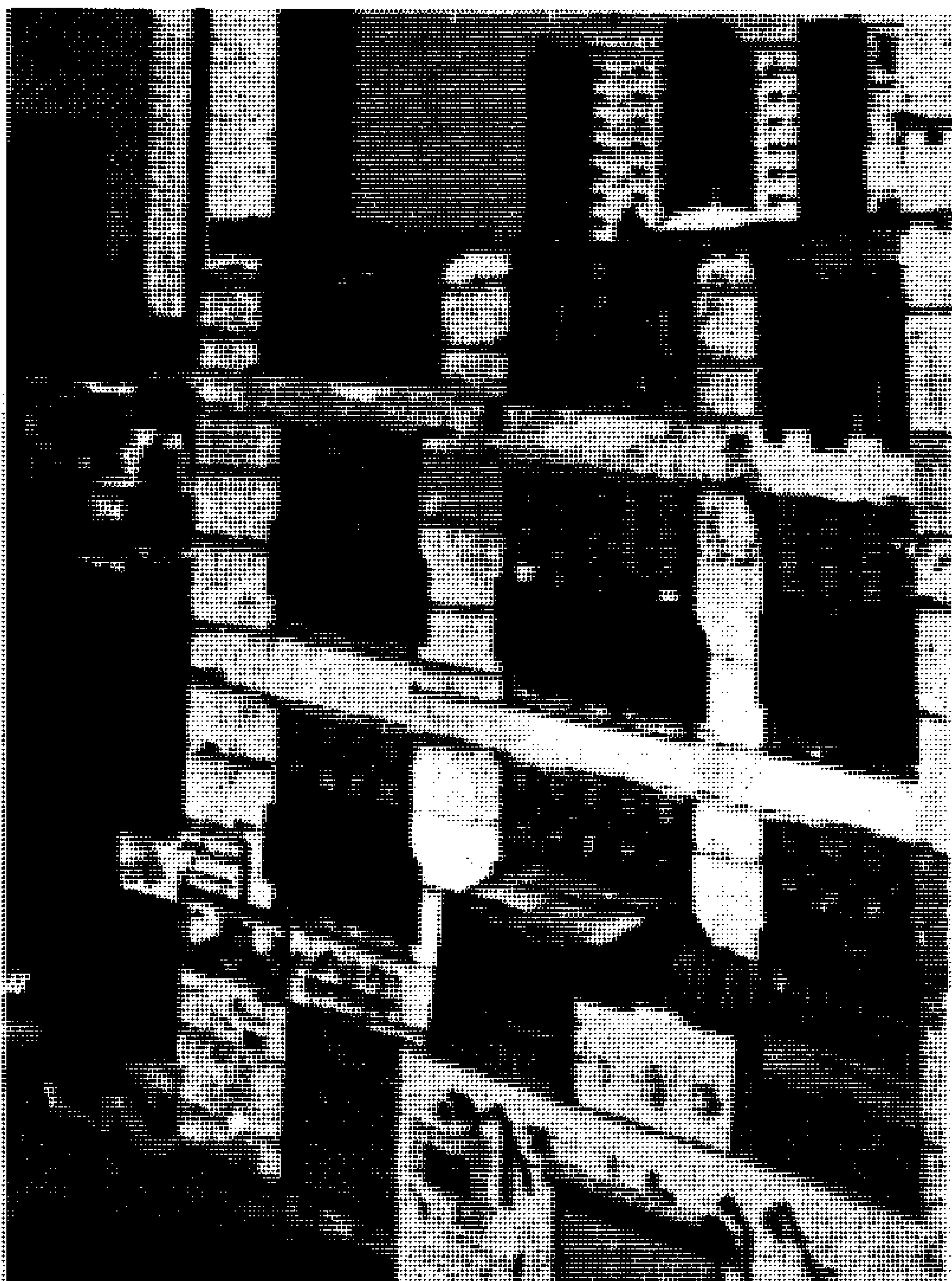
وعلى ذكر الأخشاب فإن النوافذ تكون جميعها من الأخشاب وهي على ثلاثة أنواع :

الروشان :

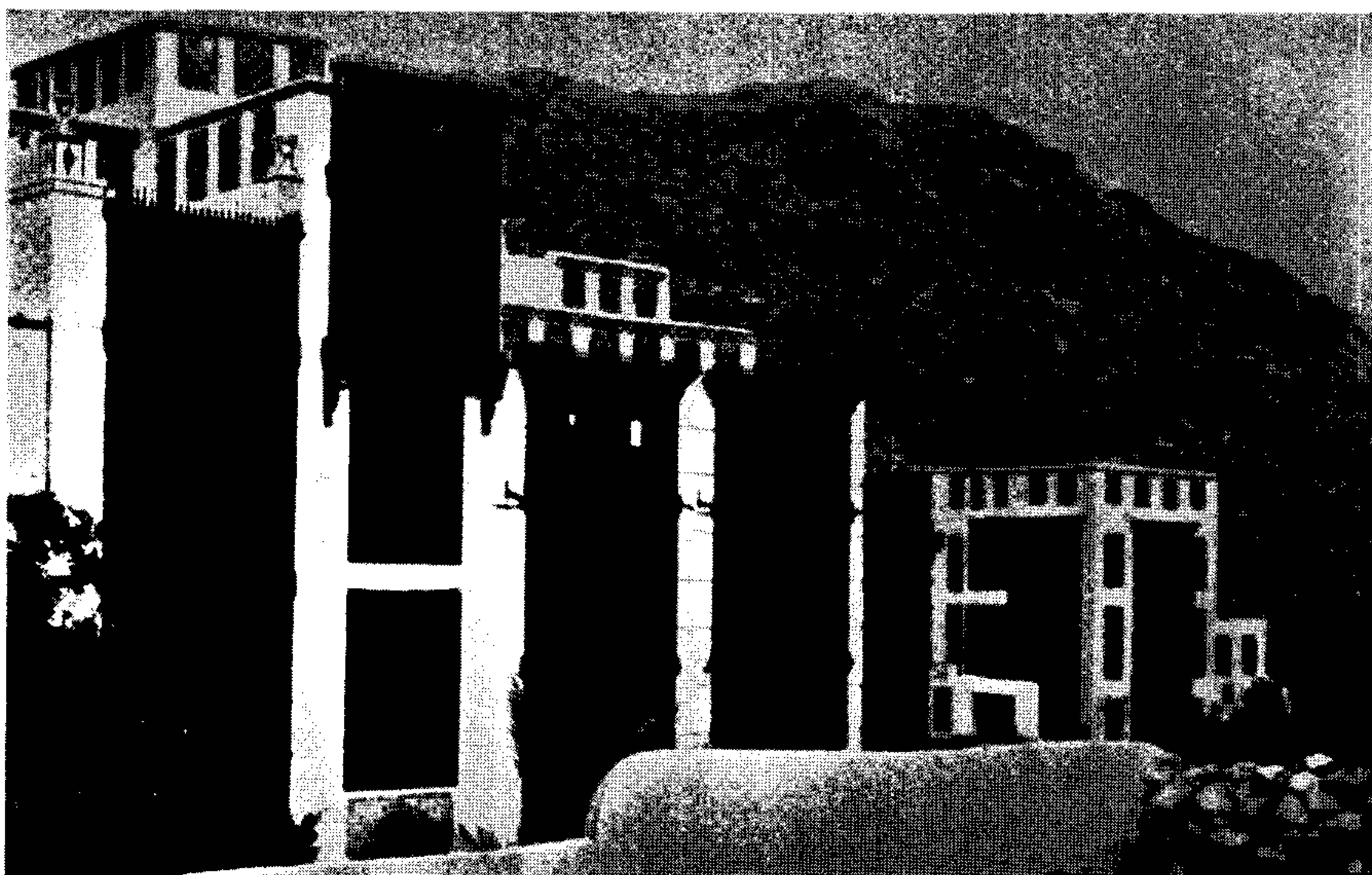
وهو أهم مجلس في المنزل، وهو عبارة عن دكة مبنية من الحجر، توضع لها نوافذ كبيرة بحيث تدخل الهواء من ثلاث جهات وتستعمل لها نوافذ خشبية مزدوجة متحركة بحيث تتحرك السفلى إلى تحت والعليا إلى فوق، و يأتي من خلفها الشيش الذي يوضع فوق قاعدة خشبية بعرض نصف المتر أو أقل، والشيش هذا مهمته إدخال الهواء والنور، ومنع الكشف بحيث لا يستطيع الجار أن يرى ما يجري في بيت الجار الآخر من خلال هذا الشيش الذي كان عبارة عن أخشاب رفيعة طو يلة تسمر في إطار النافذة بطريقة متشابكة بحيث تبقى منها فتحات صغيرة لإدخال الهواء والنور، وقد تطور الروشان فيما بعد وكذلك الشباك الذي سيرد وصفه حينما أدخلت الطريقة التركية في صنع الشبابيك، فاستغنى عن الشيش وأصبحت النوافذ ذات درف تصنع من ألواح خشبية متساوية، بحيث يكون في النافذة ما يقرب من خمسة عشر لوحاً صغيراً متحركاً بعمود من الخشب بحيث يمكن تحريكها لإدخال الهواء والنور أو قفلها تماماً بحيث لا يرى من خلالها شيء، ثم أضيف إلى الروشان نوافذ أخرى زجاجية وهذه إنما دخلت بعد الأربعينات، وهي الطريقة القائمة حالياً في كثير من البيوت التي لم تستعمل الألمونيوم، وهو أحدث ما تطور إليه وضع النوافذ حتى الآن.

الشباك :

إن الفارق بين الشباك والروشان هو أن الشباك ذو واجهة واحدة، فتكون قاعدته صغيرة بحيث يدخل الهواء والنور من الجهة التي يكون الشباك موجوداً فيها، وكان يأتي بعده الشيش كذلك بنفس الوصف الذي ذكرناه في صنع الروشان.



الشبابيك في بيوت جدة القديمة ...



صورة تمثل البناء الحديث

المنور :

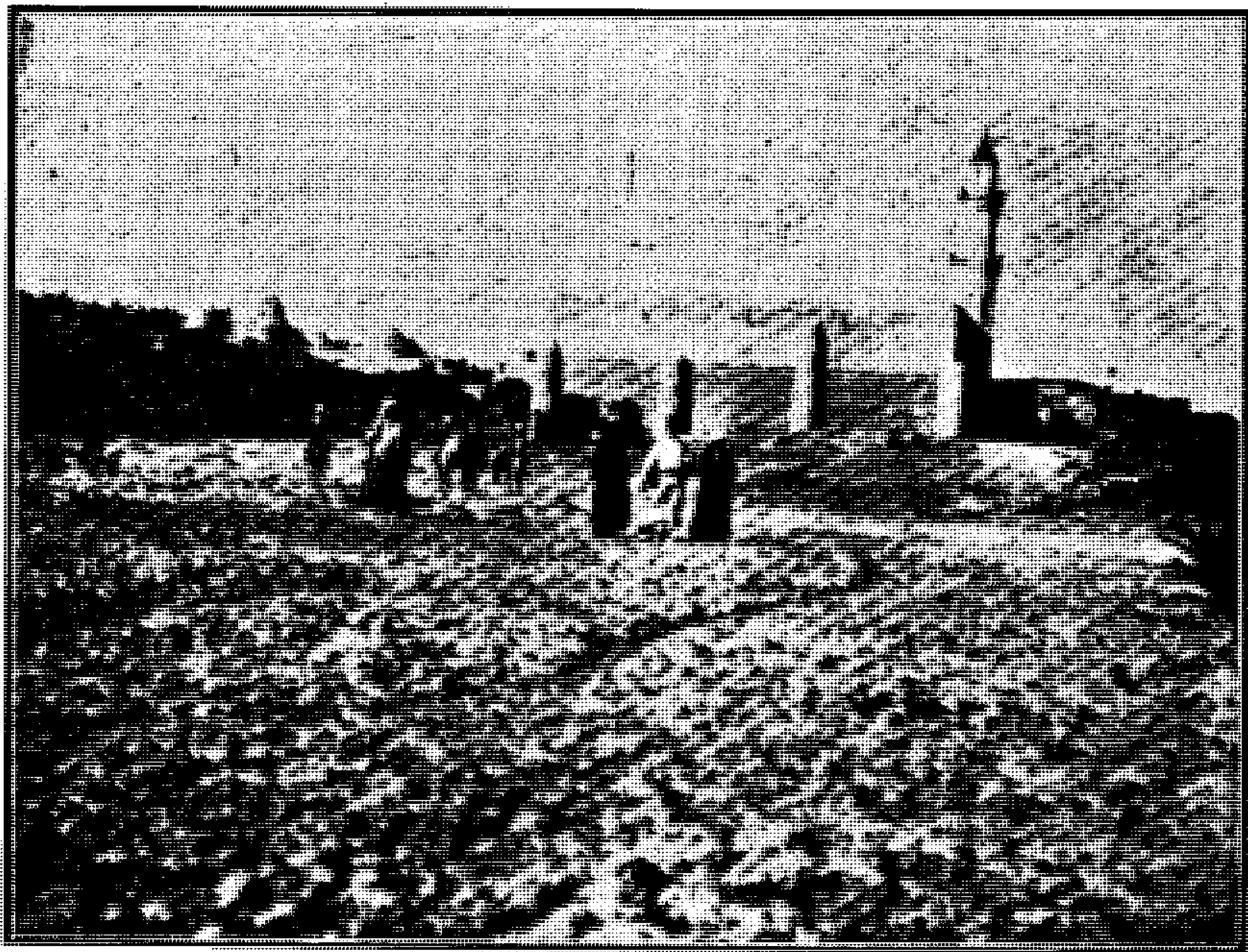
أما المنور فهو عبارة عن نافذة صغيرة، تكون في أعلى الغرفة ولها إطار خشبي تركب بها أعمدة حديدية، إن كان المنور قريباً من الشارع، أو يركب لها زجاج إن كانت في الحمامات «بيوت الماء» و يستعمل المنور لإدخال النور في السلالم والحمامات والمخازن السفلية وما إليها.

فحل الدرج

إن البناء القديم الذي وصفنا مواده فيا سبق، يعتمد على ما كان يسمى بفحل الدرج، وهو القاعدة الهامة التي تتحمل البناء كله إذا صح هذا التعبير، ذلك أنهم يعمدون إلى بناء جدار عريض متين تدار من حوله السلالم و ينتهي بفسحة تؤدي إلى مدخل المجلس والغرف الملحقة به، وكانوا يبنون فحل الدرج من جدارين، بينهما فجوة كبيرة توضع فيها الأحجار الكثيرة المخلوطة بالطين و يعتبرون ذلك تقوية للجدارين وربطاً لهما ببعضهما البعض، ثم تطلى الجدران جميعها بالنورة المصنوعة محلياً كما أسلفنا، وكان الخراب إذا وقع في أي مكان من البيت يسهل علاجه كما أسلفنا، أما إذا وقع في فحل الدرج فإن الأمر يعتبر خطيراً.

البعجة

ذلك أن مواد البناء التي سبق وصفها مواد رخوة لا تستطيع مقاومة الجو الذي تغلب عليه الرطوبة الشديدة في مدينة جدة بالذات، فكان الخراب يسرع إلى هذا البناء فيظهر في شكل بروز ظاهر في الجدران، وخاصة في الدور الأرضي من البناء الذي يتحمل ثقل الطبقات الأخرى المبنية من فوقه، وكانوا يسمون هذا البروز «البعجة» وهي كلمة عربية صحيحة لأن البناء ينبعج من الداخل فيظهر بروزاً في الظاهر، وكانوا يسارعون إلى معالجة هذه البعجات، فيحضرون المعلم البناء الذي يقوم أولاً: بتعليق الجدار المنبعج، ذلك أنهم كانوا يجعلون في وسط الجدار حزاماً من الخشب فيزيلون من تحت هذا الحزام أحجاراً بسيطة، ثم يضعون أعواداً من خشب الدوم أو من القندل المتين تحت هذا الحزام ومتصلة بالأرض بحيث تتحمل ثقل البناء ثم



صورة مسجد قباء

«يلقطون» البعجة أي يز يلون الأحجار القديمة المتآكلة، التي سببت الخراب والانبعاج، و يبنون بدلها أحجاراً جديدة بنفس الطر يقة السابقة، ثم يطلونها بالنورة، و بعد إتمام ذلك يز يلون الأعواد التي علق عليها الجدار لأنه أصبح محمولاً على أحجار جديدة في صلب البناء، هذا إذا كانت البعجة في جدار ظاهري، أما إذا كانت في الجدار المتصل بالسلالم، والذي يسمونه فحل الدرج، فإنهم يلجأون إلى تعليق السقوف التي فوق الخراب بأعواد قو ية ومتينة، وقد يخلون المنزل إلى أن يتم إصلاح الخراب إذا كان البناء قديماً، ويخشى عليه من الانهيار خلال عملية تعليق السقوف أو أثناء عملية الإصلاح.

النورة الافرنجي

وكان الإسمنت مادة عزيزة جداً، ويباع لدى بعض الدكاكين المتخصصة ببيع أدوات البناء كالبويات والكوالين والمسامير بأنواعها، وكانوا يستعملونه في المحلات التي يكثر فيها استعمال المياه مثل بيوت الماء التي كانت اسماً للحمامات، وكان ثمن الكيس الواحد منها زنة خمسين كيلوجنيهاً ذهباً، وكان هذا يعتبر سعراً غالياً للغاية، وكانوا يسمون الاسمنت النورة الأفرنجي.

بيوت الماء - القصبة - الدبل

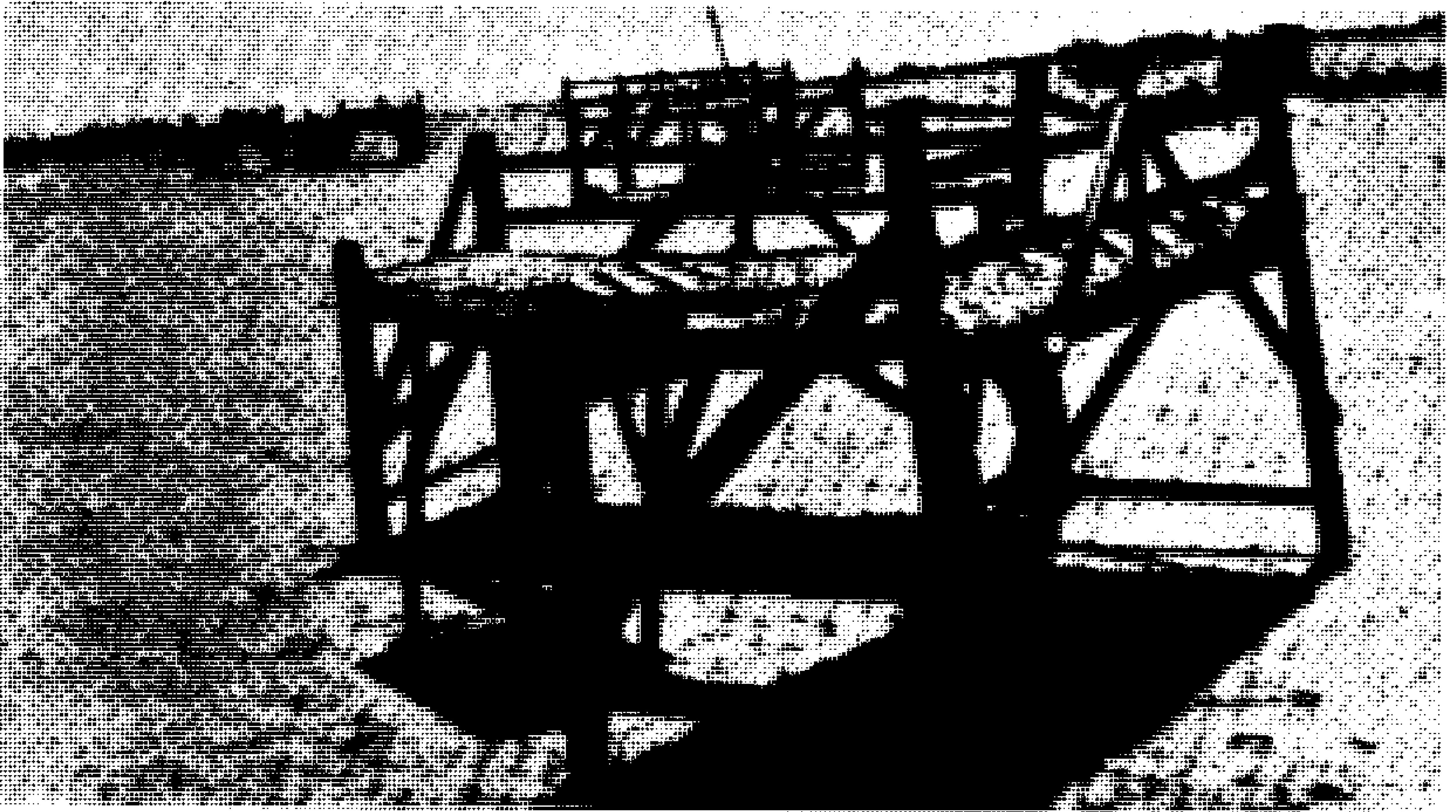
ولم تكن هناك مجار في البلدة، كما لا أحتاج أن أقول، ولكن كان لكل بيت قصبة، وهي مجرى مبني في الجدار، يتصل بالحمامات بحيث تنزل المياه جميعها مع الفضلات من هذه القصبة إلى ما يسمى الدبل، وهو في سفل البيت، أو في فناء متصل بالبيت، فإذا امتلأت هذه الدبول وكانت تمتلىء كل بضعة أعوام مرة، أحضروا لها من يقوم بفتحها ونزحها وتنظيفها، وكانت العملية تستغرق عدة أيام تبعاً لحجم الدبل، أي البئر الذي تتجمع فيه المياه والفضلات، وكانت عملية كريهة قذرة، كما لست في حاجة لأن أقول. وكان هناك شخص واحد في جدة هو المتعهد لهذه الأعمال اسمه «شمعون» وهو من أصل صومالي، ولم يكن يباشر العملية بنفسه ولكنه كان لديه عمال متخصصون فيها.

البناء في مكة والمدينة

إن البناء في مكة والمدينة لا يختلف عن البناء في جدة إلا في المواد المستعملة فيه، فالأحجار التي تؤخذ من المناقب في جدة تؤخذ من الجبال في مكة والمدينة، والطين الذي يستعمل في جدة، تستعمل بدلاً منه النورة المصنوعة محلياً، ولهذا كان البناء في مكة والمدينة أطول عمراً وأكثر كلفة



صورة لزفة المـاء ...



صورة لـكرس الشريط

علاوة على أن الجو الجاف الذي يسود المدينتين المقدستين يساعد على بقاء البناء وقتاً طو يلاً ، وكانت الأحجار التي تستخرج من الجبال وهي أحجار سوداء قو ية ومتينة لا تفقد أثمانها في حالة تهدم البناء أو خرابه لأنها تبقى على صلابتها وتماسكها بخلاف الأحجار المنقبية المستعملة في جدة فإنها تتفتت و يسرع إليها التلف .

الأقبية في مكة

وكانوا في مكة يحرصون على بناء الأقبية تحت الأرض في كل بيت لاستعمالها في وقت الصيف، لأنها تهيء الجو بارداً في أيام السموم، وشدة الحرارة، وقد رأيت بعض الأقبية وقد بنيت فيها البرك التي تملأ بالماء، و يفرش القبو من حولها، فيكون الجو فيه بارداً لطيفاً، وهذه الأقبية بالذات كانت تمنح البناء أساساً قو ياً يقوم عليه، ولم تكن الأقبية مستعملة في مدينة جدة لأن رطوبة الجو تجعل الجو فيها خانقاً وغير صالح.

القاعات في المدينة المنورة

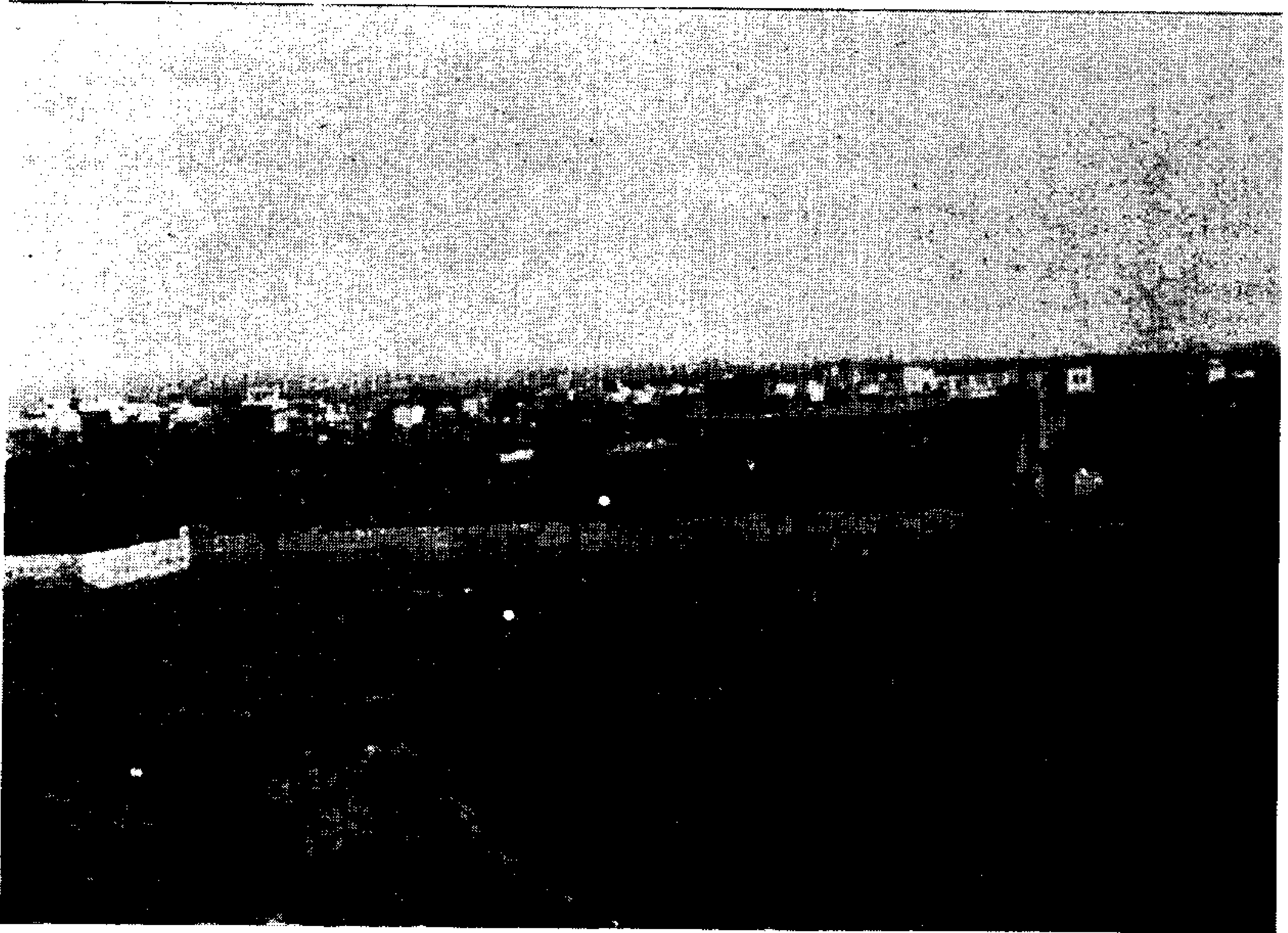
و يقابل القبو في مكة، القاعة في المدينة المنورة، وهي ديوان له فسحة أرضية ومفتوح إلى أعلى المنزل، وكان يستعمل كذلك في أيام الصيف، لأن الهواء الوارد من علو المنزل حينما يصل إلى الأرض يكون بارداً، وكانوا يرشون فسحات القاعات بالماء، و بعضهم يعمل فيها الفسقيات فتساعد على تلطيف الجو.

اللبن مادة البناء في الطائف

أما في الطائف فكان اللبن هو مادة البناء العظمى، وكان يعمل على شكل قطع مستطيلة و يستخرج من نفس التربة في الطائف، وهي تربة حمراء نقية، وكان قابلاً للتماسك وقد رأيت بعض البيوت وقد شيدت طبقات بعضها فوق بعض من هذه المادة، كما أنهم سواء في الطائف أو في المدينة كانوا غالباً ما يستعملون الأخشاب المحلية في السقوف، أو النوافذ، مثل خشب العرعر في الطائف، وجذوع النخيل في المدينة المنورة، لتوفر هذه المواد محلياً في كل من المدينتين، وكان البناء في الطائف لبرودة الجو قليل الارتفاع، إلا في قليل من البيوت، كما كان هناك بعض البيوت المبنية بالأحجار، والتي لا تختلف كثيراً عن الأحجار المستعملة في البناء، في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، لأنها جميعاً تستخرج من الجبال المحلية.

الحجر البحري

وكان في جدة نوع من الأحجار القوية الرمادية اللون، التي تستخرج من البحر، وكانوا يسمون هذا النوع من الأحجار «الحجر البحري» وكانوا يستعملونه في بناء الدبول مما يلي الأساسات لقوته وطول احتماله.



صورة لمنظر خارج باب قباء

الفصل الثالث

الملابس والأزياء

أزياء الرجال

كانت الأزياء في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر بالنسبة للرجال تتميز بالجبة والعمامة الألفي «العمامة الحجازية» بالنسبة لطبقة العلماء، والتجار، والطبقة الوسطى المتعلمة، مع اختلافات بسيطة سنفصلها في هذا الباب، أما بالنسبة للطبقة الشعبية فكانت هناك العمامة الملفوفة محل العمامة الألفي، ولم تكن هناك الجبة وانما كان هناك الحزام، والحُّمودي كما سيرد تفصيله فيما بعد.

ملابس العلماء

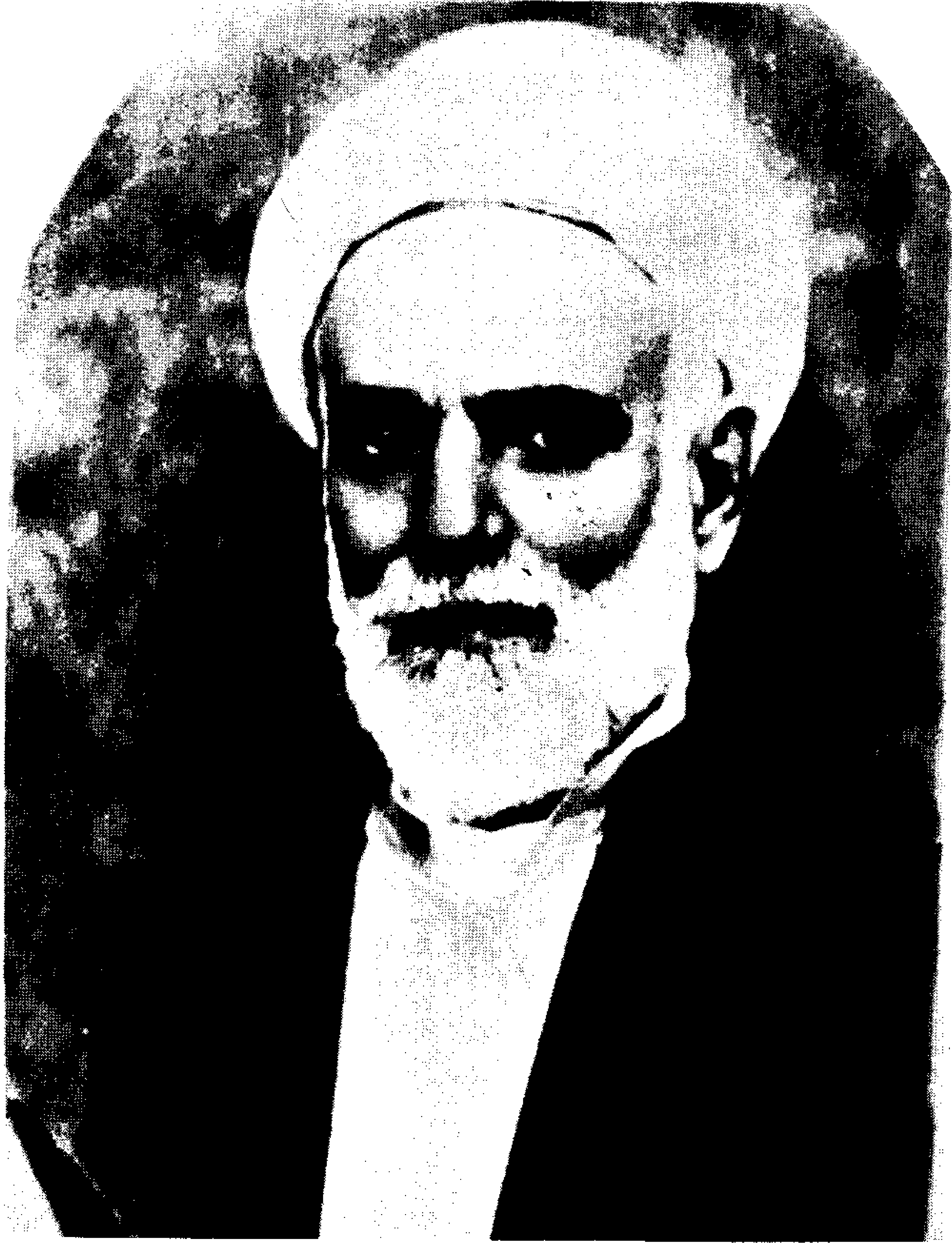
كان السادة العلماء يلبسون الثياب البيض من الكتان أو البفتة، وفوقها الشاية، وهي عبارة عن جبة مفتوحة، إلا أنها تربط بحزام رفيع لقفلها من الوسط، ثم الجبة من فوقها، أما الرأس فإن العمامة الحجازية الألفي هي التي تزينه، وتتميز ملابس السادة العلماء بأنها واسعة، وأن قماشها بسيط لا مغالاة فيه، وأن أكمامها واسعة كذلك، وأنها خالية من الزينة التي كانت تزين بها الملابس من أشغال الإبرة التي سيأتي وصفها فيما سنورده من وصف لملابس التجار والشبان، وفي الصيف يكون القماش المستعمل من البفتة أو من الكتان الأبيض، إذا كان الجو معتدلاً، أما في الشتاء فإن الجبة تكون من الصوف ومن ألوان هادئة، تليق بوقار العلم وأهله، وتتميز العمامة بلفتها الكبيرة والتي لا مغالاة في إتقانها، وربما استعمل العالم معها شالاً من الصوف يطوق به عنقه، ويسدله فوق كتفيه وخاصة في الشتاء، والثياب تزود دائماً بجيوب متوسطة الحجم في النصف الأدنى من الثوب، يضع فيها العالم منديله ومسبحته وكيس نقوده وبعض ما يحتاج إلى

حمله، وغالباً ما يكون للعالم تابع يحمل سجادته وكتبه وإلا حملها بنفسه، أما الملابس الداخلية فهي السروال الطويل والعراقية، والسروال هو عبارة عن بنطلون وسيع يشبه بنطلون البيجاما، الذي يستعمله الناس حالياً، إلا أنه واسع جداً، وله دكة تربط في الوسط، والعراقية، هي عبارة عن فانيلا، إلا أنها من قماش خفيف جداً — من الشاش — وهو غزل القطن الرفيع بحيث تشف عما تحتها، ولها أكمام نصفية وهي تستعمل في الصيف، وسُمِّيت عراقية لأنها تمتص العرق الذي يفرزه الجسم في الصيف.

ملابس التجار

أما ملابس التجار فتتكون في عمومها من نفس الأجزاء التي تتكون منها ملابس العلماء السابق وصفها، مع إضافة حزام يربط فوق الشاية، والاختلاف الوحيد هو في نوعية الأقمشة المستعملة، وما يزينها من تطريز، فبقدر ما يتحرى العلماء البساطة في ملابسهم، تكون ملابس التجار أكثر كلفة وأظهر أناقة، فالسروال الذي يكون قصيراً للعالم يكون سابغاً طويلاً لغيره من التجار والشبان، ويكون مزيناً بأشغال الإبرة، وذلك أن هذه السراويل وكذلك الثياب يتم تزيينها بأشغال الإبرة، وأشهرها اللف وهو عبارة عن أزهار متفتحة أو أشجار صغيرة يجري تزيين أرجل السراويل، وأكمام الثياب بها، وربما زينت بها حلوق الثياب كذلك، وهذه الأشغال تقوم بها سيدات الأسرة وبناتها، وهن يبدأن بها من شهر رجب على المناسج (واحدها منسج) وهو عبارة عن خشبتين يشد بينهما القماش المطلوب شغله، ويستعمل في هذه الأشغال خيوط الحرير الأبيض، وتتعلم الفتيات هذه الأشغال من صغرهن، كما سبق وصفه في باب الخياطة، أما إذا كان الرجل زاهداً في هذه المظاهر أو كبير السن، فإن النوع الذي يزين به ملابسه يسمى «قص ونسلة» وهو عبارة عن أشكال تشبه الشكل المعين، تحلى بها رجل السروال وأكمام والثوب، وكانت السراويل طويلة سابغة، فإذا مشى الرجل أو جلس ظهر عقب السروال وقد حلته هذه الأشغال اليدوية الجميلة، وكان لا يكتفي بالشغل في السروال والثوب وإنما يجري تحلية الدكة كذلك بشغل بسيط، ولو أنها مختفية تحت الثياب.

أما نوعية القماش، فإن ملابس التجار كما ذكرنا، تكون أكثر أناقة وأغلى نوعاً، ففي الصيف يستعمل الكتان الأبيض المنشى فيظهر لامعاً جميلاً، كما يستعمل أغلى أنواع الحرير وكان يسمى الرشوان، وهو من الحرير الخالص أو القرمسود، وهو قماش منسوج من الحرير



صورة للحاج عبد الله علي رضا قائمقام جدة

بأشكال جميلة جداً، من صناعة الشام وغالباً ما تكون الجبة من نفس النوع، أما الحزام فهو من الإبر يسم الخالص و يسمونه «بر يسمي» وهو كذلك من صناعة الشام وهو منسوج من الحر ير الأحمر تز ينه ورود مشغولة و يكون هذا الحزام رفيعاً للغاية و يسمى «حزام تجاري» و يوضع فوق الشابة تمييزاً له عن الحزام الشعبي، الذي سيأتي وصفه فيما بعد، أما العمامة فإنها تتميز بإحكام اللفة وإتقانها، فترى لفتها البيضاء ناصعة وملفوفة بإتقان شديد، وكثير من التجار يلفون عمائمهم بأنفسهم بعد أن يتمرنوا على هذا العمل كما تكون العذَبَةُ للعمامة صغيرة للغاية.

وفي الشتاء تكون الشاية والجبة من الصوف، وأغلى أنواعه كما ذكرنا هو الأنقوري، و يستعمل التجار غالباً الألوان الفاتحة المشرقة، كما يكون تفصيل الجبة والثوب أكثر دقة وإحكاماً، وأكمامها أقل سعة مما يلبسه السادة العلماء.

أما الحذاء فكان محلياً وكان صناعه محليين، وهم يصنعون هذه الأحذية من جلد مدبوغ ملمع، ثم يخيطونها بخيطان من الجلد الأبيض، بأشكال جميلة، وكان أحسن أنواع الأحذية يطلق عليه اسم «أبوخرز ين» أي أن الخياطة فيها مضاعفة عن الحذاء العادي، وكان الحذاء عبارة عن قطعة من الجلود المخيطة كما وصفنا بحجم القدم، مزودة بقائم من الجلد يكون محله بين إبهام الرجل وسبابته، وله حزام من الجلد يغطي منتصف القدم، و يرتبط هذا الحزام بسير من الجلد متصل بالقائم الذي بين الأصابع.

العمامة الألفي كانت علامة مميزة

ولعل مما يحسن ذكره في هذا المقام أن العمامة الحجازية «العمامة الألفي» والتي كانت اللباس السائد لدى التجار، والعلماء، وأوساط الناس، والشباب المتعلمين، كانت علامة مميزة في ذلك الوقت للبلاد «شعار» وكانت مرسومة على باب مكة، وهو باب كان مقاماً في منطقة باب مكة في مواجهة سوق البدو، وفي أعلاه لوحة كبيرة نقش عليها بعض الشعارات المميزة، وكانت العمامة الألفي من ضمن هذا الشعار، وقد أزيل هذا الباب مع الأبواب الأخرى، التي كانت تحيط بمدينة جدة مثل باب جديد، و باب شريف، و باب البنط، بعد إزالة السور الذي كانت هذه الأبواب منافذ له في مختلف جهات المدينة.

ملابس الشباب

أما ملابس الشباب المتعلمين من أبناء التجار، وأوساط الناس، فهي تتألف كذلك من الثوب والجبة والعمامة الألفي، ولكن الكوت يحل محل الشاية التي تميز ملابس العلماء والتجار.

ولا تختلف ملابس الشباب في شيء عن ملابس التجار، من جهة نوعية القماش، إلا بحسب ما يكون عليه هؤلاء الشبان من يسر الحال، فإن كانوا من أبناء التجار كانت ملابسهم من الحرير الغالي الثمن، وكانوا أسرع إلى استعمال الجديد من أنواع القماش، بينما يتريث

آباؤهم كثيراً في تغيير ما ألفوه، وإن كانوا من أوساط الناس لجأوا إلى الأقمشة المعتدلة الأثمان، تمشياً مع أحوالهم الاقتصادية وقدراتهم، ولكن ملابس العيد والاحتفالات الكبيرة تكون دائماً من أغلى الأنواع وأجودها، ولقد أدركت هذه الطبقة من الناس وهم يستعملون اللاس، وهو قماش حر يري خالص كان يرد من جاوا ثم أصبح يرد من أوروبا، وهو مشروك بالقطن، فكانوا يسمونه اللاس الصناعي حيث أفتى بعض العلماء بجواز لبسه، لأنه ليس من الحرير الخالص،



صورة تمثل ملابس الشبان في أوائل العهد السعودي و يلاحظ فيها إتقان لفة العمامة وهي للشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن فقي مع أحد الأصدقاء في مطلع شبابه

كما كان هناك قماش كثير اللمعان يشبه التفتاه، إلا أن خيوطه أكثر بروزاً و يسمى النزك، وكان كل بضعة أعوام يرد قماش جديد وخاصة في مواسم الأعياد ليحتل الصدارة في ملابس الشبان، والصغار، وكانت هذه الأقمشة تستعمل في الأكوات، والجبب، مثل النزك، أما اللاس فكان يستعمل حتى في الثياب، ثم جاء البوبلين وهو قماش قطني ناعم، فحل محل البفتة وخاصة في الثياب، والجبب، والأكوات، والكوت هو نفس الكوت المستعمل حالياً، وكان الناس يلجأون إلى الخياطين من بداية شهر رجب لخياطة الأكوات، والجبب، أما الثياب فكانت تخيط في البيوت بواسطة الأمهات والأخوات.

الشباب أول من ترك الجبة والعمامة :

وكان الشبان هم أول من أقدم على ترك الجبة والعمامة في الخمسينات، بعد أن تبين لهم أن لباسها غير عملي، بالنسبة لأعمارهم، وطبيعة أعمالهم، ولما تقيدهم به من وقار في حركاتهم، لايتفق مع طبائع الشباب الذي يميل إلى الانطلاق، فكان أن أقدم بعضهم على ترك الجبة والعمامة، مكتفياً بالشال والكوفية الحجاز ية مع الكوت

الكوفية الحجازية والشال :

أما الكوفية الحجاز ية أو الجاو ية، فهي من صنع محلي وهي لباس للرأس خفيف أبيض، وكان الخياطون المحليون يصنعونها و يبيعونها في الأسواق، وكانت تغسل و يدخل في مادة الغسيل مادة النشا، لتجعلها متماسكة لامعة، وكانوا يتفننون في وضعها على الرأس، وإمالتها على سبيل الأناقة، والغندرة، أما الشال فكان يوضع على الكتف، و يلف على الرأس في حالة حضور اجتماع، أو للوقاية من الشمس، وكانت «الشيلان» (مفردها شال) تتخذ من أنواع كثيرة، أهمها الأنواع التي ذكرناها، وهي البر يسمي «الابر يسم» وقد سبق وصفه «والسليمي» وهو من الحر ير الخالص ومكون من لونين فاتحين أقرب إلى البياض، وغامق أقرب إلى الحمرة الداكنة، و يكون نسج هذه الألوان في خطوط طولية، تنتهي بنهاية الشال، وكان استعمال هذه الأنواع الغالية مقصوراً على أبناء التجار الموسر ين، أما الشال العادي فكان من الغباني والبغدادي، وهما من صناعة حلب وأشهر من كان يصنع هذه الشيلان، تاجر هناك اسمه صائم

الدهر، والشال عبارة عن نسيج من الحرير المخلوط بالقطن، ومحلى كله بالزهور في لون ذهبي جميل، وهو كبير الحجم ويلف على الرأس كما تلف العمامة بتكويرة عدة مرات، تنتهي بعذبة متدلية في مؤخرة الرأس أو في جانب الكتف.

وكان بعض الخياطين والمطرزين يقومون بصناعة أنواع من الأقمشة الخفيفة بتطريزها وصنع الشيلان منها، وخاصة من قماش اللاس والبوبلين والنزك، ليكون من نفس قماش الثوب والكوت وذلك نظراً لغلاء الأنواع الحريرية كالبريسمي والسليمي اللذين سبق وصفهما.

البالطو:

وكان الناس يستعملون في الشتاء الملابس الصوفية، وأهمها الكوت المعروف والمستعمل حتى الآن، وكان إلى جانب الكوت «البالطو» وهو عبارة عن كوت طويل يصل إلى الركبة أو تحتها بقليل، وكثيراً ما يصنع هذا البالطو من الصوف، ويستغنى به عن الكوت لا كما هو حادث الآن في خارج البلاد من ارتداء البالطو. والذي يسمى بالانجليزية (Overcoat) أي ما فوق الكوت. فوق الكوت في الشتاء، وهذا البالطو لعله ورد إلى البلاد من الهند، فإن إخواننا الهنود يستعملونه حتى في الصيف، ويصنعونه من الأقمشة الخفيفة، وكان يطلق عليه اسم «دقلة» ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن الناس في الحجاز كانوا يتوجهون إلى الهند للعلاج، وللتجارة، وكذلك للعمل في البيوت العربية، أو تلقي العلم، كما ذكرنا ذلك في الحلقة الخاصة بالحاج محمد علي زينل رضا في حديثنا عن أعلام الحجاز، فكان العائدون من هناك يعودون بهذه الأزياء الهندية، وهي تتميز بالسروال الأشبه بالبنطلون الذي يستعمله أهل الحجاز، إلا أنه أقل سعة وأكثر إحكاماً، وبالثوب القصير إلى منتصف الساق، بينما يكون الثوب الحجازي سابغاً إلى القدم، وبهذه الدقلة «البالطو» وهي الكوت الطويل الذي وصفناه، وقد انتهى استعمال هذا البالطو في الوقت الحاضر فنادراً ما تراه العيون واكتفى الناس عنه بالعباءة.

الحذاء للشباب والتجار:

قلنا إن التجار والعلماء كانوا يستعملون الأحذية الجلدية المصنوعة محلياً، أما الشبان فقد أدركتهم وهم يستعملون الأحذية الأجنبية التي تستعمل حالياً وهي «الجزم» (واحدتها جزمة) وكانت ترد من الهند، وكان أحسن الأنواع منها ما كان لامع الجلد صقيلاً، وكان الإقبال على شراء هذه الأحذية يتم في شهر رمضان من كل عام، حيث تستعمل هذه الأحذية وهي جديدة في

أيام عيد الفطر المبارك، وفي خلال الأربعينات والخمسينات، كان بعض الصناع المهرة يصنعون الأحذية محلياً في المدينة المنورة، وكانت هذه الأحذية أغلى ثمناً، وأكثر جودة، من تلك التي ترد من الهند، وكان الناس يوصون عليها الزائرين للمدينة المنورة لإحضارها معهم، ولكنها على أي حال كانت صناعة فردية تعتمد على أفراد قليلين، ولكنها كانت جيدة للغاية، وبعد فترة أخذ التجار يعدلون عن استعمال الأحذية التي وصفناها آنفاً، ويستعملون الأحذية الأجنبية، والتي تغطي الأصابع والكعب، وتترك وجه القدم مكشوفاً لأنها كانت أسهل من الأحذية التي تغطي القدم كله، ويستعمل فيها الرباط، والتي يميل إليها الشبان أكثر من سواها. وكان إلى جانب الأحذية التي وصفناها والتي ترد من الهند شباشب هندية، اسمها التليك الهندي، بفتح التاء وتشديد اللام، وكسرها، وسكون الكاف، وهو نوع من الشباشب المعروفة، إلا أنها كانت كذلك من جلد أسود لامع، وكان الحذاء نفسه أكثر جودة، وكان الناس يستخفون استعمالها في خروجهم بالليل، كما كان الصبية، وتلاميذ المدارس، يكثرون من استعمالها، لأنها أقل كلفة وأسهل استعمالاً، وقد انتهت هذه التلاليك الهندية أو توقف استيرادها فلم أعد أراها منذ سنين.

الملابس الشعبية

ونقصد بها الملابس التي يرتديها عامة الشعب من غير المتعلمين من أرباب المهن، كالعمال والسوقة والفعلة، وما إليهم من سواد الناس، فهؤلاء يلبسون بصورة عامة ثياباً واسعة، قصيرة تستر الركبة، ولا تصل إلى منتصف الساق ويتحزمون بحزام عريض جداً من شال أحمر رخيص الثمن، ويعتبرون أن هذا الحزام «الحاروي» نسبة إلى الحارة يميزهم عن أولاد «الخرقة» وأولاد الخرقة وصف يصف به هؤلاء الحارويون الشبان المتعلمين، ومن إليهم ممن يتخذون سمتاً مهذباً في لباسهم، ولعلها إشارة إلى أن هذه الملابس التي يصفونها بالخرقة تميزهم عن سواهم، وتحت هذا الثوب سروال قصير إلى ما فوق الركبة، ولكنه واسع وليس مثل السراويل القصيرة التي يرتديها الناس في هذه الأيام، أما الرأس فله كوفية جاوية، ولكنها تتميز بقصرها فلا تستر إلا وسط الرأس، ثم تبقى مرفوعة إلى أعلى، وغير معتنى بكيها، بينما تكون الكوفية التي يستعملها المتعلمون تستر الرأس كله ومعتنى بكيها مع وضع النشا فيها فتظهر بيضاء جميلة لامعة، وبعد ذلك يأتي الشال ليكون عمامة على الرأس أو ليسدل على الكتف، وهذا الشال غالباً ما يكون من قماش



صورة تمثل اثنين من أبناء الأشراف بالجبة والعمامة

متين كذلك، وهو يعتمد على حالة الناس المالية، فإن كانوا من رقيقي الحال، كان من قماش قطني أحمر اللون، رخيص الثمن، وإن كان من الميسور ين، كان من الغباني، التي سبق وصفها ولكننا الآن إنما نتحدث عن سواد الناس من الفعلة والسوقة، أما الثوب فهو من الدوت، ولكنهم كانوا يصبغونه بلون أخضر غامق، وكانت في البلاد مصابغ تؤدي هذه المهام، وكثيراً ما تمر بهذه المصابغ فترى هذه الثياب وقد نشرت على الحبال بعد إتمام صبغها، ولعلهم كانوا يلجأون إلى هذا الصباغ ليتحمل الثوب ما يتعرض له لابسه من أوشاب مهنته، لأن هذه الطبقة من الناس كانت تباشر الأعمال المهنية، كالبناء، أو الجزارة، أو الفرانة، أو أعمال البحر، أو حمالة البضائع، وما إليها، ولم يكن بوسعهم أن يغسلوا ثيابهم في كل يوم، وانما كان المتوسط أن يبقوا بالثوب بضعة أيام، فإذا كان يوم الجمعة وهو يوم العطلة، استبدلوا الثوب القديم بثوب آخر نظيف، ليتم تغييره بعد أسبوع، هذا بالنسبة لسواد الناس من السوقة والفعلة.

زعماء الحارة :

أما زعماء هذه الفئات ومشايخهم الموسرون، وأبناء هؤلاء المشايخ الذين نالوا حظاً من العلم، فتعلموا القراءة والكتابة، ولكنهم آثروا القيام بأعمال إدار ية، تتعلق بهذه الطبقة من الناس إذا صح هذا التعبير، فإن هؤلاء يجمعون في ملابسهم بين أز ياء الحارة في عمومها، ولكنهم يدخلون عليها تهذيباً عظيماً، وكثيراً ما يكون هؤلاء الرجال أذكياء، ولهم صلات بالطبقات العليا من المجتمع حيث يجدون ترحيباً ومودة. وملابس هذه الطبقة تتألف من الثوب إلا أنه كثيراً ما يكون من قماش أبيض نظيف، وهو ليس طو يلاً سابغاً إلى الكعبين، ولكنه ليس قصيراً إلى ما فوق الركبة، فهو ما بين بين، والحزام غالباً ما يكون من الصوف أو الغباني، وهو عر يض ولكنه ليس عر يضاً إلى الحد الذي يصل إليه حزام السوقة، وليس رفيعاً إلى الحد الذي يصل إليه حزام التجار، فهو وسط بين الحزامين، وتأتي فوق الحزام صدير ية من القماش الجيد، تخيط محلياً، وتزرر بالأزار ير الصدفية، والسروال قصير، ولكنه من القماش الأبيض النظيف، أما العمامة فهي كبيرة مكورة، ولكنها دائماً من الغباني الذي سبق وصفه، أو من الصوف الجيد في الشتاء، و يأتي بعد ذلك المصنف أو الحمودي، وهو عبارة عن شال كبير جداً، يتلفع به لابسه وخاصة في الشتاء، فيغطي أحد الكتفين ثم ينسدل على الظهر أو الصدر، وإذا كانت هناك مناسبات هامة



صورة للشريف أمير مكة ...

فإن هؤلاء يرتدون العباءة العربية عوضاً عن المصنف، وغالباً ما يحمل هؤلاء في أيديهم عصاً غليظة أو متوسطة، فهي من العلامات المميزة لهم، كما أن الساعة «الراسكوف» وهي من أوائل الساعات السويسرية التي وصلت إلى البلاد، تكون مربوطة بشريط أسود في عروة الثوب لتوضع في أحد أكمام الصديري، أو لتدس في وسط الحزام، مع كيس النقود الذي يوضع في الحزام دائماً.

أما الأحذية فهي من الأحذية الجلدية المحلية «أبوخرز ين» التي سبق وصفها بينما أن أغلب السوقة كانوا حفاة في ذلك الزمان، وهؤلاء الزعماء كما ذكرنا، كانوا شخصيات تتميز بالذكاء والظرف، وقد صقلتهم التجارب، ولهم نفوذ قوي على أبناء طبقتهم، كما كان لهم أصدقاء كثيرون من الطبقات العليا من الحكام والعلماء والتجار.

ملابس النوم :

أما ملابس النوم بالنسبة للرجال فكانت هي الثوب في الشتاء وتحته السروال، وكان البعض يستعملون الفوطة بدلاً من السروال، وهي إزار ورد إلى البلاد من جاوا والهند، و يظهر به الحجاج الجاو يون والهنود كلباس عادي في الشوارع، وأصبح الناس يستعملونه في الحجاز و يعتبرونه أكثر راحة في النوم لأنه يكسب الجسم حر ية أكثر.

العراقية بدل الفانيلة :

وكانت العراقية تستعمل قبل الفانيلة، والعراقية هي عبارة عن قميص مفتوح الصدر وله بعض الأزار ير، وتصل أكمامه إلى ما فوق الكوع، وهو عادة من القماش الشاش الخفيف، ولعل تسميته بالعراقية تعبير عن امتصاصه للعرق حيث يكون ملاصقاً للجسم.

العباءة والعقال القصب :

كانت العباءة والعقال القصب مستعملة في الأر بعينات، ولكن بشكل جزئي، وربما لبسها بعض الناس في الأعياد وكان الأشراف و بعض البدو يتميزون بها، وكانت صناعة العقال القصب في مكة والمدينة المنورة معروفة، ولها صناع معروفون، و بعض الناس كان يضع العقال



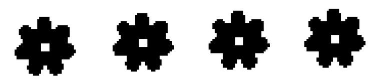
صورة تمثل الملابس البدوية للرجال

القصب على رأسه مع الجبة بدلاً من العمامة، ولكن ارتداء العقال والعباءة على أي حال كان محدوداً، ولم يكن شائع الاستعمال كالعمامة الألفي والجبة اللتين كانتا لباس الكثرة الكاثرة من الناس.

ملابس البادية

إكمالاً للحديث عن الملابس، نذكر شيئاً عن ملابس البادية، وهي تمثل فئة كبيرة من سكان البلاد، وكان أهم ما يميز البدوي هو ثوبه الطويل الأكمام، فلقد كان كمّ الثوب واسعاً ومفتوحاً من أحد طرفيه، بينما يتدلى له طرف طويل بشكل مثلث تقريباً من الطرف الآخر، والثوب واسع وقصير، ربما إلى ما فوق الركبة، وهو من قماش من الدوت الأبيض، أو مصبوغ بالحمرة، و يتحزم البدوي بحزام من الجلد رفيع، وإذا كان ممن يحملون السلاح كان هذا الحزام أعرض، و به عيون يوضع فيها الرصاص اللازم لسلاحه، وللبدوي كيس من الجلد أشبه بالجراب الصغير، يضع فيه نقوده وإن كان ممن يستعملون الغليون وضع فيه التنباك الذي كانوا يسمونه الدخان الأخضر، الذي يحشو به غليونه، أما حذاء البدوي فهو من الجلد الخفيف البسيط الصنعة، وله شريط رفيع يلف وسط القدم، وشريط آخر بين إصبعي الرجل وهذا الحذاء لم يكن فيه كبير عناء وأغلب البدو كانوا حفاة وأقدامهم قاسية الملمس من المشي في الصحراء.

أما غطاء الرأس فهو شال من الدوت أو الحمودي، وهو قماش قطني أحمر اللون يشبه الشماخ الحالي، وكان بعضه داكن اللون، والبعض ذا لون أحمر، كالشماخ الحالي ولكنه من قماش غليظ رخيص.



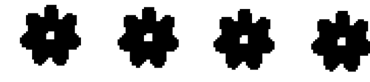
العباءة البيدي:

وفي الشتاء يستعمل البدوي العباءة البيدي، وهي عباءة قصيرة غليظة من صوف الجمل، وهي لحاف البدوي في الشتاء وخاصة في الصحراء، أما العباءة العادية إذا ارتداها فهي كذلك من صوف أسود أو أحمر داكن الحمرة، ولكنها من صناعة رخيصة جداً وغالباً ما تكون محلاة بالحرير في فتحة العنق، بدلاً من القصب الذي تحلى به العباءات المعتادة كما هو معروف.

ملابس النساء

لقد تحدثنا عن ملابس النساء في الفصل الخاص، بالأعراس، وكان هذا الحديث متصلاً بملابس النساء في الأعراس وإكمالاً للحديث عن الملابس نتحدث هنا عن ملابس النساء العادية بصورة عامة.

تتألف الملابس النسائية من السروال والصديرية ثم الكرتة «الفستان» والمحرمة والمدورة للرأس، وسنتحدث عن كل جزء من هذه الملابس لتكون لدى القارىء فكرة عنها.



السروال:

السروال هو عبارة عن بنطلون يغطي النصف الأدنى من الجسم من الوسط إلى القدمين، وهو بشكل بنطلون البيجاما المعروف حالياً، وله دكة تربطه في الوسط، والسروال للنساء دائماً يكون من قماش قطني أرضه بيضاء، وفيه خطوط ملونة غالباً ما تكون سوداء أو داكنة، ويسمى هذا القماش «باب عالي» وهو من وارد الشام، وأحسن أنواع الأقمشة التي تستعمل لسراويل النساء كان الحلبي، وهو قماش حريري ذهبي اللون من صناعة الشام، مخطط بنفس الأسلوب الذي وصفناه، وكان هناك المصري وهو قماش حريري كذلك مخطط بألوان زاهية، وهو شبيه بما يستعمل في القفاطين المصرية حالياً، وكانت هذه السراويل الحريرية تستعمل في الزيارات والحفلات وما إليها. أما الدكة أو التكة، فقد سبق وصفها بالنسبة لسراويل الرجال، وهي لا تختلف عنها في شيء قطعة من نسيج أبيض رفيع يسمونه «شاش» وقد حليت أطرافها بأشغال الإبرة، وكل ما يميزها عن دكة الرجال أن الشغل فيها أكثر بروزاً، وربما حليت هذه الأشغال بألوان زاهية تمييزاً لها عن دكة الرجال.

الصديرية :

أما الصديرية فهي ما يستعمل للجزء الأعلى من الجسم، ولها أكمام نصفية، وهي غالباً من قماش خفيف، يشف عمّا تحته، وكانوا يسمونه «الدُّوَرِيّة» وهو كذلك قماش من نسيج القطن الرفيع، إلا أنه محلى بأشغال الإبرة المنسوجة على القماش من المصنع، والصديرية مفتوحة من مقدمتها تماماً ولكنها تزرر بأزارير ذهبية تستعمل فيها أنصاف الدنانير، أو الدنانير الكاملة، وتصاغ محلياً، وذلك بوضع الدنانير في إطار من الذهب، وإلصاقه بقاعدة ذهبية كذلك، ثم تجمع هذه الأزارير الذهبية التي تبلغ سبعة أزارير في سلسلة ذهبية، لقفل الصديرية من العنق إلى ما تحت الصدر.

وكان النساء وخاصة الفتيات في البيوت يكتفين بلبس السروال والصديرية، لأنه لم يكن هناك ما يدعوهن إلى لبس الفستان، حيث كن لا يقابلن سوى النساء، أو المحارم من الرجال، أو الصبية الصغار.

الكرتة :

أما الكرتة فهي ثوب سابغ يغطي الجسم كله، من العنق إلى القدمين، وله أكمام سابغة تغطي اليدين إلى الكفين، وهو عبارة عن الفستان الذي يستعمله النساء وقماشه يختلف باختلاف أسنان النساء، فالكبيرات في السن يستعملن الأقمشة الفاتحة اللون، من البوال أو الدورية التي وصفناها فيما سبق، وذلك بعد غسلها وكيّها، وإضافة كمية من النشاء ليبدو الفستان لامعاً صقيلاً، وتستعمل هذه الأنواع خاصة في أيام الصيف، أما في الشتاء فهناك الأقمشة المتينة مثل البوبلين والشيت. والشيت هو عبارة عن قماش قطني مطبع بالأشجار الكثيرة من أصل الصناعة، وكان هناك كذلك القرمسود وهو قماش حريري خالص يشبه التفتاه المعروفة حالياً.

هذا بالنسبة للسيدات الكبيرات والمتوسطات في السن، أما الفتيات فكن يلبسن الأقمشة الزاهية الحريرية، وخاصة حين خروجهن للزيارات، وكانت هذه الأقمشة ترد غالباً من الهند ولعل بعضها أوروبي، يعاد تصديره من الهند إلى الحجاز.

كما كانت الفساتين بالنسبة للفتيات والسيدات ينثر عليها الترتر، وتشتغل أطرافها بأشغال الكنتيل الذهبية، التي سبق وصفها في ملابس الأعراس بتفصيل واف، والكرتة وهو اسم هندي فيما أقدر للفستان المقفول الصدر، وتفتح وتغلق من الظهر بواسطة «الطقطق» فإذا نظرت إلى الفستان رأيته مقفولاً تماماً، ولكن هذا الطقطق الذي يوضع في فتحة الظهر هو الذي يؤدي مهمة فتحه وإغلاقه.

المحرمة:

المحرمة هي ما يوضع للمرأة على الرأس، وهي خاصة بستر الشعر، والمحرمة عبارة عن قماش من نسيج خفيف من القطن، وقد شغلت أطرافها بشغل الإبرة، كما سبق وصفه من قبل وتوضع على الرأس، بحيث يغطى معظم الشعر و يترك الشعر واضحاً فوق الجبين، ثم تلم خصلتا الشعر في هذه المحرمة وتلف بها المحرمة فتتدلى الخصلتان تحت الأذنين، وقد جمعتها المحرمة فلا يظهر من الشعر إلا أطراف الخصلتين. وبهذه المناسبة فإن النساء كن يعنين كثيراً بتربية شعورهن، ومعالجتها بزيت الزيتون، ومشطها فكانت شعوراً سوداء طويلة جميلة، ولم يكن قص الشعر مقبولاً بل كان يعتبر جريمة لا يفكر فيها إنسان عاقل.

وفي أيام الأعراس والحفلات تستعمل المحارم المشغولة بالكنتيل الذهبي، بدلاً من المحارم المشغولة بالحرير، أو القطن، فإذا وضعت المحرمة رأيت خصلتي الشعر وقد لفتها المحرمة المشغولة بالكنتيل الذهبي الجميل.

المدوّرة:

هي الغطاء الذي يوضع فوق المحرمة والذي يستر الرأس ككل، وكانت أغلى أنواعها من اليشمك، وهو نسيج قطني رفيع شفاف، وكانوا يشترون هذا القماش و يزينونه بأشغال الإبرة كذلك، ثم تلف المدورة على الرأس بحيث تغطي الرأس والأذنين ثم تنسدل على الظهر و يبقى بعد ذلك الجبين يزينه الشعر المفروق من النصف، والمداور «جمع مدورة» العادية ترد كذلك من

قماش خفيف، وقد زينت أطرافه بورود مطبوعة من أصل الصناعة، وهذه تستعمل كالشال للرجال ويستعملها النساء في الشتاء في البيوت، وتلف بنفس الطريقة التي وصفناها آنفاً.

الأوية :

ولا يكمل الحديث عن المدورة إلا بالأوية، وهي عبارة عن ورود مشغولة من الحرير شغلاً دقيقاً، تباع بالهندازة، والهندازة كانت المقياس المستعمل لذرع الأقمشة، ومقدارها تسعون سنتيمتراً، أي أقل من المتر بعشرة سنتمترات، وتخاط خياطة دقيقة على طرف المدورة فتبدو مزينة أطرافها بهذه الورود الجميلة التي تصنع أساساً في الهند، وتباع جاهزة لدى بعض التجار المتخصصين.

التللي :

ولإكمال الحديث عن الملابس النسائية، لابد من الحديث عن التللي (بفتح التاء وكسر اللام وتشديدها) وهو عبارة عن خيوط من القصب أو على الأصح من أسلاك القصب الذهبية الرفيعة، أو الفضية الملونة بالذهب، وهذه كانت تشترى كذلك من التجار الهنود، لتشغل بها المحارم وصدور الفساتين «الكرت وأكمامها» وأطرافها كذلك، وربما زينت بها المناديل التي كانت متممة للملابس، والتي كان يعنى بتزيينها بأشغال اليد إما من الحرير أو الكنتيل أو التللي.

الملاية والبرقع :

إذا أرادت المرأة الخروج من الدار، لزيارة أهلها أو معارفها، ولبست أحسن زينتها لابد أن ترتدي فوق ذلك اللباس الذي يستر جسمها كله، فالعصر كان عصر حجاب متشدد، وقد أدركت حجاب المرأة في الأربعينات، وهو يتألف من الملاية والبرقع ثم تطور إلى الملاية التركي ثم إلى العباءة الحالية ولنبدأ بالملاية والبرقع.



الزبون

الملاية هي عبارة عن قطعة كبيرة من القماش الأسود، مخططة أطرافها باللون الأبيض، وهي منسوجة من حرير متين من القطن والحرير فيما أقدر، تستر بها المرأة جسمها كله، فلا يظهر منها إلا الوجه الذي يوضع عليه البرقع، وتستر الملاية حتى اليدين بحيث تبقيان داخل الملاية، وكان أحسن أنواع الملايات «الملاية الجاوي» ولعلها كانت تستورد من جاوا في ذلك الزمان، وتلف الملاية حول الرأس ثم يأتي البرقع، وهو عبارة عن قماش أبيض متين يغسل، وتوضع فيه مادة النشا ثم يكوى كيًّا جيداً، بحيث يبدو لامعاً صقيلاً، والبرقع غالباً يكون من القطن بعدة طبقات أو من الكتان، وإذا وضعت المرأة البرقع على وجهها لا يبدو منها إلا العينان، بحيث تترك فتحة في البرقع من الأعلى، وتقسم هذه الفتحة إلى قسمين بقطعة رفيعة من قماش البرقع نفسه، فإذا سارت المرأة استطاعت أن ترى طريقها، والبرقع طويل يغطي الجبين إلى الصدر، وتأتي الملاءة فتلف المرأة كلها.

البابوج والخف للقدمين :

أما القدمان، فإن المرأة تلبس لهما خفًّا أصفر اللون، بحيث يستر القدمين إلى ما فوق الكعبين، وهذا الخف يشبه ما يلبسه عرب شمال إفريقيا، من هذه الأخفاف وتحته البابوج وهو الحذاء الذي يلامس الأرض، وهو شبيه بالشبشب، ولكنه من لون ونوعية جلد الخف، وكان البعض يتغالى في تزيين الأخفاف بالقصب، وقطع الزجاج فيبدو في شكل جميل أخاذ. فإذا أخذت المرأة طريقها وهي متلفعة بهذه الملاءة والبرقع لم يستطع أي إنسان تمييز حجمها، أو رؤية أي جزء من جسمها باستثناء العينين، وربما أصابع اليد إذا ما أمسكت بالملاية تضمها على نفسها بين حين وآخر، وأستطيع أن أقول إن الآداب السائدة في المجتمع كانت غض البصر، والغيرة على الأعراض، وكان كل رجل يعتبر نفسه مسؤولاً لا عن نسائه فقط، وإنما عن نساء البلدة كلها، ونساء الجيران، بصورة أخص، ولو تجرأ سفيه أو فاجر، بالإشارة لا بالعبارة إلى أي امرأة بسوء، فإنه سيجد من الجزاء العاجل ما يتمنى أن تنشق به الأرض ليختفي عن أعين الناس، إن لم يصبه من الأذى في وجهه وجسمه ما يحتاج معه إلى الاستشفاء ممّا أصابه.

وهكذا فإن الغيرة على العرض والانتصار للأخلاق كانت تسود المجتمع، بحيث تشعر وكأن البلاد كلها أسرة واحدة، ولا يشذ عن ذلك إلا السفهاء من الناس وهم قلة، لا يخلو منهم مجتمع، وهم معروفون لا تفتح لهم بيوت الناس ولا نفوسهم.

الملاية التركي:

في الخمسينات، انتهى عهد الملاية والبرقع، وحلت محلها الملاية التركي، وأستطيع أن أقول: إن الملاية التركي كانت أكثر ستراً من الملاية والبرقع، ذلك أنه إذا كان البرقع يسمح للعينين بالظهور، فإن الملاية التركي لم تكن تسمح لا للعينين ولا لليدين بالبروز، والملاية التركي، وفي ظني أنها وردت إلى البلاد من سورية وليس من تركيا، لأن عهد الأتراك قد انتهى في عام ١٣٣٤ هجرية، عبارة عن قطعتين من القماش الأسود الحريري، المتين، القطعة الأولى: تلف مثل الأزار على النصف الأدنى من الجسم، من الوسط، وحتى القدمين، والقطعة الثانية: توضع فوق الرأس وتضم اليدين، ثم تنسدل لتغطي النصف الأول من الجسم، بحيث تنسدل أطرافها على النصف الثاني من الجسم، أو تختفي تحت الإزار الذي يغطي الجزء الأدنى من الجسم، وتجيء البيشة وهي غطاء الوجه لتوضع فوق الجبين، فتستر الوجه كله بما فيه العينان، وكانوا يتخذون هذا الغطاء للوجه الذي يسمونه «البيشة» من قماش حريري أسود خفيف، يسمح للمرأة بأن ترى طريقها، ولكنه لا يشف عمّا وراءه، فلا يستطيع أي إنسان تمييز وجه المرأة، وكان البعض يتشدد فيكون هذا الغطاء للوجه من طبقتين، إمعاناً في الحجاب والستر.

الحذاء يحل محل الخف:

وتطور آخر حل محل الخف للقدمين، فأصبح الحذاء والشراب يستعمل للساقين والقدمين، وكانت الشراريب —الجوارب— متينة طويلة، وليست شفافة، كما هي الآن، كما كانت الأحذية سوداء لماعة، تزينها أشرطة من القماش الحريري الأسود في مقدمتها.

زيارات النساء تتم نهاراً:

وكان خروج النساء من بيوتهن وعودتهن إليها يتم خلال النهار، فإن كانت المرأة تريد قضاء اليوم في بيت أهلها، أو في حفلة مدعوة إليها، خرجت قبل الظهر وعادت إلى بيتها قبل الغروب، وإن كانت زيارة خفيفة كان الخروج بعد العصر مباشرة، والعودة قبل الغروب، وإذا حدث ما يوجب تأخر النساء في الزيارة إلى ما بعد الغروب فإنهن لا يعدن وحدهن، وإنما يذهب من يصاحبهن من الرجال أو الفتيان الذين يحملون معهم الفوانيس لإضاءة الطريق، ولكن هذا لم يكن ليحدث إلا في النادر والهام من الأمور.

الحلي والمصوغات

كانت الحلي والمصوغات تعتمد بصورة عامة على الذهب، لحلي النساء بصورة أساسية، وعلى الفضة، للرجال بصورة عامة، وإن كانت هناك بعض الاختلافات بسبب بعض الظروف الفردية وسنبدأ الحديث بوصف حلي المرأة ومصوغاتها.

البناجر والأسورة الذهبية :

كانت البناجر والأسورة الذهبية هي الزينة الشائعة التي تتحلى بها المرأة في معصميها، وكانت صناعة محلية خالصة يقوم بها صاغة وطنيون في كل من مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة، والبَنْجَرَة «جمع بناجر» هي عبارة عن حلية مستديرة من الذهب، رفيعة الحجم وشكلها اسطواني، ولا فتحة لها، وإنما تدخل بجمع أصابع اليد والكف، ثم تدفع لتستقر في المعصم، ولا تكتفي المرأة بواحدة منها وإنما تكون هناك عدة بناجر في المعصم الواحد، وبعض النساء يزين كلا المعصمين بعدد من هذه البناجر، التي تصل إلى أربع أو خمس في كل معصم، أما السوار فهو كذلك من الذهب الخالص وهو أكبر حجماً من البنجرة السابق وصفها، وهو يتألف من قطعتين مستطيلتين من الذهب جرى لفّهما على بعضهما البعض، ولهما فتحة من الطرفين ليتم إدخالها في المعصم بفتح طرفي السوار ثم إعادتها إلى ما كانا عليه، بعد أن يستقر السوار في المعصم، وكان السوار كذلك صناعة محلية يقوم عليها الصاغة الوطنيون وهو غالباً من الذهب عيار٢١ وهو أحسن أنواع الذهب أو من عيار١٨، أما الذهب عيار١٤ فلم يكن محبوباً وكانوا يسمونه «ذهب سواسة» ولعلهم يقصدون أنه صناعة سويسية نسبة إلى مدينة السويس التي هي الساحل المصري المقابل لمدينة جدة على البحر الأحمر، أو سويسري، وإن كنت أستبعد هذه الصفة الأخيرة لانقطاع الصلات بين الحجاز وأوروبا في ذلك العهد.

وقد حدث تطور سواء في البناجر أو الأسورة الذهبية، بعد أن عرف الناس السفر إلى مصر وزيارتها للعلاج والاستشفاء، أو لغير ذلك من الأغراض، فوردت البناجر والأسورة من مصر، وهي تختلف عن مثيلاتها التي تصنع محليًّا، أما البناجر فهي نفس الشكل، ولكنها أحدث صياغة، وأجمل منظراً، بما أضفي على صياغتها من دقة، وما أكسبتها الصناعة من لمعان، وهي



صورة للبدوية والعنز

على أي حال تتخذ مظهراً مختلفاً عمّا تعوده الناس «ولكل جديد لذة» كما يقول المثل، فصار الإقبال عليها أكثر، أما الأسورة فالاختلاف فيها أكثر وأبين.

الأسورة الثعبان :

فقد كان السوار الذي يصنع في مصر يصاغ على شكل ثعبان، وتطعّم العينان بفصّين صغيرين من الألماس، أو الياقوت، و يكون أحد طرفي السوار على شكل رأس الثعبان، والطرف الآخر على شكل الذيل، وبهذا كان التجديد له مظهر واضح مختلف الصورة، تماماً عن السوار المحلي، وكانت الأسورة الثعبان في وقت من الأوقات شائعة في كل بيت وتهدى لكل عروس.

الخلخال :

وكما كانت تزين المرأة يديها بالأسورة والبناجر، فإنها كانت تزين قدميها بالخلخال، والخلخال هو عبارة عن حلية تستقر فوق القدم، وهو من الفضة، أو من الذهب، وكان يصنع محليًّا كذلك، وهو ثقيل الوزن وربما ألحقت به بعض القطع الصغيرة من نفس المعدن، لتحدث صوتاً يشبه الشنشنة حينما تسير المرأة، وإذا كان من الفضة فربما طلي بالذهب، وقد كان الخلخال الفضي مما تتزين به المرأة عادة في بيتها، وخاصة الفتيات، أما الخلخال الذهبي فهو مما يلبس للعروس قبل ليلة العرس، وقد أتينا على وصف ذلك في باب الأعراس.

الحلق للأذنين :

والحلق كان، كما لا يزال، هو زينة الأذنين، وكان هناك أشكال كثيرة لهذه الحلقان «جمع حلق» أشهرها التلال، بضم التاء وتشديدها وفتح التاء وتشديدها كذلك، وهوعبارة عن حلقة كبيرة من الذهب مستديرة الشكل، تشبه الهلال في استدارتها، وقد تطور هذا الحلق فيما بعد فأصبح مستطيلاً، وله حليات صغيرة متدلية في نهايته، وهذا هو الحلق الذي كان يرد من مصر، أو التقليد المحلي للحلق المصنوع في مصر، وهو من الذهب الخالص، وقد أدخلت عليه فيما بعد فصوص صغيرة من الياقوت أو الألماس، ولكن الذهب بصورة عامة هو الأساس الذي تتكون منه صناعة الحلي في ذلك الزمان.



صورة للمصوغات الذهبية بين البائع والمشتري

الرشرش للصدر :

أما الصدر فكان يحلى بما يسمونه الرشرش ، وهو عبارة عن طوق كبير من الذهب ، تتدلى منه حليات كثيرة و يدار حول العنق بسلسلة ذهبية كذلك ، وهو صناعة محلية .

الطوق للعنق :

أما أغلى ما تتزين به المرأة فهو الطوق الألماس ، وقد تحدثنا عنه في باب الأعراس وهو عبارة عن قلادة للعنق من الذهب عيار١٤ محلاة بفصوص كثيرة من الألماس الفلمنك «الألماس الأصفر» وكان يرد من مصر، ويباع لدى الصاغة بواسطة الدلالين، وكان أحسن ما يقدم للعروس في التصبيحة هو هذا الطوق، وكان المفضل هو الكبير الحجم، الكثير الفصوص، وكان الثمن المتوسط لهذا النوع يصل إلى عشرين جنيهاً ذهبياً، أو أكثر، وكانت التصبيحة تلبس للعروس حينما يكشف عن وجهها لأول مرة، ويراها العريس ولم تكن هناك الشبكة المعروفة حاليًّا لأن العريس لم يكن يرى عروسه إلا ليلة الزواج، وقد فصلنا الحديث عن هذا الموضوع في باب الأعراس.

الإبرة الرعاشة :

ومن المصوغات التي كانت مشهورة في ذلك العهد الإبرة الرعاشة، وهي عبارة عن قطعة من الذهب على شكل وردة كبيرة محلاة بفصوص من الماس الفلمنك السابق وصفه، ومركب في وسطها سوستة بحيث يبدو صدر الإبرة متحركاً وكأنه يرتعش، وهذه الإبرة تشبك في الصدر، وكلما كانت الإبرة أكبر حجماً، وأكثر ماساً، كانت أغلى ثمناً، وكانت الرغبة فيها والإقبال على شرائها أكثر.

الخواتم للأصابع :

كانت الخواتم تزين أصابع المرأة، وخاصة البنصر، وكان أهم الخواتم في الأربعينات خاتماً ذهبياً على شكل ثعبان، له رأس الثعبان وذيله، وهو مصوغ بشكل ملفوف ثلاث لفات، وتظهر الصياغة فم الثعبان مفتوحاً وأسنانه ظاهرة، وفي محل العين يوضع فص من الياقوت، أو فص

أزرق، وهو كذلك صناعة مصرية، وقد تطور هذا الخاتم فيا بعد، فأصبح خاتماً ذهبيًّا، يزين وجهه فص كبير من الماس، وحوله فصوص صغيرة منه، وهذا كان في الخمسينات وأوائل الستينات بعد أن عرف الناس طريق السفر إلى الخارج، واستيراد الجوهرات إلى البلاد.

المضاليون :

وهناك أنواع من الحلي الخفيفة، إذا صح هذا التعبير، كان أهمها ما يسمونه المضاليين، ولعله تحريف للميدالية المعروفة حاليًّا، وهو عبارة عن حلية صغيرة من الذهب مزينة ببعض الفصوص الصغيرة من الياقوت، أو الألماس، أو بهما معاً، وهي كذلك تعلق في العنق بسلسلة رفيعة من الذهب، تشبك خلف العنق

اللؤلؤ :

إلى جانب المصوغات التي ذكرناها، هناك عقود اللآلىء التي ترد من الهند والبحرين، وكان العقد الواحد يتألف من أربعة أو خمسة حبال من اللؤلؤ الصغير الحجم، ثم يربط حول العنق، وكلما كان اللؤلؤ أكبر حجماً وأصفى لوناً كان أغلى ثمناً، ولم يكن اللؤلؤ الصناعي قد ظهر في ذلك الوقت، فكان اللؤلؤ المتداول بين الناس هو اللؤلؤ الأصيل الذي يستخرج من البحر في الخليج، وقد تطورت اللآلىء فعرف الناس حبال اللؤلؤ التي ترد في حبات كبيرة متجانسة، والتي تشبه المسبحة في طولها، ويزين بها الصدر كما عرف الناس الأقراط من اللؤلؤ، والأسورة منه وهي عبارة عن ثلاثة أو أربعة حبال من اللؤلؤ، تزينها في الوسط حليات من الذهب مزينة بالألماس والياقوت، كما عرف الناس بعد ذلك الخواتم من اللؤلؤ، وهي عبارة عن لؤلؤة كبيرة يزين بها الخاتم الذهبي، فإذا اكتمل للمرأة الخاتم والحلق والأسورة والعقد، كان لها طقم كامل من اللؤلؤ، وهو أغلى ثمناً من الماس في ذلك الزمان.

اللبـــة :

وهناك أخيراً اللبة، بتشديد اللام والباء وفتحها، وهي عبارة عن عقود من اللؤلؤ كبيرة تفصل بينها خرزات كبيرة من الضفار أو قطع كبيرة مستديرة من الذهب، وهذه اللبة، كبيرة الحجم بحيث تملأ الصدر بعد إحاطتها بالعنق، وهذه اللبة لا تستعمل إلا في الأعراس، وغالباً ما تستأجر من المقينات اللائي سبق وصفهن في باب الأعراس.

الحلي للرجال

(خاتم الياقوت) الخاتم المخاوي :

أهم الحلي التي يستعملها الرجال، إذا صح إطلاق كلمة حلي على ما يلبسه الرجال، كان الخاتم، وكان الأثرياء يلبسون الخواتم الذهبية، أو الفضية، التي تزين بفصوص الياقوت، وكانوا يتفاءلون بها كثيراً، أما طبقة أبناء الشعب فكانوا يستعملون الخاتم المخاوي، وهو خاتم مصنوع محليًّا من الفضة ثقيل الوزن، وكانوا يعتبرونه نوعاً من السلاح الخفي، إذا ما دخلوا في عراك مع بعضهم البعض، لأن الواحد منهم إذا صفع الآخر على وجهه، وكان الخاتم في إصبعه، أثَّر في وجه المصفوع، والعياذ بالله من الصفع والشقاق.

الساعة والسلسلة الذهبية :

ولعل أبرز الحلي التي كانت شائعة بين الرجال هي الساعات الذهبية التي تتصل بها سلسلة ذهبية عريضة، مصوغة صياغة جميلة، تتدلى من عروة الثوب لتصل إلى الحزام الذي تدس فيه الساعة، ولم تكن ساعات اليد معروفة آنذاك، وكانت الساعة الوحيدة المعروفة هي ماركة الراسكوف، ولعلها وردت إلى البلاد من استانبول في العهد العثماني، وكانت هذه الساعات الذهبية بما يتبعها من السلاسل الذهبية، خاصة باستعمال التجار والموسرين من الناس، أما العلماء وأوساط الناس والورعين من التجار الموسرين، فكانوا يستعملون الساعات المعدنية،



صورة للمؤلف في الخامسة عشر من العمر بالعباءة والعقال المقصّب

وكانت سلاسلها إما من المعدن الأبيض أو من شريط أسود، مبروم يحل محل السلاسل الفضية والذهبية.

أقلام الحبر ماركة ووترمان :

ويدخل في هذا الباب استعمال أقلام الحبر التي وفدت إلى البلاد حديثاً في الأربعينات والخمسينات، من ماركة ووترمان، التي كانت الأقلام الوحيدة التي وردت إلى البلاد، وكان مقبضها الخارجي والريشة من الذهب، أما الأقلام نفسها فكانت من مادة سوداء لامعة، وكانت الأقلام كبيرة الحجم وليست مثل الأقلام المستعملة حاليًّا.

الحلي للبادية

أما الحلي التي كانت تستعملها نساء البادية فهي من الفضة، سواء كانت خلاخيل للقدم، أو عقوداً للصدر، تتميز بكبر الحجم، وما كان منها للصدر يشبه اللبة التي سبق وصفها، ولكنها ليست من اللؤلؤ وإنما هي عبارة عن قطع مربعة من الفضة منقوشة تفصل بينها خرزات كبيرة، سوداء أو بيضاء، كما كانوا يصوغون الفضة نفسها على شكل خرزات مثقوبة، و ينظمونها عقوداً حول العنق أو اليد، ولعل البادية لاتزال تحتفظ بشيء من هذا الذي ذكرناه إلى اليوم.

الجنبية والخنجر :

أهم ما كان يتميز به البدوي هو وجود الجنبية في حزامه، وهي عبارة عن خنجر ماضي الحد له مقبض من الفضة، وهو أكبر حجماً من الخنجر المعروف و يسمى «جنبية» أما الصغير الحجم فهو الخنجر. وكان السادة من الأشراف والأمراء يستعملون الخناجر الذهبية، فكانت تلمع في مكانها من الحزام الذي كان من الجلد الناعم البراق.

المسبحة الكهرمان :

وكان الرجال يمسكون في أيديهم بمسابح من الكهرمان الأصفر، وكانت مسابح صغيرة ذات حبات كبيرة لها رائحة جميلة، إذا ما دعك المرء حباتها بين يديه، وكانت هذه المسابح للتلهي بها وتحريكها في اليد أكثر مما هي للذكر، أما المسابح التي تستعمل للذكر فكانت ذات حبات صغيرة، وكانت من اليسر أو الخشب، وكانت صناعة المسابح اليسر رائجة في البلاد، وكان لها صناع معروفون، وسنتحدث عنها في باب الصناعات والفنون.

علبة الدخان ومبسم السيجارة :

وكانت هناك أخيراً علبة الدخان، وهي إما من الفضة الخالصة، أو من المعدن الجميل المنقوش، وكان يحفظ فيها الدخان المفروط، لأن الناس لم يكونوا قد تعودوا على السجائر، التي ترد جاهزة من الخارج، وكانوا يضعون في داخل العلبة الورق الخفيف الذي يلفون فيه الدخان،



صورة لبعض كبار الأعراب بالعباءة والعقال المقصّب

وكان أشهر أنواعه البافرا، كما كان هناك مبسم السيجارة، الذي يكون ملبساً كله أو بعضه بالفضة الناعمة، وقد انتهى عهد علب الدخان بشيوع استعمال السجائر الواردة من انجلترا، والتي كانت لها رائحة نفاذة مغرية.

علبة العطوس :

ولعل من إكمال الحديث عن زينة الرجال، أن نذكر علبة العطوس التي كانت تستعمل في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر، وهي علبة صغيرة من المعدن المنقوش الجميل، أو من الفضة، كان يوضع بها «النشوق» للأنف وهو عبارة عن مسحوق من الدخان مخلوط به بعض المواد الحريفة، ويستعمل من بعض الناس بطريقة استنشاقه من الأنف، فيثير العطاس، وكانت الفئات التي تستعمله غالباً من الفقهاء والمقرئين، وبعض طلاب العلم، وبعض الأعيان من كبار السن، وكانوا إذا جلسوا مع بعضهم البعض تهادوا بهذا النشوق، فيقدمه الواحد للآخر، كما تقدم السجائر، أو يقدم ليُّ الشيشة لمن يدخنونها، ويبدو لي أن هذا السعوط قد انتهى، فإنني لم أر من يستعمله في الوقت الحاضر أو أسمع عنه بحمد الله.

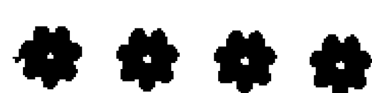
الحناء - العفص - العطور :

لإكمال الحديث عن زينة المرأة، لابد أن نتحدث عن الحناء، التي كانت شائعة الاستعمال في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة، ونستطيع أن نقول: إن الحناء كانت زينة شائعة في البلاد لا للنساء فقط، وإنما للنساء والرجال والأطفال على السواء، وكانت تستعمل كثيراً في الصيف، أما الرجال فيصبغون بها أيديهم وأقدامهم، وذلك بأن يؤخذ ورق الحناء فيدق دقاً ناعماً في الهاون «الهوند» ثم تطبخ هذه الحناء بوضعها في ماء مغلى، حتى تبرد تماماً ثم توضع في قماش تطوق به الأكف والأقدام ليلة كاملة، فإذا أصبح الصباح ونزع هذا القماش وغسلت الأيدي والأقدام من بقايا هذه الحناء، ظهرت الكف وقد اكتست بلون أحمر باطناً وظاهراً، أما القدم فإن هذه الحمرة تكسو أسفل القدمين وظاهر أصابع القدمين، هذا بالنسبة للرجال والأطفال والبنات الصغيرات، وكما ذكرت فإن هذه الحناء كانوا يعتبرونها مفيدة صحيًّا في أيام الصيف، ومبردة للجسم، كما كانت تصنع للأطفال في مناسبات الأعياد والحفلات الخاصة بهم، أما بالنسبة للنساء فكان استعمال الحناء يتخذ شكلاً أكثر أناقة وتهذيباً، فكانت الحناء أو العفص يوضع على الأظفار للكفين والقدمين، ثم تطرق به أصابع اليدين في

خطوط طويلة بالحناء في وسط الأصابع، ثم يصبغ باطن الكف بالحناء نفسها، أما العفص وهو مادة سوداء تصبغ الجلد، فكان يستعمل كذلك بنفس الطريقة في أظافر القدمين والكفين، ثم توضع منه خطوط على شكل نقط صغيرة متقاربة في وسط الأصابع و يترك الكف دون صباغ، ولعل هذا هو ما أشار إليه الشاعر في القصيدة التي تنسب إلى يزيد بن معاوية الخليفة الأموي والتي كان يتغنى بها المغنون في الحجاز، ولا يزال يرددها بعض المطربين حتى الآن والتي مطلعها:

نالت على يدها ما لم تنله يدي ... نقشاً على معصم أوهت به جلدي

كأنه طرق نمل في أناملها ... أو روضة رصعتها السحب بالبرد



والشاهد هو في وصف هذا النقش في البيت الثاني، كأنه طرق نمل في أناملها، وهو وصف دقيق لهذا النقش الذي كانت تستعمله النسوة بالعفص، حتى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة، وإذا صحت نسبة القصيدة إلى يزيد بن معاوية، وهو الذي عاش وولّي الخلافة في النصف الأول من القرن الهجري، فكأن هذه الزينة عاشت ألفاً وأربعمائة عام.

العطور:

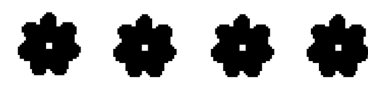
أما العطور التي كانت شائعة في ذلك الزمان، فأهمها وأغلاها كان عطراً اسمه «عطر شاه» ولعله نسبة إلى الملوك، فإن كلمة شاه تستعمل مقرونة بأسماء الملوك، فكان يقال عن بلاط الخلفاء العثمانيين المقام الشاهاني، وما إلى ذلك، وهذا العطر لعله كان يرد من تركيا، أو من الهند، فكلمة شاه فيما يبدو بهذا المعنى، ليست غريبة على اللغة الأوروبية والفارسية، بل هي شائعة الاستعمال حتى الآن في الهند وإيران، ويأتي بعد عطر الشاه، وهو أغلاها في ذلك الزمان، عطر الكاري، وعطر الورد، وعطر العود، أما عطر الورد، وعطر الكاري، فكانا يصنعان محليًّا في الطائف، كما كان يزرع الكاري في الطائف، والمدينة المنورة، فيما أظن، وسنتحدث عن طريقة صنع عطر الورد في قسم الصناعات والفنون فيما بعد، أما عطر العود فكان يرد من الهند. هذه هي العطور الغالية الثمن، التي كان يستعملها السراة والأغنياء من الناس، وكان إلى جانب هذه العطور ماء الورد، وكانوا يضعونه في مرشات مثل القماقم جميلة الشكل، ويرشون به الناس وخاصة في حفلات العرس والموالد وما إليها، وهو جميل الرائحة، وبعضهم كان يضع منه في ماء الشرب ليكسبه رائحة جميلة ومذاقاً خاصاً.

الكولونيا الجاوي (الريف دور):

أما على المستوى الشعبي، فإن الاستعمال تطور فيما بعد إلى الروائح المستوردة، وكان من أشهرها ماء الكلونيا الفرنسية (LETION) وكانت ترد في قوارير خضراء، وكانوا يسمونها الكلونيا الجاوي، ولعلها وصلت إلى البلاد أول ما وصلت مع الحجاج الجاويين، فأطلق عليها

هذا الاسم، ثم أصبح هناك من يستوردها من مصدرها في فرنسا، وقد استبدلت القوارير الخضراء بزجاجات بيضاء كما هو معروف الآن.

وكانت هناك كلونيا أخرى شهيرة، هي ماركة ريف دور ذات الرائحة القوية النفاذة، كما كان هناك بعض الروائح الأوروبية الأخرى، وكلما كانت الرائحة قوية وجدت مجالاً في الطبقات الشعبية خاصة، أما الكلونيا الجاوي فكان استعمالها شائعاً بين أوساط الناس وسراتهم على السواء.



الفصل الرابع

التعـــــليم

حينما فتحت عيني على الحياة في أوائل الأربعينات، وأنا أبلغ من العمر بضع سنين، كانت في مدينة جدة مدرستان، أولاهما وأشهرهما مدرسة الفلاح، التي أسسها الحاج محمد علي زينل رضا — رحمه الله — والثانية هي المدرسة الابتدائية الحكومية، وكان اسمها المدرسة الرشدية، وكان محلها أمام مسجد الباشا في حارة الشام قريباً من سوق الندا، وقد أزيلت بعد أن خرب مبناها وآل إلى السقوط، وتقرر أن يقام في محلها حديقة صغيرة أو موقف سيارات، ولم يكن هناك شيء آخر من المدارس سوى الكتاتيب التي تعلّم الأولاد مبادىء القراءة والكتابة.

الكتّاب

وكان الناس يرسلون أولادهم إلى الكتاب إذا بلغوا الرابعة، أو الخامسة، ليتعلموا مبادىء القراءة والكتابة، والكتّاب هو عبارة عن غرفة في الدور الأرضي من أحد المنازل، يحشر فيها التلاميذ الصغار حشراً، وهي مفروشة بالخسف، ومعلّم الكتّاب هو شيخ من المقرئين يسميه الأطفال سيّدنا، وقد يساعده أحد كبار التلاميذ، و يسمى العريف، ولم يكن همُّ هذا الشيخ هو التعليم، وإنما كان همّه جمع القروش القليلة من الأطفال، ببيعهم بعض الحلوى أو شيئاً من الحمص والفشار بأثمان باهظة جداً، وتتوسط الكتاب سبورة سوداء يكتب عليها الشيخ أو العريف بعض الحروف الأبجدية، و يتغنى هو أو العريف ثم يتبعه الأولاد في صوت واحد قائلين:

«ألف لا شيء عليها، والباء واحدة من تحتها، والتاء اثنين من فوقها».

ومعنى ذلك أن الألف لا شيء عليها، أي لا نقطة عليها، بينما الباء واحدة من تحتها، وهي النقطة التي تحت الباء، والتاء اثنان من فوقها، أي النقطتان اللتان تميزان حرف التاء، فإذا تقدم الأطفال وتعلموا الحروف الهجائية في بضعة شهور، حسب سن التلميذ، انتقلوا إلى تعلم صغار السور من جزء عم، فإذا اشتد ساعدهم قليلاً، أمروا بحفظ بعض صغار السور، وهكذا مع تمرينهم على مبادىء الكتابة.

هذه هي كل مادة التعليم، التي يحتوي عليها الكتّاب، وكان الناس قبل فتح المدرستين اللتين أشرنا إليهما يخرجون أولادهم لتعليمهم الكتابة، إذا كان والد الطفل متعلماً، ومتفتح الذهن فيرسله إلى بعض من اشتهروا بحسن الخط في بيوت التجار، ليتعلم الكتابة والحساب، أما الذين يرغبون في تثقيف أبنائهم ثقافة دينية فيسلمونهم إلى بعض العلماء الذين يتولون التدريس والوعظ في بعض المساجد ليلازموهم، ولكن هؤلاء على أي حال كانوا قلة نادرة.

تعليم البنات

« الفقيهة - الصرافة - القلابة - المعلمة »

وكان الكتّاب خاصاً بالبنين، أما البنات فكن يرسلن إلى الفقيهة، وهي مؤنث فقيه، وكانت أشهر الفقيهات في مدينة جدة الفقيهة خديجة الشامية، وكانت عمياء، ولم يكن التعليم لدى الفقيهة بمختلف في شيء عنه في الكتّاب، فإذا وصلت البنت إلى سورة الضحى عملت لها «الصرافة» وهي عبارة عن حفلة تخرج فيها الفقيهة ومعها البنات تتقدمهن البنت المتخرجة - إن صح هذا التعبير - وهي تحمل اللوح وقد كتبت عليه سورة الضحى، فيسرن إلى بيت أهل الطفلة الذين يستعدون لهذه المناسبة باستدعاء الأهل والصديقات والجارات، فإذا وصل الموكب أجلست الفقيهة البنت أمام الحاضرات، وأمرتها بقراءة السورة فتقرأها في اللوح فترتفع الزغاريد، وتوزع الحلوى على الحاضرات، و يوزع النبات على البنات، ثم تبقى الفقيهة لتناول طعام الغداء لدى أهل البنت المتخرجة، ولا تخرج إلا وقد أتحفت بمبلغ محترم من النقود من والدة البنت، والنقود من أهلها، وربما أعطيت بدلة كاملة لاجتهادها في تعليم البنت، وإيصالها إلى هذا الحد العظيم من العلم، أما إذا أتمّت البنت جزء عم، فإن الحفلة تكون أكبر وتسمى «القلابة» وهي

بنفس الترتيب السابق، ولا بقاء للبنت في بيت الفقيه بعد القلابة لأنها يجب أن تتعلم بعد ذلك.

النسج - المعلمة:

شغل النسج، وكانت أشهر من تعلّم شغل النسج -وهو شغل الإبرة إذا صح هذا التعبير- معلّمة لعلها من أصل سوداني، كانت تسكن قريباً من سوق البدو في مدينة جدة اسمها «بربرية» وكان الناس يرسلون بناتهم إليها وهن يافعات، فيتعلمن عندها على المنسج أنواعاً من شغل الإبرة الذي كان سائداً في البلاد، وكان أهل البنات الموسرات يرسلون الغداء إلى بناتهم سواء في دار الفقيهة أو في دار «المعلّمة» وهذا هو الإسم الذي يطلق على السيدة التي تعلم البنات شغل المنسج، وكانت المعلّمة والفقيهة تتقاضيان إلى جانب ذلك أجراً أسبوعياً، كما تبيعان للبنات بعض الحلوى والحمص واللوز، بأسعار فاحشة، أسوة بما يفعله سيّدنا في الكتّاب، وكان التلاميذ، بنين وبنات، يدركون أن هذه الضريبة لا بد من دفعها لسيّدنا وللفقيهة والمعلّمة، حتى لا يتعرضون للعقاب، وكان العقاب هو الضرب على الأيدي بالعصا، أما من كان ذنبه كبيراً فإنه يتعرض لوضع رجليه في الفلقة، وهي أشد أنواع العقاب.

المدرسة الرشدية:

المدرسة الرشدية في جدة هي المدرسة الابتدائية الحكومية، وهي من العهد العثماني كما يدل اسمها، وحينما قام حزب الاتحاد والترقي في تركيا بالانقلاب على السلطان عبد الحميد، وبدأت حركة التتريك تحول التعليم في هذه المدرسة من اللغة العربية إلى اللغة التركية، فأصبحت مواد اللغة نفسها، من نحو وصرف وإعراب، تدرس بالتركية، وكفاك هذا دليلاً على الانتكاسة التي وصلت إليها حالة التعليم.

مدرسة الفلاح :

كان تأسيس مدرسة الفلاح في جدة، ثم في مكة المكرمة، فتحاً عظيماً، تم به وضع النواة الأولى للتعليم الصحيح في البلاد، وكان مؤسس هذه المدارس الحاج محمد علي زينل رضا، شاباً في أوائل العشرينات، وقد راعه الجهل المطبق الذي كان يخيم على البلاد، والأمية المتفشية، حيث كان يصل الجمّال من مكة المكرمة فلا يجد من يقرأ له الورقة التي بيده، والتي تحمل اسم الجهة المرسل إليها البضائع المحمَّلة على جماله، إلا بعد أن يصل إلى قلب مدينة جدة في الخاسكية، وذلك لندرة من يحسن القراءة والكتابة، فقام الرجل في عام١٣٢٣ هـ بمعونة بعض أصدقائه من الشباب أمثاله بتهيئة مكان لتعليم الأولاد قراءة القرآن الكريم، ولما كان القيام بهذا العمل يحتاج إلى ترخيص رسمي من الحكومة العثمانية، ولم يكن قد حصل على هذا الترخيص، لجأ هو وأصدقاؤه إلى أخذ التلاميذ من بيوتهم بعد الغروب، وإيصالهم إلى المدرسة تحت جنح الظلام، ثم إعادتهم إلى بيوت ذويهم بعد الدرس، وحينما حصل على الترخيص الرسمي بافتتاح المدرسة، استعان بزوجته التي باعت كل ما تملكه من حلي ومجوهرات، لشراء مبنى المدرسة الذي كان معروضاً للبيع، والذي لاتزال مدارس الفلاح في جدة تشغله حتى الآن، ثم اضطر الرجل للسفر إلى الهند لتدبير المال اللازم للصرف على المدارس التي أخذت تنموا وتكبر عاماً بعد عام، والتي كان ينفق عليها من ماله الخاص دون معونة من أحد(١).

كان التعليم في مدارس الفلاح في كل من مكة وجدة كما ذكرنا بداية لعهد جديد في تاريخ البلاد، وقد بدأ التعليم في هذه المدارس في العشرينات، وكانت مدة الدراسة ستة أعوام، ثم أضيف إليها ثلاثة أعوام أخرى تسمى السنوات العلمية، ويتم التركيز فيها على تخريج أساتذة متمكنين من المواد الدينية واللغوية، وبعد النهضة التعليمية الكبرى التي شملت البلاد في الستينات أصبحت برامج التعليم متمشية مع النظام التعليمي، الذي تسير عليه البلاد العربية الأخرى، وخاصة في مصر بصورة خاصة، مع امتياز مدارس المملكة بقوة المواد الدينية التي

---

(١) للاطلاع على تفصيل أوفى عن مدارس الفلاح انظر ترجمة الحاج محمد علي زينل رضا في كتابنا أعلام الحجاز في القرن الهجري الرابع عشر.

تدرس، ويمكن أن نذكر أن النهضة التعليمية إنما وضعت أسسها في عهد المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ مدير المعارف العام، وذلك بنشر التعليم في كثير من أنحاء المملكة، و بتأسيس مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة التي كانت تهيء الطلبة المنوي ابتعاثهم للدراسة العليا في مصر، للابتعاث(١)، على أي حال فإن مدارس الفلاح استطاعت أن تطور نفسها وتتمشى مع برامج التعليم الحكومي والذي يشمل المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ولكن مدارس الفلاح قبل أن تصل إلى هذه المرحلة كانت قد قامت بدورها العظيم في نشر العلم، وتغيير الصورة القاتمة التي كانت تخيّم على وجه البلاد، إلى وجه مشرق جميل، فتخرج المئات من الشباب، وقد أتقنوا القراءة والكتابة والحساب كما ألمُّوا بكثير من أمور دينهم، وتزودوا بمحصول طيب من مختلف العلوم والفنون، فكان منهم أساتذة المدارس، وموظفو الدولة والموظفون التجاريون، وحينما انتهى الحكم العثماني في الحجاز كان تلامذة الفلاح في مكة وجدة يملأون الدواوين الحكومية، والبيوت التجارية، كما يتولون وظائف التدريس، وحينما بلغ متخرجو هذه المدارس مبلغ الرجال، كانوا يمثلون الجيل الجديد الذي أخذ بحظ من العلم، والذي أصبح يمثل الوجه المشرق الجديد للبلاد، وإذا نظرنا إلى الكتّاب والأدباء والشعراء الذين ظهرت أسماؤهم في الأربعينات والخمسينات، لوجدنا أن معظمهم من متخرجي مدارس الفلاح في مكة وجدة.

روافد أخرى:

ولا شك أن هناك روافد أخرى أمدت الحركة التعليمية غير مدارس الفلاح، وخاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فمن المؤكد أن حلقات الدروس في المسجدين الشريفين مع بعض المدارس الأخرى الدينية المتخصصة، مثل المدرسة الصولتية في مكة المكرمة، ومدرسة العلوم الشرعية، في المدينة المنورة، قد ساعدت في نشر الحركة العلمية، و بث المعرفة، ولكن ميزة الفلاح أنها كانت مدارس كبيرة تخرّج فيها الألوف من الشباب، الذين ساهموا في جميع النشاطات الاجتماعية.

(١) انظر الحلقة الخاصة بالسيد محمد طاهر الدباغ في كتابنا أعلام الحجاز في القرن الهجري الرابع عشر.

مؤسس الفلاح يدفع الرواتب للطلاب للاستمرار في الدراسة

ولعل من أعجب ما قام به مؤسس الفلاح – رحمه الله – أنه كان يدفع للطلاب الذين تبدو أمارات نجاباتهم، مرتبات شهرية في السنوات الثلاث العلمية من الدراسة، إغراء لهم أو على الأصح لآبائهم على الاستمرار في إكمال الدراسة، لأن البعض منهم وخاصة من كان آباؤهم من الفقراء كانوا يرغبون في توظيف أولادهم، بعد إتمام السنة الدراسية السادسة، للاستفادة من مرتباتهم، فكان يعين لهؤلاء الآباء مرتبات شهرية باسم الأبناء، إغراء لهم على إكمال الدراسة.

الابتعاث إلى الهند

كما أنه قام بابتعاث أنجب الطلاب من مكة وجدة إلى الهند، وهيأ لهم برنامجاً تعليمياً ضخماً، يشمل التوسع في العلوم الدينية مع دراسة اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة، وكانت آماله عظيمة في أن يجعل من هؤلاء الطلاب دعاة للإسلام في كل مكان، ولكن ظروفه الاقتصادية حالت بينه وبين تحقيق آماله الكبار، رحمه الله وأحسن جزاءه.

اللغة الإنجليزية:

لعل من المناسب وقد تحدثنا عن ماضي التعليم في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر، أن نتحدث عن اللغات الأجنبية عامة، واللغة الإنجليزية خاصة، في هذه الفترة من الزمن.

كانت اللغات الأجنبية أو على الأصح من يجيدونها لا وجود لهم بصورة عامة، ولقد أدركت الناس في الخمسينات والستينات والذين يعرفون اللغة الإنجليزية من أهل البلاد يعدّون على أصابع اليد الواحدة، وجميعهم ممن تلقوا تعليمهم في السودان، وإني لأذكر أن جميع تجار جدة دون استثناء كانوا يرسلون البرقيات الواردة إليهم من الهند في الخمسينات إلى خالي الشيخ محمد

إبراهيم نشار — رحمه الله — ليترجمها لهم، كما أنهم يحضرون إليه حينما يضطرون إلى إرسال برقيات باللغة الإنجليزية ليكتبها لهم، وكان — رحمه الله — قد تعلم اللغة الإنجليزية في السودان حينما انتقلت أسرته إلى بورسودان، بعد انتهاء الحكم العثماني، ثم عاد إلى جدة ليعمل في قسم وكالات البواخر في بيت زينل، ثم انتقل إلى شركة جلاتلي هنكي الإنجليزية، وفي زمن الحرب العالمية الثانية، كان يلتقط أخبار إذاعة لندن باللغة الإنجليزية، و يتحلق حوله أصدقاؤه من الأعيان والتجار، ليخبرهم بآخر ما سمعه من نشرات هذه الإذاعة، وكان كذلك المرحوم الشيخ أحمد عشماوي من أوائل الشبان الذين تعلموا اللغة الإنجليزية في السودان، ثم عاد ليعمل في شركة جلاتلي هنكي الإنجليزية في الخمسينات، وكذلك المرحوم إبراهيم زهران، وأخوه زهران إسماعيل زهران، وجميعهم تعلموا في مدارس السودان، ثم عادوا إلى الحجاز حيث تلقفتهم الشركات الأجنبية للعمل فيها، أما الشركات الأجنبية نفسها والسفارات الأجنبية، فكانت تستعين بموظفين من الهند، ومن مصر، والسودان، تستقدمهم للعمل فيها، وكان يطلق على الرجل الهندي الذي يجيد اللغة الإنجليزية لقب «منشي» ولعل أصلها منشىء من الإنشاء، وهو مادة اللغة والأدب. وبعد دخول السيارات إلى البلاد، وتأسيس شركاتها في الأربعينات والخمسينات، استقدمت البلاد كثيراً من المهندسين من السودان، وعدن، واستقدمت كذلك معهم بعض الموظفين الإداريين، وأذكر أنه كان يعمل في شركة القناعة للسيارات بجدة خلال الأربعينات، أستاذ من السودان اسمه «عرفات محمد عبد الله» وكنا نذهب إليه في داره من بعد الغروب، لتعلم مبادىء اللغة الإنجليزية، ولكنه لم يستمر طويلاً حيث غادر البلاد عائداً إلى السودان، كما كان الأستاذ حسن كامل السوداني الجنسية، من أوائل السودانيين الذين يتقنون اللغة الإنجليزية، والذي استمر سنوات طويلة، وهو يقوم بتعليمها للراغبين مقابل أجر معين للحصة إلى جانب عمله في الشركة الشرقية التي أسسها المستشرق الإنجليزي عبد الله فلبي.

ومن أعجب ما مرَّ عليَّ في محاولاتي لتعلم اللغة الإنجليزية في الأربعينات، أني كنت أذهب في الصباح الباكر وقبل الإفطار، إلى معلم اسمه «المنشىء فضل الله قاضي» وهو والد الأستاذ عبد الله قاضي، من موظفي وزارة الإعلام في جدة، وكان هذا المنشىء يعمل في بيت الحاج حسين علي رضا، شقيق الحاج عبد الله علي رضا، وكان يدرس معي على يد المنشىء فضل الله قاضي، الشيخ عبد الله أبوالحسن — أمد الله في حياته — وكان الأخ عبد الله أبوالحسن يعرف اللغة الأوردية، وكان المنشىء يعلمه الإنجليزية بالأوردية ثم يترجم هو لي ما يتلقاه إلى العربية، ولست في حاجة لأن أقول: إني ضقت ذرعاً بهذا الأسلوب، فلم أستمر في الدراسة.

وكان أبرز معلم للغة الإنجليزية في مكة المكرمة رجل تركي اسمه «كامل أفندي» وكان يعمل في محلات آل البوقري في سويقة، كما أن المنشىء كرامة وهو رجل هندي، انتقل إلى المدينة المنورة للهجرة إليها، كان كذلك يعلم اللغة الإنجليزية في المدينة المنورة.

ومن الواضح أن التعليم بهذا الأسلوب الفردي، لم يكن يستفيد منه إلا القلائل الذين تحدوهم الرغبة الشديدة في التعلم، و يتوفر لهم إلى جانب ذلك الإخلاص من المدرسين أنفسهم، ولهذا فإن تعليم اللغات الأجنبية كان نادراً وفي حكم المعدوم.

التعليم في بداية العهد السعودي

بعد أن استقر الأمر للمغفور له الملك عبد العزيز في الحجاز، في النصف الأول من الأربعينات، بدأ التفكير في إرسال أول بعثة علمية سعودية لتلقي العلم في المدارس المصرية، وكانت المدارس الحكومية التي كانت موجودة في العهد الهاشمي، قد أدخل عليها بعض التعديل، وخاصة فيما يتعلق بدراسة التوحيد والعقيدة السلفية، كما كانت مدارس الفلاح تحظى بعناية كبيرة من جلالة المغفور له الملك عبد العزيز، وأذكر أنه قام بزيارة المدرسة بعد فتح مدينة جدة مباشرة، واحتفلت المدرسة احتفالاً كبيراً بمقدمه، وكان يدخل علية التلاميذ فصلاً فصلاً وفي مقدمتهم خطيبهم، كما أذكر أنه أهدى للمدرسة مبلغاً من المال أسست به نواة المكتبة الموجودة في المدرسة، وفي كل مرة كان يصل فيها جلالته إلى مدينة جدة، تذهب المدرسة أساتذة وطلاباً لتحية جلالته في بيت نصيف، وأذكر أنه حضر مرة إلى جدة وكانت المدرسة مشغولة بالاختبارات، والطلاب منهمكون في هذه الشؤون، وتخلفت المدرسة عن الزيارة المعتادة، و يبدو أن جلالته افتقد المدرسة وطلابها، فسأل عنهم، و يبدو أن المدرسة تلقت إشارة بذلك، فبادر الشيخ حسين مطر مدير المدرسة — رحمه الله — واختار بعض الصفوف العليا من المدرسة، وذهبنا جميعاً لتحية جلالته في بيت نصيف في ملابسنا المعتادة، وقد تعود جلالته أن يرى التلاميذ وقد لبسوا أحسن ما لديهم من الحلل، وكانت الجبة والعمامة الألفي هما اللبس السائد في هذه المناسبات، وحينما رأى جلالته ذلك أدرك أن الزيارة إنما تمت على غير استعداد، وقد شرح له المدير — رحمه الله — انشغال الطلبة بالاختبارات، فألقى جلالته — رحمه الله — كلمة في الطلبة ذكر فيها أنه يعتبر أن العلم الذي نسعى لتحصيله هو الزينة الحقيقية لنا، وكانت لفتة كريمة وذكية من جلالته، كما أذكر أنه أرسل إلينا في مدرسة الفلاح الشيخ إبراهيم بن معمر، الذي

أصبح قائمقام مدينة جدة فيما بعد، وطلب الاجتماع بالطلبة، فلما كانت صلاة الظهر، وكان الطلبة مجتمعين للصلاة بمسجد المدرسة، ألقى الشيخ ابن معمر – رحمه الله – كلمة أبلغنا فيها أنه موفد من الملك عبد العزيز، لزيارتنا، وأن جلالته يحبنا ويهتم بأمورنا، وأبلغنا أن جلالته أرسل مبلغاً من المال إلينا هدية من جلالته، وأنه طلب من المدرسة توزيع هذه الهدية علينا، في شكل فواكه تشترى بهذا المبلغ، ويتم توزيعها على الطلبة، وقد تم ذلك بالفعل، بعد أيام من زيارة الشيخ إبراهيم بن معمر، ولاشك أن هذا الاهتمام من جلالة المغفور له الملك عبد العزيز، إنما كان يدل أولاً على حبه للعلم، والمعرفة، كما يدل على تقديره للدور الذي قامت به مدارس الفلاح في نشر العلم وتربية النشىء.

أول بعثة علمية إلى مصر

ولهذا فإن تفكير جلالته اتجه إلى إرسال البعوث العلمية إلى مصر، كبداية للنهضة التعليمية المرجوة، وبالفعل، فقد تم إرسال أول بعثة علمية إلى مصر في أواخر الأربعينات، وكان من أعضاء هذه البعثة على ما أذكر الأساتذة أحمد العربي، وعمر نصيف – رحمه الله – وعبد الله الطريقي وحسن المشاري، على ما أذكر، والأستاذ عبد الله ناظر، وعبد المجيد متبولي، والسيد علوي شطا – رحمه الله – وغيرهم، وكان أفراد البعثة يصلون في كل عام إلى مصر، ويقام لهم استقبال عظيم حين نزولهم من الباخرة في مبنى الكورنتينة، وتلقى في هذا الاستقبال الخطب الترحيبية، التي يجيب عليها الطلبة بالشكر، ويتوافد الناس على بيوتهم مهنئين ومرحبين لعدة أيام، ولاشك أن البعثة الأولى لقيت بعض المتاعب لاختلاف برامج الدراسة في مصر عنها في بلادهم، ولكن البعض منهم صابر وصبر وتخطى العقبات، ثم عاد إلى البلاد ليأخذ مكانه القيادي سواء في مجال العلم والدراسة كالأساتذة أحمد العربي – أمد الله في حياته – والسيد علوي شطا، وعمر نصيف – رحمهما الله – أو كالأستاذ عبد الله الطريقي، الذي أصبح بعد إكمال دراسته الجيولوجية أول مدير لشؤون الزيت في مكتب المعادن بوزارة المالية، وكان يطلق عليه في وقت من الأوقات في الصحف الأجنبية فارس الزيت.

ولكن النهضة التعليمية الحقيقية في المملكة إنما بدأت في الستينات في عهد المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ، الذي أسس المدارس الكثيرة في كل مدينة من مدن المملكة، كما أسس مدرسة تحضير البعثات، ونظم أمر الابتعاث حتى لا يتعرض الطلبة المبتعثون للتعثر في دراستهم،

كما حصل للبعثة الأولى، وعلى أي حال فإن الحديث عن هذا الموضوع لايدخل في نطاق هذا البحث، لأنه خاص بفترة زمنية معينة تنتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية في عام١٣٦٤ للهجرة، وقد انطلقت النهضة في البلاد بعد ذلك في شتى المجالات.

الأدب والثقافة:

في العهد الهاشمي كانت الجريدة الوحيدة التي تصدر في الحجاز هي جريدة القبلة، وكانت تصدر في مكة المكرمة، وهي جريدة رسمية تهتم بالشؤون السياسية للعهد الهاشمي، وتمثل وجهة نظر الحكم القائم، وبانتهاء العهد الهاشمي بدأت طلائع الأدب الحجازي في الظهور في المؤلفات التي ظهرت في عام١٣٤٤ هـ في أوائل العهد السعودي، وبعد انتهاء الحكم الهاشمي مباشرة، وكان ذلك إيذاناً بولادة الأدب الحجازي على يد شعراء وكتّاب من أبناء مكة المكرمة وجدة، ولم تكن هذه المؤلفات كثيرة ولا متنوعة، وإنما كانت محصورة في كتب ثلاثة سنتحدث عن كل منها لإعطاء صورة عن ميلاد هذا الأدب الذي نستطيع أن نقول: إنه ولد قوياً وسوياً.

أدب الحجاز:

أهم هذه الكتب هو كتاب أدب الحجاز، الذي ألفه، أو على الأصح جمعه وقام بعبء طبعه ونشره المرحوم الشيخ محمد سرور الصبّان، رائد الأدب في الحجاز، بإقدامه على طبع هذا الكتاب وما تلاه من كتب أخرى، سيأتي الحديث عنها بعد، وقد قدم فيها نماذج لتسعة من الشعراء، كما قدم نماذج لثلاثة عشر كاتباً، فإذا استثنينا الأسماء المكررة في كل من الشعر والنثر، خلص لنا ثلاثة عشر أديباً بعضهم يجمع بين الشعر والنثر، والبعض الآخر ينفرد بالكتابة، دون الشعر وهؤلاء هم الطلائع الأولى التي كانت بشيراً بميلاد الأدب الحجازي الحديث، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم «الرعيل الأول» بعضهم فرض اسمه على الحياة الأدبية إلى أن أسلم الروح، كالأستاذ محمد حسن عواد —رحمه الله— وبعضهم لا يزال يعمل في صمت ودأب، كالأستاذ محمد سعيد العامودي —أمد الله في عمره— وبعضهم استمر في العطاء طويلاً ثم توقف، وأغلبهم فارق هذه الحياة الدنيا وأصبح في ذمة التاريخ، والواقع أنه ليس من غرض هذا البحث إحصاء

الكتاب والشعراء، أو تقييم إنتاجهم، وإنما الغرض هو إعطاء صورة موجزة عن الحياة الأدبية في الفترة التي نتحدث عنها، فإذا تركنا الأسماء جانباً وقرأنا هذا الإنتاج الذي تضمنه كتاب أدب الحجاز، من الشعر أو النثر، بل والكتابان الآخران اللذان رافقاه، وهما: خواطر مصرحة لمحمد حسن عواد، والمعرض وهو لمجموعة من الكتّاب الذين اشتركوا في أدب الحجاز، وجدنا أدباً يتحدث بلغة العصر الذي ظهر فيه، فهو يصل إلى الغرض الذي يريد التعبير عنه خالصاً من قيود السجع والاستعارة، التي كانت تسود أدب الحجاز في العهد السابق، لظهور هؤلاء الأدباء من الشباب، والذي كانت تضيع معانيه في متاهات الجناس والمحسنات البديعية، وتخضع قوالبه للسجع الذي يحمل غثاثة اللفظ، وضحالة المعنى، وأهم من هذا، أن أغراض هذا الأدب كانت أغراضاً شريفة كريمة، أفاق هؤلاء الأدباء فوجدوا العالم من حولهم يموج بالحركة والنشاط، ويأخذ بأسباب الحضارة والعلم، بينما وجدوا بلادهم تغط في نوم عميق، وقد فاتها الركب، وجدوا الخرافة تأخذ مكان الدين، والشعوذة تحتل محل العلم، والأمية التي تسود العامة تسوق سواد الأمة في هذا الطريق المظلم الكئيب، رأوا كل هذا فهبوا لإيقاظ النائمين من هذا السبات، يوقدون الشموع لتبديد الظلمة والسواد، وكان سبيلهم إلى هذا، هو الأفواه التي كانت ملجمة فأزيحت عنها تلك اللجم، وتلك الأقلام التي حفت بأيدي الكاتبين فتكسرت أسنتها، فقاموا يشرعونها للكتابة ويرفعون الصوت بالدعوة والإصلاح، وأنت تجد صدى هذه الدعوة الحارة في كل ما تضمه هذه المؤلفات الصغيرة التي ظهرت في عام ١٣٤٤ هجرية في بداية العهد السعودي، وهما كتابا «أدب الحجاز» و«المعرض» جمع وتأليف الشيخ محمد سرور الصبان، وكتاب «خواطر مصرحة» للأستاذ محمد حسن عواد، ونستطيع أن نورد بعض هذه النماذج في إيجاز شديد، لتكون لدى القارىء فكرة موجزة عن الأفكار التي كانت تملأ عقول هؤلاء الأدباء، والآمال التي كانت تملأ نفوسهم ومشاعرهم.

■ يقول الأستاذ عبد الوهاب آشي في وصفه أمل الأمة: (١)

ولكم أسوت القلب وهو موله … وكففت دمعي وهو هام مغدق
حزناً على أحوال أمتيَ التي … ما زال يرديها الشقاق المعوق
مالي أراها والحوادث حرم … يقظى تبيد السادرين وتسحق

(١) أدب الحجاز ص (١٠)

تنصاع للأمراء لا تبدي قلا ... وتدين إذ يسطو عليها الأحمق
ما قط قاد إلى الرقي زمامها ... من بعد حكم الراشدين موفق
ألقى بنو مروان نحو شآمهم ... نظرات إصلاح فضاءت جلق
وعنى بنو العباس أمر عراقهم ... فزها بلألاء العراق المشرق
والترك ما نظروا لغير بلادهم ... نصفيهم منا الوداد ونمذق
ومضى الحسين بقضه وقضيضه ... وبنو الحجاز هم لم يرتقوا
درجوا على الجهل المشين عصورهم ... ونأوا عن الإصلاح وهو الأليق
فقضوا كما يقضي الكسول حياتهم ... نفس ملوعة وعيشي ضيق

■ و يقول الشاعر محمد صبحي: (١)

مهلاً بني العرب والأيام شاهدة ... ولا ترد وئاماً كثرة الجدل
سودتمو صحف التاريخ حين بدت ... أعمالكم بين معوج ومرتذل
ماذا فعلتم بمجد كان ممتنعاً ... من الصوارم والعسالة الذبل ؟
ونت لكم عزمات عن تحمله ... والمجد عبء على الوانين ذو ثقل
أضعتموه أقال الله عثرتكم ... بالخلف حتى غدا يرعى مع الهمل

■ و يقول الأستاذ الشاعر محمد حسن عواد: (٢)

متى نرتقي المجد الصريح المخلدا ؟ ... ونكتب في التاريخ فخراً مؤبدا
متى نملك الشأو الرفيع جلالة ؟ ... ونرمي إلى العلياء سهماً مسددا
أنبغي المعالي بالتقاعس ضلة ؟ ... ونطلب عزا في الخليفة رقدا
أما وجلال المجد ما المجد مدرك ... بغير جهاد يجعل الشعب مسعدا

---

(١) أدب الحجاز ص (١٣) طبعة عام ١٣٤٤ هـ.
(٢) أدب الحجاز ص (١٣).

■ ومنها بعد أن يصف نهضة الغرب:

فما ولد الغربي في الكون راقيا ... ولا خلق الغربي في الكون سيدا
وما هو إلا الجد من حاك خيطه ... تناول عن بعد سماكا وفرقدا

■ و يقول الأستاذ الشاعر محمد عمر عرب: (١)

يا شرق هل نفدت قواك وهدّك الخطب الكبير
أم قد جبنت عن النضال وهالك الرزء الخطير
بالأمس كنت مناضلاً تبغي الصدور أو القبور
تسعى إلى العلياء لا تخشى متاهات الدهور
بالأمس كنت ورائد الإقدام يهديك الطريق
واليوم قلّ مضاؤك الحدثان هلا تستفيق

■ و يقول الأستاذ محمد سعيد العامودي في وصف أحداث سورية: (٢)

الملك ملك بني أمية ناطق ... عن أمسك الزاهي وعن ماضيك
والسؤدد العربي والتاريخ قد ... شهد المحاسن في ربى واديك
والمشرفية قد روت وتحدثت ... عن عزة قعساء تكمن فيك
صفحاتك الغراء كم قد أنبأت ... عن مجد إقبال وعز ملوك

■ و يقول الأستاذ عبد القادر عثمان بعنوان دمعة على الشرق: (٣)

أين من شادوا المعالي؟ أين من ... كسبوا بالسعي مجداً لا يسامى؟
واستمد الغرب من أنوارهم ... شعلة التمدين فازدادت ضراما
أين من في الشرق كانوا شهباً؟ ... رجموا الجهل فولى الانهزاما
اسألوا بغداد عن آثارهم ... تنبكم ...... كانوا كراما

---

(١) أدب الحجاز ص (١٩) طبعة ١٣٤٢ هـ.
(٢) أدب الحجاز ص (٢٦) طبعة ١٣٤٤هـ.
(٣) ص (٢٩) أدب الحجاز طبعة ١٣٤٤ هـ.

■ و يقول الأستاذ عبد الوهاب النشار :

وفي شرف الأوطان كل عظيمة ... تحقرها للمرء منقبة الفخر
ولا بلد إلا إذا عز أهله ... عزيز وإن ذلوا فيا ضيعة العمر

■ ومنهـا :

ننمق من ذكر الجدود صحائفنا ... ونزعم أن المجد في دمنا يسري
جهلنا وأخطأنا الطريق ضلالة ... وأبنا عن الترحال بالأنمل الصفر
فسعياً إلى إدراك كل عظيمة ... تجدد للأوطان محمدة الذكر

■ ومن قصيدة بعنوان « يا ليل » لشاعر حجازي لم يشأ ذكر اسمه : (١)

يا ليل صمتك راحة ... للموجعين أسى وكربا
خففت من آلامهم ... ووسعتهم رفقاً وحبا
أو ما ترى حدث الزمان ... أمضهم عسفاً وغلبا

■ و يقول الشيخ محمد سرور الصبان من قصيدة بعنوان «عاطفة النفس» : (٢)

جل الأسى وتتابعت زفراتي ... ودنا المشيب فقلت : حان مماتي

■ ومنهـا :

وحي أيعترض القنوط عزيمتي ... والحزم من طبعي ومن عاداتي
والدهر طوعي والزمان مصادقي ... والصبر درعي والثبات قناتي

■ ومنهـا :

لكنني فرد ولست بأمة ... من لي بمن يصغي لحر شكاتي
من لي بشعب نابه متيقظ ... ثبت الجنان وصادق العزمات
من لي بشعب عالم متنور ... يسعى لهدم رذائل العادات

---

(١) أدب الحجاز ص (٣٢) طبعة ١٣٤٤ هـ.

(٢) أدب الحجاز ص (٨١) طبعة ١٣٤٤ هـ.

من لي بشعب باسل متحمس حتى نقوم بأعظم النهضات

فإذا تركنا الشعر الذي قدمنا بعض نماذجه، وقرأنا الكلمات النثرية التي يضمها هذا الكتاب، وجدنا نفس هذه الروح التي تجلت في ما قرأته من نماذج الشعر، ذلك أن الكاتب إنما يعبر عن نفس المشاعر التي عبر عنها الشاعر، اتحاد في الأفكار وتباين في الأساليب ولا شيء غير ذلك.

■ يقول الكاتب الأستاذ محمد جميل حسن في مقال بعنوان «استعراض الماضي»: (١)

أيها العربي، هل أتاك حديث أجدادك الذين بنوا لهم عرشاً مجيداً قوضت دعائمه صروف الحدثان؟ فتركته كأمس الدابر، وأبادته الأيام فأصبح دفين العصور الغوابر.

ومنهـا:

انطلقي يا سهول النهرين واشهدي يا ساحة اليرموك بشجاعة وإقدام العرب وهللي يا ربوع الأندلس بذكراهم.

■ ثم يقول:

أيها العربي الحجازي:

أولم تنبأ عن ذلك المجد الشامخ الذي تفرق أيدي سبا، وعن الصولة التي تلاشت في الهواء كما تتلاشى روائح البنفسج في أجزاء الأثير.

سأتحدث إليك بطرف من هذا.

ولا نريد أن نصل مع الكاتب إلى نهاية الحديث، ولكن الكتاب يقرأ من عنوانه، وللقارىء أن يتصور ما سيقوله كاتب المقال بعد ذكر الماضي، ووصف الحاضر من حث على نفض غبار القرون، والسير في ركب الحياة والنهوض.

و يقول الأستاذ حامد كعكي في مقال بعنوان: كيف يجب أن نكون؟: (٢)

نظرة إلى الماضي تكفي لأن نطلع منها على مجمل ما كان للحجازيين في القرون الأولى، من الشأو الرفيع، والمنزلة السامية بين جميع طبقات الشعب العربي في كل قطر.

■ ومنهـا:

انتشر الدين الإسلامي فعم ضياؤه كل حي في المعمورة، فأخذوا يسيرون على نوره الوضاء

---

(١) أدب الحجاز ص (٣٤) طبعة ١٣٤٤هـ.

(٢) أدب الحجاز ص (٤٥) طبعة ١٣٤٤هـ.

بخطى ثابتة، وقدم مطمئنة، خطوات بعيدة الشأو، جعلت مركز العرب الأول بين الأمم، ولم يستفد من ذلك العرب فحسب، بل كان ذلك شاملاً كل سكان الأرض.

■ ثم يقول:

قد أضاع الحجاز في القرون الأخيرة ذلك المقام الأعزل معتمداً على شهرته، مرتكزاً على ماله من بعد الصيت والصدى الأقصى الذي أحرزه آباؤه.

■ ثم يختم مقاله بعد أن وصف الحال في الماضي والحاضر قائلا:

أيها الشبان الحجاز يون، إلى إعادة ماضينا الزاهر، يجب أن نكون نحن الجادين، وإلى إرجاع سؤددنا البائد، يجب أن نكون نحن العاملين، وفي سبيل التعاضد والتآزر يجب أن نكون نحن المتآخين.

أما الأستاذ محمد سعيد العامودي فيصرخ قائلاً في مقال بعنوان «حول الإصلاح»: (١)

لا يوجد قطر من أقطار الأرض، ولا توجد أمة من أمم المسكونة، في فقر وعوز شديد إلى إصلاح الأحوال وتنظيم الشؤون، وإلى البناء، والتشييد، وإلى تأسيس دعائم المستقبل القر يب والبعيد، أقول لا يوجد قطر اليوم ولا توجد أمة أشد احتياجاً إلى كل ذلك من هذه الأقطار الحجاز ية، وهذه الأمة العر بية والإسلامية.

■ ثم يقـول:

الناس يسيرون إلى الأمام يعملون ويجدّون و يكدحون، ثم هم يرتقون، و يتقدمون، و ينالون ثمرة سعيهم، والحجاز يسير واأسفاه إلى الوراء إلى الوراء.

■ ثم يقـول:

هذه البلاد أصبح فيها الجهل مستحكماً، و بات الفقر ضار باً أطنابه فأين العمل؟، العمل لإزالة هذين الداءين العضالين اللذين يفتّان في عضدنا، و ينخران في جسمنا، وهما: الجهل والفقر.

■ ثم يختم مقالته قائلاً:

ألا فلنعمل يا قوم، ولنقلع عن خطتنا المألوفة في الحياة، لنقدم ولنسر وليكن السعي المتواصل شعارنا.

---

(١) أدب الحجاز ص (٤٩) (٥١) طبعة ١٣٤٤ هـ.

أما الأستاذ عبد الوهاب آشي، فيتخذ من الخيال سبيلاً إلى الحديث عمّا يجول في نفسه فيقول في مقال بعنوان ملعب الحوادث: (١)

على شفير ذلك المزدان بصفحات الرمال، ونواتيء التلال، وقفت في يدي عصا وسبحة وعلى رأسي عمامة وجبة. هي كل ما اخترته من ميراث أبي وأمي وخالي وعمي.

■ ثم يقــول:

على مد البصر وعند خط الأفق المستدير بين زرقة السماء واكفهرار وجه الغبراء، رأيت شبحاً لم أتبيّنه، وأسودة يخفيها السراب و يبديها، وصلت المنتهى فرأيت شيخاً عربياً كهلاً وضيء المحيا، مهيب الطلعة، وقبالته فتاة كطلعة الشمس نوراً وبهاء، وخمائل الربيع نضرة وجمالاً تنظر إلى ذلك الشيخ، باكية مرتاعة ناحبة ملتاعة، وفي يدها مصباح الهدى وعلى رأسها الكتاب المشرف.

وهو محملق بعينيه فيها لا يشك رائيه في أن نظرته نظرة غضب، مشوبة بأسف يخامره أمل عتيد.

وكنت أود أن أقتبس للقراء الأعزاء الكثير من هذا الخيال الجميل، لولا أنني أخشى أن يؤثر هذا الاقتباس على جمال الصورة وروعتها، لهذا فإنني أقول لك: إن الفتاة هي رمز الحجاز حيث تناجي الشيخ فتقول:

يا أبتاه انعزلت في هذه الناحية النائية، وقبعت في كسر دارك الأخيرة المنزوية، وبقيتُ وحيدة بين من تركتني بينهم فازورّ جانبهم عني رويداً رويداً، وعدل الكل عن سبيل إصلاحي وتنكبوا جادة شرائعي وحصبوني وشتموني، وألحقوا بذاتي كل نقص وشين، وأنا أنا مقر مصباح الهدى، وقلبي مثوى الكتاب المشرف، أنا الحجاز.

أما الشيخ فهو يمثل ماضي الحجاز، بأبطاله وكماته الذين فتحوا الدنيا، واستشهدوا في سبيل الحق، فدانت لهم المشارق والمغارب، ذلك أن الفتاة تنادي: أين رجالي وأين أبطالي؟

حين ذلك ينهض الشيخ بعزم الشباب ملبياً النداء، فتقول الفتاة بصوت يمازجه الحنان: سلام عليكم أيها الشهداء الأبرار، سلام على عهدكم الزاهر، عهد المجد والملك الغابر.

ثم تصرخ قائلة في نهاية المطاف بعد أن تلتفت إلى الوادي الفسيح فتراه خاوياً خالياً فتقول: وعليكم الخزي والعار أيها الأخلاف الأشرار.

---

(١) أدب الحجاز ص (٥٢) - (٥٤) طبعة عام ١٣٤٤ هـ.

أما الأستاذ محمد حسن عواد فيتساءل في مقال بعنوان «من هو الحر العصري»(١) فيقول:

لا تطرف ولا تمرد، ولا تفرنج ولا جمود، ولكن حرية عصرية تحارب الوهم وتسعى إلى الحقائق.

ثم يستطرد قائلاً:

يجب أن نكون جميعاً وعلى الأخص نحن شبيبة البلاد أحراراً، أحراراً في ألسنتنا، أحراراً في تفكيرنا، أحراراً في ضمائرنا، أحراراً في أقلامنا، ولكن بشرط ألآ نخرج ولا نتمرد ولا نجرح حرية الغير.

ثم يعرف الحر العصري فيقول:

الحر العصري هو ذلك الشاب الذي لا تروج عنده الخرافات الرشيدية ولا الترهات الشاذلية، ولا ألاعيب الرفاعية، ولكنه الذي يبحث عن آثار المدينة الإسلامية وسر تقدم الأمة العربية في عصورها المتقدمة، يدرس حياة المكتشفين والمخترعين والأدباء والشعراء والكتاب والزعماء السياسيين والأبطال والملوك والقواد الفاتحين، لا حياة الحواة والأوتاد والكهنة والمشعوذين والسحرة والدجالين.

ولعل مما يحسن ذكره هنا أن الشاذلية والرشيدية والرفاعية، هي أسماء الفرق الصوفية التي كان أتباعها منتشرين في البلاد قبل العهد السعودي.

أما الأستاذ محمد عمر عرب الذي ينحو في أسلوبه منحى جبران خليل جبران فيقول في مقال بعنوان «آية من أسطورة الحب»:

في الرياض:

بين حفيف الأشجار وأريج الأزهار رأيت عروس الفجر ترتل نغمة الحب.

في الرياض على ضفاف الجداول الجارية النقية-كقلب المحب ـ الصافية.

كلون السماء المصقولة، كمرآة الحسناء، أخذت أعيد إلى أذني تلك النغمة الحلوة.

ثم يقول:

في الرياض:

دعوت قومي لألقنهم دروس المعيشة العالية، لأعلمهم سر الحياة الهادئة.

---

(١) أدب الحجاز ص ٦٧/٦٨.

دعوتهم لأشنف أسماعهم بأسطورة الحب التي سمعتها من عروس الفجر فوجدتهم عجماوات لا يسمعون، يصيحون لنعيق الغربان و يطربون من صوت الزوابع الثائرة.

ثم يقول:

حينذاك علمت أنهم مخدرون بمورفين الجهل لا يفيقون إلا متى جرت في دمائهم الحقيقة، وأنى لهم ذلك وهم كذلك حتى تطأهم حوادث الأيام و يذهبون في خبر كان؟

وهكذا نرى أن اختلاف الأساليب في التعبير ينتهي عند الغاية نفسها دون تغير.

و يقول الأستاذ محمد البياري وهو ينحو منحى الأستاذ عمر عرب في أسلوبه:

يا أهلي وأصدقائي:

أنا وحيد وفي وحدتي شيء من الخلود.

أنا وحيد ولكني أرى في وحدتي شيئاً من الخيالات السحرية التي تخلب لبي بهيبتها.

ومنها:

لكم بسط العشب الخضراء تمرحون عليها والأزهار الزهراء تتلذذون بمرائيها وأنا لي من وحدتي قلب رحب أمرح فيه تتلذذ به نفسي.

ومنها:

وحدتي ظلمة في أعينكم، حجب سوداء على قلوبكم، ولكنها شعلة بيضاء لمن لم يألف مناظر الحداد.

مناظر الحداد على الحرية الغالية والسعادة الروحية الثمينة.

ثم يقول متحدثاً عن نفسه بضمير الغائب:

دعوه يتلمس لقلبه مكان راحته خوفاً عليه من الموت الشائن، الموت تحت حكم تلك الصوارم الصدئة المنتنة التي تسمونها عادات وقوانين، الموت من الاختناق كما تختنق عواطفكم المحبوسة بين أحناء أضالعكم بحكم الخسف وضعف الإرادة.

وهكذا نرى أن الغاية هي الغاية وإن اختلف أسلوب البيان والتعبير. (١)

أما الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النشار فيقول بعنوان «متى ننهض»:

أمتي:

ما نظرتك تعبثين والشعوب جادة إلا وأخذتني رجفة عظيمة لما أرى في المستقبل من ظلمة وعذاب.

---

(١) ص ٦٢/٦٤ أدب الحجاز طبعة ١٣٤٤ هـ.

كيف يرأب صدع أمة تفرقت أهواؤها فهي تقاسي غصص الآلام، ولا طبيب يسعفها بالدواء الناجح.

بني وطني:

قفوا أناقشكم الحساب تقولون:إنكم أجمعتم على النهوض.

أفي مدارسنا؟ أم في ثروتنا التي لا تبلغ مليون جنيه كلها كنوز تحت أديم الأرض، أم في حاصلاتنا التي لا أذكر منها غير الحشيش والبرسيم، أم في مصنوعاتنا ونحن عالة على الأجنبي حتى في الإبرة والأزرار؟

ثم يتحدث عن الحالة فيطالب بإصلاح التعليم ونشره كلما يطالب بإصلاح الزراعة وإيجاد الصناعة وإصلاح المجتمع ويختتم مقاله قائلاً:

فيا رجال الوطن، عليكم بتلافي ما أفسدته الأيام، إن الوقت لايزال يسمح بإصلاح الغلطات، فاصلحوها قبل أن يبلغ السيف العذل. (١)

ونختتم هذه المقتبسات بفقرات من مقال الشيخ محمد سرور الصبان «لا إصلاح مع الرياء» الذي يبدأه قائلاً:

أيها الرفاق:

نحن اليوم على مفترق الطرق فإما سعادة دائمة وإما شقاء واقع.

لقد تقلص ذلك الماضي على ما فيه من خير وشر وأصبحنا إزاء حالة جديدة وتطور عظيم إذا نحن لم نسر فيه على منهج قويم، وبقدم ثابتة لا نأمن العثار ونسقط في هاوية لا مخرج لنا منها.

ثم يقول:

نريد الإصلاح، الإصلاح في كل شيء، ولكن لا إصلاح مع الرياء، لقد تعود قادتنا من أبناء أبينا أموراً أصبحت فيهم بحكم العادة طبعاً خسيساً.

هذه الأمور هي الرياء في كل شيء، عدم الإخلاص في القول وفي العمل، الاغترار بالمظهر دون الجوهر، السير مع المصلحة الذاتية وتضحية المجموع في سبيلها، العمل على انفراد، التعصب للرأي الآفن، يضاف إلى ذلك ضعف في العزيمة، ونقص في الشجاعة الأدبية، وقصر في الحالة الفكرية، وغير ذلك.

ثم يواصل مقاله فيصف حال الحجاز والحجاز يين متسائلاً:

أين هم الحجازيون؟ هل في الحجاز علم أو تعليم؟ هل في الحجاز حكماء؟ هل في الحجاز

(١) ص ٧٠/٧٣ أدب الحجاز طبعة ١٣٤٤ هـ.

قادة؟ هل في الحجاز زعماء؟ هل في الحجاز صحافة؟ هل في الحجاز نواد أدبية؟ بل هل في الحجاز رابطة دينية أو وطنية؟ لا وحق الوطن التعس لا يوجد كل هذا اليوم.

ويختتم مقاله مطالباً بالإصلاح فيقول:

سيروا بنا نخرج العقول من مضايق الشخصيات.

سيروا بنا نقوي العزائم ونهيب بالهمم.

سيروا بنا نتسابق إلى الأعمال الشريفة.

وحينذاك نرتقي في مدارج الرفعة منتقلين من الصالح إلى الأصلح حتى نصل إلى درجة الكمال وذلك هو الإصلاح المنشود. (١)

وليعذرني القارىء في الإكثار من الاستشهاد، فإني حرصت على نقل صورة وافية للنصوص التي آذنت بميلاد الأدب الحديث في البلاد والتي كانت تعبيراً صادقاً عمّا يعتمل في نفوس الأدباء الذين كانوا هم اللسان المعبر عن أحاسيس الأمة ومشاعرها.

المعرض:

الكتاب الثاني الذي صاحب كتاب أدب الحجاز هو كتاب «المعرض» وفي مقدمته أوضح مؤلفه الشيخ محمد سرور الصبان — رحمه الله — الغرض من تأليف الكتاب. فقد كانت هناك أفكار يتداولها الكتاب يحاولون بها الخروج باللغة من الأساليب القديمة إلى أسلوب عصري جديد، لا يتقيد بالقوانين والقوالب التي درج عليها القدماء والتزموا بها. وقد استشهد المؤلف في مقدمة الكتاب بمقال كتبه ميخائيل نعيمة الأديب المهجري المعروف في كتابه «الغربال» وأورد قسماً كبيراً منه يحمل فيه على قوالب اللغة و يدعو إلى تطويرها وعدم الالتزام بقيودها التي تواترت إلينا منذ القدم بل و يدعو إلى تحطيم تلك القيود وتجاوزها.

وقد وجه المؤلف السؤال إلى الأدباء، يستطلع أفكارهم، و يطلب إليهم موافاته بآرائهم في هذا الصراع، وقد أجاب الأدباء جميعاً على السؤال بتأييدهم الالتزام باللغة الفصحى والحفاظ على جوهرها، الذي كان القرآن الكريم ولا يزال المرجع الأول والأهم فيه، وزاد بعضهم اقتراحاً بتأليف مجلس علمي من أساطين اللغة، لتسهيل طريقة تعليم اللغة، وتيسيرها، ووضع أسماء للمسميات الحديثة التي لم ترد لها أسماء في الماضي. وهذا هو ما تقوم بعبئه مجامع اللغة العربية كما

(١) ص ٨٤/٨٧ أدب الحجاز طبعة ١٣٤٤ هـ.

هو معلوم، ولقد أفاض بعض الكتاب في الإجابة وتطرق إلى ماضي اللغة وتطورها في العهود الجاهلية والإسلامية، ولكن جوهر الإجابة كان هو هو، الاحتفاظ بالفصحى سليمة، بقوانينها ومحاولة تطويرها بإدخال المسميات الجديدة إليها معربة على أيدي علماء اللغة وفقهائها، ولعل مما يجدر تسجيله أن الشاعر والأديب الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوي — رحمه الله — كان بين من سجلت إجاباتهم في كتاب المعرض بينما لم أجد له شيئاً من الشعر أو النثر في كتاب أدب الحجاز مع تمكنه من الفنين، وإذا كان لنا أن نستخلص من كتاب المعرض شيئاً فإننا نستطيع أن نقول: إن هؤلاء الأدباء رغم أنهم كانوا ثائرين على التأخر والتخلف، إلا أنهم كانوا متمسكين بمقومات اللغة العربية، ولم يندفعوا في التقليد الأعمى الذي انطلق دعاته يصرخون داعين إلى تحطيم ما زعموه قيوداً في سبيل التعبير وإنما تمسكوا بالأصل الأصيل الذي هو قوام التعبير.

خواطر مصرحة:

الكتاب الثالث الذي صاحب الكتابين السابقين هو كتاب خواطر مصرحة للأستاذ محمد حسن عواد — رحمه الله — وقد صدر في أوائل عام ١٣٤٥ هـ وقام بنشره الشيخ محمد سرور الصبان — رحمه الله — وقد جاء في كلمة الناشر ما يلي:

لقد طلع الفجر فاستيقظنا، ونادانا الواجب فلبينا، وبدأنا نسمع صوتنا لمن أنكرنا، وصرنا نكتب ونشعر، نكتب لنعلم كيف نكتب، ونشعر كيف نشعر، وقدم لها الأستاذ عبد الوهاب آشي بمقدمة ضافية يشيد فيها بصراحة الكاتب وحريته الفكرية وفيها يقول: وإنّ هذه الثورة الفكرية أو الأدبية عندي أنجح سعي وأسرع نتيجة لأولئك الذين يريدون أن يحيوا رمام النفوس ويحركوا جوامد الأفكار. ثم يقول بعد أن عدد الأسباب التي تدعوا الكتاب إلى استعمال الأساليب العنيفة في إيقاظ الأمة:

لهذه كلها نرى الشباب الحجازي المتأدب إذا كتب للأمة، فإنما يكتب بأقلام من حديد، ومداد من الغاز الخانق على صحائف من نار.

وبعد أن يسترسل في وصف الشباب من المتأدبين والمتعلمين يبدي إعجابه بمؤلف الخواطر مثنياً على جرأته الأدبية فيقول:

فلئن عددناه في طليعة أدبائنا فما ذلك ببدع في حقه إلى آخر ما أورده مقدم الكتاب من ثناء وإعجاب.

فإذا تركنا المقدمات وقلبنا صفحات الكتاب، وجدنا المقالة الأولى بعنوان «مداعبة مع العلماء»، وهذا المقال على قصره، فيه من التعابير الثائرة والاجتراء ما فيه. وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه كما يقولون، فإن بقية ما تضمه الصفحات التي تزيد عن المائة قليلاً هو من هذا النمط الذي يدل على الرغبة في التغيير... نقمة على الواقع، وتطلع إلى المستقبل، ولكن بأسلوب بالغ العنف وخصوصاً في ذلك الزمن. ولقد جرَّ الكتاب على مؤلفه الكثير من العنت، فترك عمله كمدرس ممتاز في مدرسة الفلاح إلى وظيفة مدرس في المدرسة الابتدائية الرسمية. وكانت الفلاح أهم مدرسة في المدينة في ذلك الزمن، وقدمت فيه شكوى إلى جلالة الملك عبد العزيز فألفت لجنة رسمية للتحقيق معه وانتقل إلى مكة المكرمة لهذا الغرض ثم انتهى به الأمر إلى العمل في مكة المكرمة.

ونستطيع أن نقول: إن كتاب خواطر مصرحة قد أثار من الضجيج حين ظهوره ما نبه الأذهان إلى وجود حركة فكرية جديدة في البلاد. ولعل العنف الذي اتسم به أسلوب المؤلف وما جره عليه من جرائر كان سبباً من الأسباب التي فتحت العيون على هذه الحركة الفكرية، ليس في داخل البلاد فحسب وإنما في خارجها. فقد استشهد به الدكتور طه حسين في مقال نشر بمجلة الهلال عن ماضي الأدب والفكر في الجزيرة العربية وحاضرهما. والكتاب قد أدى في وقته الغاية التي قصدها المؤلف منه بالرغم من أنه دفع ثمن هذه الغاية غالياً من راحة نفسه ومورد رزقه، لهذا فإن كتاب «خواطر مصرحة» بالإضافة إلى كتاب أدب الحجاز كانا هما البشارة بميلاد الأدب الحديث في البلاد خلال الأربعينات.

صحيفة صوت الحجاز:

وقد تلا ظهور هذين الكتابين اللذين كانا بشيرين بميلاد الأدب الحديث في الحجاز ظهور صحيفة صوت الحجاز الأسبوعية في مكة المكرمة، التي صدر العدد الأول منها في ٢٧ من ذي القعدة عام ١٣٥٠ هـ، والتي كانت مجالاً للكتاب والشعراء منذ ظهورها حافلة بالإنتاج الأدبي الجيد للكتاب والشعراء الذين ضمهم أدب الحجاز. وبالجيل الثاني من الأدباء والشعراء الذين كانوا يتطلون إلى نشر آثارهم بها. ولم يقتصر النشر على أدباء مكة وجدة، كما هو الحال بالنسبة لكتاب أدب الحجاز، بل شارك فيه أدباء المدينة المنورة، بل وبعض الأدباء من نجد ومن أنحاء المملكة الأخرى. فنما الأدب واشتد عوده وظهرت الآثار الأدبية والفكرية في صور شتى، تناولت

الشعر والأدب والنقد والفن والقصة القصيرة، بل وتناولت صوراً شتى من الشعر بفنونه المختلفة، بما في ذلك الشعر الرمزي الذي كان مسرحاً للمنافسة بين شاعرين كبيرين من أكبر شعراء الحجاز في ذلك الزمان.

جريدة المدينة المنورة:

في بداية محرم ١٣٥٦ هـ صدرت جريدة المدينة المنورة لصاحبيها السادة علي وعثمان حافظ بالمدينة المنورة. فكانت مسرحاً للنشاط الأدبي بالمدينة المنورة وبرز فيها كتّاب وشعراء كثيرون من أبناء المدينة المنورة والمجاورين لها من طلبة العلم. فأسهمت في نشر الآثار الأدبية والشعرية إسهاماً طيباً في دار الهجرة، وبحكم الصلات الأدبية بين الأدباء، فلم يكن النشر فيها مقصوراً على أدباء المدينة المنورة وشعرائها، كما لم يكن النشر مقصوراً في صوت الحجاز على أدباء مكة المكرمة وجدة، وإنما كانت صفحات الصحيفتين مفتوحة للجميع.

المنهل:

في المدينة المنورة كذلك، وقبل صدور جريدة المدينة المنورة بشهر واحد، ظهر العدد الأول من مجلة المنهل الشهرية، التي أصدرها ولايزال يقوم على إصدارها الأستاذ العلامة عبد القدوس الأنصاري، في شهر ذي الحجة من عام ١٣٥٥ هـ. وهي أول مجلة شهرية تصدر في الحجاز، بل وفي المملكة ككل. وهي مجلة خاصة بالعلوم والآداب، وقد كانت مسرحاً للنشاط الفكري، إذ ساهم في الكتابة فيها كثير من أدباء البلاد وشعرائها ومفكريها. وكانت بوصفها مجلة شهرية متخصصة، تقصر أبحاثها على العلم والأدب، إلا أن صاحبها تعود أن يكتب فصلاً شهرياً عن التطورات والحوادث التي تمر بالبلاد وبأسلوب موجز جامع. وقد أسهمت مجلة المنهل بنصيبها في نشر الأبحاث العلمية والأدبية، ثم تطورت إلى المستوى الجيد الذي أصبحت عليه في الوقت الحاضر.

جريدة أم القرى :

صدرت جريدة أم القرى في مكة المكرمة في أوائل العهد السعودي، وهي الجريدة الرسمية التي حلت محل جريدة القبلة، التي كانت لسان الحكومة الهاشمية. وكانت هذه الجريدة مقتصرة على الشؤون الرسمية للدولة، ولكن كانت هناك فترات تخرج فيها عمّا عهده الناس من هذه الشؤون فتساهم في حركة الأدب والفكر. ومن أبرز هذه الفترات الفترة التي عمل فيها الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود — أحد مؤلفي كتاب وحي الصحراء — في جريدة أم القرى. ففاجأ الناس فيها بما يكتبه من آراء أدبية بأسلوب جريء، وكان يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو «الغربال». وقد استرعى هذا الأسلوب اهتمام القارئين، فكانت أم القرى مسرحاً للنشاط الأدبي لفترة من الزمان، جديرة بأن تذكر عند الحديث عن ماضي الأدب والثقافة في هذه البلاد.

الصحافة ودورها

ولعل من الضروري هنا أن نوضح، أن صحافة الفترة التي نتحدث عنها، والتي تتمثل في جريدتي صوت الحجاز والمدينة المنورة، ومجلة **المنهل**، و بعض الفترات في صحيفة أم القرى، لم تكن صحافة الخبر والصورة — كما هو معروف عن الصحافة اليوم — فالصورة كانت نادرة إن لم تكن معدومة، والأخبار الداخلية والخارجية لم تكن تحظى إلا بحيز ضئيل من الصحيفة، بينما تخصص معظم صفحاتها بما في ذلك الافتتاحيات، للأبحاث الاجتماعية والأدبية. فهي إذاً، صحافة أدب وفكر، أكثر منها صحافة خبر وصورة. وكانت جميع الصحف تصدر أسبوعية، وفي صفحات قليلة. فكانت مقروءة من الجميع. وكان الناس يتحدثون عن كل ما يكتب، مؤيدين أو ناقدين، فكانت هذه المشاركة الجماعية، تفعل فعلها الطيب في حماسة القراء والكاتبين على السواء.

كتاب وحي الصحراء :

وفي أوائل الستينات أصدر الأستاذان محمد سعيد عبد المقصود – رحمه الله – والأستاذ عبد الله بلخير – أمد الله في عمره – كتاب وحي الصحراء.[1] وهو مجموعة من الآثار الشعرية والنثرية لأدباء البلاد وشعرائها، وهو يضم مقالات وقصائد لمجموعة كبيرة من الأدباء والشعراء، ممن ظهرت آثارهم بعد صدور كتاب أدب الحجاز خلال الفترة من أوائل الخمسينات إلى حين صدوره في أوائل الستينات. وهو محاولة للتعريف بالحركة الفكرية في البلاد خلال هذه الفترة، وخاصة بعد صدور الصحف التي تحدثنا عنها، وظهور أقلام كثيرة جديدة. ولعل السبب أو أحد الأسباب التي تكمن وراء إصدار هذا الكتاب، هو عدم ظهور مؤلفات لهؤلاء الكتاب أو دواوين لأولئك الشعراء، وتساؤل الهيئات الأدبية والعلمية في العالم العربي عن أدب بلادنا وأدبائها، فكان أن اتجه المؤلفان إلى تأليف هذا الكتاب، واستكتبا له الكثيرين من الشعراء والأدباء فكان هذا الكتاب، كما ذكرنا، محاولة للتعبير عن الصورة الأدبية والشعرية للبلاد في تلك الفترة. ولعل كل ما نشر فيه إنما اختاره أصحابه مما كان ينشر لهم في صوت الحجاز والمدينة المنورة والمنهل. فهو إذاً صورة مصغرة للحالة الأدبية في ذلك الزمان، اشترك فيها أكثر من جيل من الشعراء والكاتبين، وهذا الكتاب على ضخامة حجمه بالنسبة لأدب الحجاز وكثرة الأسماء التي شاركت فيه لم يكن له من التأثير ما كان لسابقه أدب الحجاز، لسبب بسيط هو أن أدب الحجاز ظهر على الناس دون مقدمات، فكانت فرحة الفجاءة به أبلغ وأعظم، لهذا التفت له الناس وانتبهوا كما ينتبه النائم من سباته، أما وحي الصحراء، فإن ما فيه لم يخرج عمّا ألفوا قراءته في الصحف التي بين أيديهم، وبخاصة في صوت الحجاز، فهو لم يكن إلا باقة جمعت من حديقة يعرفونها وقد تنسموا شذاها من قبل، ولعل أثر كتاب وحي الصحراء يكون أعظم في الزمن الذي تلا صدوره، فإذا أراد مؤرخ للأدب أن يتحدث عنه في الفترة التي سبقت هذا الكتاب، يجد في وحي الصحراء صورة تعبر عن الحالة الفكرية للأدب والأدباء في ذلك الزمان، ولعله في حينه يعطي الصورة ذاتها للمطلعين عليه من خارج البلاد، والذين لا يقرأون صحفها وجرائدها.

---

(١) طبع طبعة ثانية ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي من إصدارات إدارة النشر بتهامة

المصادر الأدبية :

لإكمال الحديث عن هذه الفترة لابد وأن نتحدث عن المصادر التي كان يستقي منها الأدباء والشعراء أفكارهم. ونستطيع أن نقول: إن القراءة، والقراءة الطويلة المتأنية الجادة، كانت هي زاد هؤلاء الأدباء والشعراء في مسيرتهم، وكانت هذه القراءة تتمثل في الصحافة المصرية على اختلاف أنواعها، كما تتمثل في المؤلفات الأدبية للأدباء والعلماء العرب لا في مصر وحدها، وإنما في دنيا العرب كافة.

أما بالنسبة للصحافة فكانت الصحف المصرية خلال هذه الفترة هي أعلى الصحف العربية صوتاً، وأكثرها تنوعاً، وأحفلها بالروائع من ثمرات العقول والأفكار، كان هناك خط بحري بين السويس وجدة، يحمل البريد أسبوعياً بين البلدين. وكان الكثيرون يشتركون في الصحف المختلفة فتصل بأسمائهم. كما كان لهذه الصحف وكلاء في كل من جدة ومكة المكرمة والمدينة. وكان لديهم مشتركون مسجلون ترسل إليهم حين وصولها كما تعرض للبيع في المكتبات والحوانيت.

وكانت أقدم مكتبة في جدة هي المكتبة الحضرمية لصاحبها الشيخ أحمد عمر باخريبة. وهو حضرمي الأصل، قدم من السودان لاشتراكه في التحريض على الحكم الانجليزي هناك، وحل نزيلاً بدار الشيخ محمد بن حمد التاجر المعروف في ذلك الزمان، ووالد الشيخ أحمد بن حمد الذي ورث العمل التجاري عن والده كذلك، وافتتح الشيخ باخريبة مكتبة كبيرة في سوق الندا، في جدة، وكانت تضم كثيراً من الكتب العصرية، إلى جانب الكتب القديمة. وقد اشتريت من هذه المكتبة بعض مؤلفات الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد. وكان الشيخ باخريبة مراسلاً كذلك لمجلة الفتح، التي كان يصدرها الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب. ثم افتتح صديقنا الأستاذ محمد حسين أصفهاني مكتبة في السوق الكبير بجدة، وكان يستورد الصحف التي تصدر عن دار الهلال ثم عن دار أخبار اليوم فيما بعد، وكان أكبر مستورد للكتب الأدبية الحديثة في مكة المكرمة هو الشيخ أحمد حلواني. وكانت له مكتبة في باب السلام حافلة بكل جديد مما تصدره المطابع في مصر من مؤلفات للأدباء البارزين، أمثال طه حسين والعقاد والمازني وسلامة موسى وغيرهم. كما كان الأستاذ هاشم علي نحاس يتولى توكيل صحف دار الهلال في مكة المكرمة. وكان يتقبل اشتراكات المشتركين في هذه الصحف إضافة إلى المجلات التي يستوردها في كل أسبوع، وكانت الصحافة المصرية في ذلك الزمان منبراً حراً

لحملة الأقلام وأساتذة البيان. ونستطيع أن نقسم الصحافة إلى صحافة سياسية وصحافة أدبية وعلمية وصحافة مصورة تعنى بالصورة والفن بصورة عامة.

الصحافة السياسية:

أما الصحافة السياسية فكانت تتمثل في الصحف الكبرى التي تمثل آراء الأحزاب السياسية المختلفة في البلاد. فقد كان هناك حزبان رئيسيان، هما: حزب الوفد، وكانت الصحف التي تمثله هما كوكب الشرق، والجهاد، وحزب الأحرار الدستوريين، وكانت تمثله جريدة السياسة التي كان يتولى تحريرها أحمد لطفي السيد ثم محمد حسين هيكل الكاتب والأديب المعروف، أما جريدة الجهاد، فكان صاحبها هو الأستاذ توفيق دياب، وهو خطيب مفوه وكاتب كبير. وكان العقاد كاتب الوفد الكبير يكتب فيها. أما السياسة فمن كتّابها طه حسين، ثم إبراهيم عبد القادر المازني الذي تولى رئاسة تحريرها فيما بعد. وكانت لغة الكتابة لغة عالية، لأن الطبقة التي كانت تفسح لها الصحف صفحاتها، كانت متمكنة في فنها. وكان إلى جانب هذه الصحف السياسية صحف أخرى تدور في فلكها، أو تمثل وجهة نظر مخالفة فيها. وكان أكبر صحيفتين يوميتين هما: الاهرام والمقطم، وقد بدأت أولاهما مشايعة للقصر تمثل رأي الملك، والأخرى مشايعة للإنجليز الذين كانوا يبسطون نفوذهم على مصر. ثم تحولت الأهرام إلى الاستقلال ففتحت صدرها للجميع، وكان يرأس تحريرها الأديب المعروف أنطون الجميل ومن قبله داود بركات.

وكانت الصحف تنشر محاضر الجلسات البرلمانية، والخطب التي تلقى فيها والمناقشات التي تدور بين الأحزاب المعارضة وبين الحكومة، كما تنشر المرافعات للقضايا السياسية الهامة. وكان الناس يقرأون كل هذا الذي ينشر ويتابعون الحياة السياسية المصرية، وكأنهم يعيشون في مصر، بل وكان الكثيرون يتشيعون لهذه الأحزاب ويتعصبون لبعض الزعماء ضد البعض الآخر. وإني لأذكر أنه حينما حصل الانشقاق في حزب الوفد وخرج منه أحمد ماهر والنقراشي وإبراهيم عبد الهادي انتقلت المعارك القلمية إلى جريدة صوت الحجاز بين المشايعين للوفديين والسعديين، مما حدا بالمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان أن يكتب كلمة قصيرة يذكّر بها الكتّاب أن موقفنا بين الحزبين هو موقف حيادي محض، وبهذا أغلق باب الكتابة في الموضوع.

والذي أود أن أذكره هو أن الصحافة السياسية كان لها تأثير في قرائها، لأن كتابها كانوا من ذوي الأقلام المتمكنة، وممن يحرصون على سلامة ما يكتبون، وكانت الصحف إلى جانب هذا وذاك، تعنى بشؤون الفكر والأدب، وكان كتابها ورؤساء تحريرها من أكابر الأدباء والعلماء، وكان بعضها يصدر ملاحق أسبوعية خاصة بشؤون الفكر والأدب، حافلة بكل جديد ومفيد. ولم تكن تغفل الأدب القديم وإنما كانت تعنى به، وإني لأذكر أن جعفر والي باشا، وكان من كبار حزب الأحرار الدستوريين، يختار في كل أسبوع قصيدة من عيون الشعر القديم تنشر في ملحق السياسة، كما كانت المعارك القلمية بين الأدباء تسيل بها أعمدة هذه الصحف. وكل هذا الذي ينشر كان يقدم للقراء مزيجاً من الثقافة يجمع بين الفكر والسياسة، وبين العلم والفن. وكان الأهم من هذا وذاك أن الناس كان لديهم من الوقت ما ينفقونه في هذه القراءة المفيدة، فلم يكن الراديو قد وصل إلى البلاد بعد، ولم يكن هناك ما يشغل الناس به أوقات فراغهم سوى القراءة وبعض ألعاب التسلية والسمر، وكان القارئون يتناقشون حين يتلاقون في الأصائل والأماسي فيما يقرأون، ويتبادلون الصحف والكتب التي يقرأونها وخاصة بالنسبة للأدباء الذين كانت مجالسهم شبيهة بالأندية الأدبية خاصة وأن حياة الناس جميعاً تفيض بكثير من الوقت بعدما يؤدون من أعمال.

المجلات العلمية والأدبية :

كان أهم المجلات العلمية مجلة المقتطف وهي مجلة شهرية تصدر عن دار المقطم. وكان يحررها يعقوب صروف، ثم تولى تحريرها العالم الأديب فؤاد صروف. ورغماً عن أن المقتطف كان يعنى بشؤون العلم وتقريبه إلى الأذهان، إلا أنه كان يوسع صدره للأديب والأدباء. وكان يكتب فيه أمثال مصطفى صادق الرافعي —رحمه الله— وقد دارت بينه وبين العقاد معركة أدبية صغيرة بعد أن كتب عن شوقي —رحم الله الجميع— وكان الأديب المعروف الأستاذ محمود محمد شاكر أحد كتاب المقتطف، كما كان للأستاذ فؤاد صروف نفسه مباحث تجمع بين العلم والأدب في أسلوب يدل على القدرة والإبداع. ونستطيع أن نقول: إن المقتطف وأمثاله من المجلات الجيدة والشهرية كان مفتوحاً للأقلام الكبيرة. وإلى جانب المقتطف كانت مجلة الهلال الشهرية. كما كانت دار المعارف تصدر مجلة الكتاب وسلسلة اقرأ الشهرية. وفي وقت من

الأوقات صدرت مجلة أدبية اسمها الكاتب المصري تولى رئاستها الدكتور طه حسين. وكانت هناك كذلك مجلة المعرفة وكلها مجلات تعنى بالأدب والفكر وتكاد أن تخلص لهذه الشؤون.

وبعد ذلك أصدر أديب العربية الكبير الأستاذ محمد حسن الزيات مجلة الرسالة الأسبوعية وأتبعها بمجلة القصة، كما أصدر جماعة من كبار الأدباء منهم الأستاذ أحمد أمين وطه حسين والدكتور عوض محمد وغيرهم، مجلة الثقافة، وكانت تعنى بترجمة عيون الأدب العربي ونشره إلى جانب ما تفيض به أقلام هؤلاء الأساتذة الكبار من روائع الفكر والآداب.

وبعد هذا، أصدر المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي،مجلة أبولو، وهي مجلة شهرية خاصة بالشعر، وعلى صفحاتها ظهر الشعراء طه المهندس وإبراهيم ناجي وكامل الصيرفي، وكانت هذه المجلات الشهرية والأسبوعية منها إلى جانب ما تقذفه المطابع من مؤلفات الأدباء والمفكرين، مدارس للثقافة والعلم. وكان الأدباء بخاصة يحرصون على قراءتها، و يتناقشون فيما يقرأون. وقد أفادهم هذا الذي يقرأون إفادة عظيمة، فعرفوا الأساليب الأدبية المختلفة، والآراء الأدبية المتصارعة، وكانوا يفكرون فيما يقرأون ثم تنطلق أقلامهم بتأثير هذه القراءة المفيدة لتؤتي أكلها أدباً وشعراً وفكراً.

هذه هي المصادر الأدبية التي استقى منها أدباء هذه الفترة في الحجاز، والتي يمكن تحديدها من منتصف الأربعينات إلى أوائل الستينات أو منتصفها، حيث حل الراديو محل القراءة وانصرف الناس الى تتبع برامجه ومصاحبة الإذاعة المصرية حتى ختامها. فصرف الكثيرين عن القراءة والثقافة وخاصة بعد أن استعرت الحرب العالمية الثانية، وانتشرت أجهزة الراديو في كل بيت وأخذ الناس يلتقطون الأخبار، وكثرت الإذاعات العربية التي تمثل وجهات نظر الدول المتصارعة في الحرب، ثم ما لبث الراديو أن وصل إلى بلادنا وافتتحت الإذاعة السعودية بثها من مكة المكرمة بعد الحرب العالمية الثانية. وهذه الفترة وما تلاها لاتدخل ضمن حديثنا لأنها فترة تالية لما قصرنا الحديث عليه في هذه الملامح.

أدب المهجر:

إلى جانب المصادر التي ذكرناها قبل، كان هناك مصدر آخر للتأثير في أدب تلك الفترة، هو الأدب المهجري، الذي كان يصدر عن الرابطة القلمية في نيويورك، والتي كانت تضم في ذلك الزمان أبرز أدباء المهجر أمثال: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة وإيليا أبوماضي وغيرهم من

أدباء سوريا ولبنان، الذين هاجروا إلى أمريكا واستقروا بها، ثم ما لبثوا أن مارسوا نشاطهم الأدبي بإصدار مجلة الرابطة القلمية، وكذلك بنشر مؤلفاتهم المختلفة من شعر ونثر، ولقد كان الأسلوب الجديد الذي طلع به هؤلاء المهجريون يستهوي القلوب بصوره وأخيليته الغريبة، عمّا تحفل به الصور التي يحفل بها الأدب في ديار العروبة، ذلك أن هؤلاء الأدباء المهاجرين عاشوا حياة جديدة تختلف كثيراً عن الحياة في أوطانهم، واطلعوا على أساليب جديدة في الفكر باطلاعهم على الآداب الأجنبية التي يعيشون في ديارها. فكان لكل هذا التفاعل أثره في اختلاف الصور والأفكار، وتنوع الأخيلة والأساليب، ومن هنا جاء هذا النثر الفني الذي كان يمثله جبران خليل جبران، والذي كان أشبه ما يكون بالشعر في أخيلته وتعابيره. ولكنه لم يكن مصبوباً في القوالب الشعرية المعتادة، فكان لهذه الأساليب التي اتخذها أدباء المهجر تأثيرها في بعض أدباء الحجاز. ونذكر منهم على سبيل المثال الأستاذ محمد بياري والأستاذ محمد عمر عرب والأستاذ محمد حسن عواد، وعن هذا الأخير كتب الأستاذ محب الدين الخطيب —رحمه الله— وهو يتحدث عن موجة التجديد في الأدب العربي يقول ما معناه: وقد وصلت الموجة إلى الحجاز ولكنها كانت قادمة من الشارع الخامس في نيويورك... ولعل المطلع على كتاب «خواطر مصرحة» للأستاذ محمد حسن عواد يتبين هذه الإشارة من كاتب العربية محب الدين الخطيب في ذلك الزمان. هذه هي المصادر التي أثرت في أدب تلك الفترة وفي ثقافة الأدباء والشعراء في تلك الأيام..

القصص الشعبي :

لإكمال الصورة عن مصادر الأدب والثقافة لابد وأن نرجع إلى عهود سابقة لهذا الذي ذكرناه، قد لاتكون ذات تأثير مباشر في أفكار وثقافة أدباء البلاد في ذلك العهد، ولكنها قد تكون هي البذور الأولى التي حببت إليهم القراءة فيا بعد، فأقبلوا عليها في نهم وشوق. فلقد كانت هناك قراءة ليلية في البيوت لهذا القصص الشعبي الذي لعله ظهر في العهود الفاطمية أو المملوكية، كتب وقصص لا يُعرف مؤلفوها، وهي لا تتحرى الدقة التاريخية، وإن كان لها نصيب من التاريخ، ولم يكن كتابها من المتمكنين في الأداء، فكانت مؤلفاتهم تحفل بكثير من الأخطاء اللغوية والنحوية. ولكن هذا القصص كان لايخلو من عنصر التشويق والإثارة في بعض الأحيان، وكان بعض هذا القصص فيه من الفحش ما يدخله في باب الأدب الماجن،

ولكن هذا الفحش لم يكن غرضاً من أغراض الكاتب بقدر ما كان عنصراً من عناصر لاتكتمل القصة إلا بها في نظر هذا المؤلف المجهول، كان هذا القصص الشعبي ينتشر في البيوت وفي المقاهي على السواء. أما في البيوت فإن نساء العائلة كن يتحلقن كل مساء وبعد صلاة المغرب حول غلام من أفراد العائلة يحسن القراءة فيقرأ لهم فصلاً من قصة هذا القصص، وأذكر وأنا طفل دون العاشرة أنني كنت أستأجر هذه الكتب من رجل اسمه «العم محرم» كان صاحب دكان صغير لبيع الحلوى والسكر والشاي، وتأجير الكتب، كما كان يبيع بعض الأنواع التي يحبها الأطفال، كالحمص بأنواعه، واللوز والفصفص، وما إلى ذلك، وكان إلى جانب هذا يقوم بوظيفة المسحراتي في ليالي رمضان كما سبق الحديث عنها، وكان مع كل هذا يؤجر كتب القصص الشعبي لطالبيها وكان هو الذي يختار الكتاب الذي يعطيه لطالبيه من الغلمان.

أقول: إنني كنت وأنا طفل دون العاشرة، أستأجر هذه الكتب من العم محرم وكان أفراد العائلة من النساء والأطفال، بل وبعض الرجال، يتحلقون حولي وأنا أقرأ كل يوم فصلاً أو فصلين من قصص عجيب وغريب، أو قصة سيف بن ذي يزن، أو قصة أبوزيد الهلالي، أو قصة ألف ليلة وليلة، فإذا ما أذَّن العشاء انفض المجلس لأداء الصلاة وأوى كل إلى فراشه للنوم. وكان هذا الذي يحدث في بيتنا يحدث في كثير من البيوت، كما كانت قصص فروسية عنتر وعبلة وسيف ابن ذي يزن وأبوزيد الهلالي تقرأ في المقاهي كل ليلة بعد العشاء. ويتحلق حولها السامعون من الطبقة الشعبية التي تستهويها هذه البطولات والتي يتحمس الناس فيها للفرقاء المتحاربين، كما يتحمسون في الوقت الحاضر للفرق الرياضية التي يمارس أفرادها كرة القدم، وهي عادة الناس في كل زمان ومكان.

وأستطيع أن أستشف بعد مضي هذه العقود الطويلة من السنين أن هذه الكتب الشعبية كان لها تأثير مباشر بين قرائها وسامعيها. فالرسائل التي كانت تكتب، كانت تفتتح بأبيات من هذا الشعر الذي تحفل به هذه القصص. وكان يستشهد بهذا الشعر في أمثال المناسبات الواردة في هذا القصص كما يستشهد بالأمثال الواردة فيه وهو أمر يدل على ما للقراءة من تأثير في الأفكار والتعبير.



الأغاني الشعبية :

لإكمال الحديث عن الأدب والثقافة في ذلك الزمان لا بد وأن نقول: كلمة عن هذه الأغاني الشعبية، التي كانت تنطلق على الألسنة، والتي كان يهتف بها المغنون أو يرددها الأطفال في الأزقة والحواري. هذه الأغاني التي لا يعرف مؤلفوها بل ولا ملحنوها، ولكنها تنطلق وتشيع كما يشيع الهواء يستنشقه الناس، ولكنهم لا يعرفون مصدره. وكانت هذه الأغاني كثيرة وبعضها كان مؤذياً لأنه كان يتحدث عن إنسان معين يسمى باسمه أو لقبه، وتلصق به التهم السيئة، وبعضها كان سليماً من هذا الفحش ولكنه يتمتع بنصيب من الفن والعاطفة، وكان أكثر هذه الأغاني وخاصة هذا النوع المؤذي لا يعيش طويلاً، لأنه سرعان ما يتنبه له الناس فيخشى من يهتف به مغبة الاستمرار. وإني لأذكر أن أغنية فاحشة انطلقت ضد غلام من جيراننا كانت مليئة بالأذى، وكان الصبية يتعمدون الجهر بها أمام داره مما اضطره إلى الشكوى لمنعها. وكان هذا كيداً عظيماً من المؤلف المجهول، هذه الأغاني بالرغم مما ذكرناه عن بعضها كان البعض منها يتصل بالفن بأسباب كثيرة. ففيها الخيال، وفيها الصورة، وفيها العاطفة، وإن كانت لا تتقيد بقيود اللغة والنحو أو تلتزم ببحور الشعر المقفّى الموزون التزاماً دقيقاً في كل الأحيان.

وقد لاحظت بسرور أن بعض هذه الأغاني قد أعيد تلحينه وغناؤه على يد فنانين مهرة أمثال محمد عبده وطارق عبد الحكيم. فأغنية محمد عبده:

يا مركب الهند يا بودقلين   يا ريتني كنت ربانه

هذه الأغنية قديمة قد تعود إلى نحو ستين عاماً. فقد كنت أسمع الناس يتغنون بها وأنا في نحو العاشرة من عمري، وأغنية الخيزرانة التي يغنيها طارق عبد الحكيم وغيره من المغنين المجيدين هي كذلك أغنية قديمة قد لا يقل عمرها عن نصف قرن، وأمثال هذه الأغاني كثير. ولعل المغني المبدع الشيخ محمد علي سندي هو زعيم المحافظين على هذا التراث الغنائي الذي جدد به عهد زعيمي الغناء في الحجاز حسن جاوة، وإسماعيل كردوس، والذي يضم بين ما يضمه كثيراً من هذا التراث الذي لا يعرف مؤلفوه أو ملحنوه، ولكنه تواتر إلينا بالمحافظة عليه جيلاً بعد جيل. ومن المناسب ونحن نتحدث عن الأدب والثقافة أن نذكر أن نصوص هذه الأغاني المجهول مؤلفوها يمكن اعتبارها أدباً شعبياً، لأنه نابع من أفكار وعواطف لأفراد من صميم الشعب، وحبذا لو قامت لجنة الفنون والآداب أو غيرها من الجهات المعنية بهذه الأمور، بالبحث عن هذه الأغاني وإعادة تلحينها وإنشادها، باعتبارها تمثل فترة من التراث الفني الشعبي للبلاد.

الأمثال :

ومما يدخل في هذا الباب، الأمثال الشعبية، التي تنطلق على ألسنة الناس في المناسبات، والتي تعبر عن أفكارهم وتجاربهم. وقد سجلت على سبيل المثال ما وعته ذاكرتي من أمثال هذه الفترة التي نتحدث عنها. وبعض هذه الأمثال لايزال يعيش بيننا حتى اليوم. ويتمثل به الناس في كل حين. والبعض منها ليس ترديده مقصوراً علينا وإنما يردده الناس في البلاد العربية المجاورة، والبعض منها قد يكون تراثاً إنسانياً يردده الناس أو يرددون معانيه في كل زمان ومكان، والبعض منها قد تختلف فيه الألفاظ مع ما يردده الآخرون ولكنه يتفق في المعاني ويتّحد في الغايات.

وليس هذا الذي نورده من الأمثال هو كل الأمثال التي كانت تتردد على الألسنة في تلك الفترة. فلست أزعم الإحاطة بذلك، وليس من غرض هذا البحث الإحاطة، وإنما الغرض هو الإشارة وإعطاء القارىء صورة عن ذلك. وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، وعلى أي حال فإن الدعوة مفتوحة للسادة القارئين الذين يحفظون من الأمثال، ما لم يرد في هذه العجالة، أو ما يرون أن إضافته مفيدة، أن يوافونا به لتسجيله.

١ — جرادة كفلت عصفور، الإثنين طايرين.

٢ — عمية تخفف مجنونة.

٣ — جا يكحلها عماها.

٤ — الولد الشقي يجيب لأهله اللعنة.

٥ — سنة عاقل وسنة مجنون وسنة يجيب الماعون.

٦ — لا تقرصيني يا نحلة ولا أبغى لك عسل.

٧ — من جرب المجرب حلت به الندامة.

٨ — طيطي طيطي زي ما رحتي زي ما جيتي.

٩ — كلنا في الهوا سوا.

١٠ — يا داخل بين البصلة وقشرتها، ما ينوبك إلا صننتها.

١١ — ابعد عن الشر وغني له.

١٢ — إيش يجيب خايب الرجا لأمه.

١٣ — شهاب الدين أظرط من أخيه.

١٤ — علمناهم الشحاتة سبقونا على الأبواب.

١٥ — مين شايفك ياللي في الظلام تغمز.

١٦ — الظفر ما يخرج من اللحم.

١٧ — اللي يشوف القبة يحسبها مزار.

١٨ — اللي يتجوز أمنا هو عمنا.

١٩ — ما كل مدردم بدنجان.

٢٠ — متى طلعت القصر قال له: أمس العصر.

٢١ — بنت الحية حية.

وهذا شرح لبعض الأمثال التي قد يشكل فهم المراد منها على بعض القراء.

فالمثل الأول يطلق على الكفيل والمكفول إذا كانا غير معروفين أو موثوق بهما.

والمثل الثاني يطلق حينما يتعاون جاهلان على أمر لا يحسنانه، وهو يمثل لذلك بامرأة عمياء تصلح حواجب امرأة مجنونة والتحفيف هو إصلاح الحواجب وإزالة الشعر من الجبين.

والمثل الثالث يطلق على من أراد إصلاح أمر فزاده سوءاً.

أما المثل الخامس فهو وصف دقيق لمرحلة الطفولة: فالسنة الأولى يكون فيها الطفل هادئاً، لأن حركته تكون على الأرض، وفي العام الثاني حينما يستطيع الوقوف على قدميه والسعي في المنزل يكون كالمجنون الذي لا يبالي ما يفعل. أما في السنة الثالثة فينمو عقله، ويمكن الاستعانة به في بعض الأمور المنزلية.

أما المثل الثامن فيضرب لمن أكثر الحركة في سبيل أمر ثم عاد دون أن يحقق شيئاً.

أما المثل العاشر فيضرب لمن يدخل بين الأهل أو الأصدقاء إذا اختلفوا، مناصراً لأحد الطرفين، ثم لا يلبثون أن يتصالحوا و يعود هو بالنتائج الوخيمة.

أما المثل الثاني عشر يتساءل ماذا يمكن أن يحقق الولد الفاشل لأمه من خير.

والمثل الثالث عشر حينما يخلف الرجل السيء رجلاً أسوأ منه.

أما المثل الرابع عشر فيضرب لمن تعلمه شيئاً فيزاحمك عليه.

والمثل الخامس عشر يضرب للإنسان المغمور الذي يتطلع إلى الظهور بينما لا يتخذ لذلك الأسباب.

والمثل السادس عشر معناه أن الأهل مهما اختلفوا فمصيرهم إلى الوفاق.

والمثل السابع عشر يضرب لمن يخدعك مظهره، فإذا خبرته وجدته فارغاً.

والمثل الثامن عشر يطلق على خضوع الناس لرؤسائهم وحكامهم.

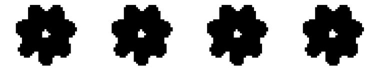
والمثل التاسع عشر يعني أن الأشياء وإن تشابهت في الظاهر فهي مختلفة في الواقع.

والمثل العشرون يقال للرجل حديث النعمة، حينما يتعالى على الناس لتذكيره بماضيه القريب.

والمثل الواحد والعشرون يعني أن الوليد يشبه أباه في طبعه وخلقه.

ولا يخفى أن الأمثال كثيرة، وهناك مؤلفات عديدة خاصة بها يستطيع الرجوع إليها من أراد الاستزادة منها.

وهذا الذي نكتبه إنما هو لمجرد إعطاء صورة عنها إكمالاً لبحثنا عن الأدب والثقافة في هذه الفترة من الزمان.



الفصل الخامس

الطبُ والأطبـــاء

كان الطب في الأربعينات وما قبلها يعتمد بصورة عامة على الوصفات البلدية، ويمارس في البيوت، من قبل الأمهات والجدات اللاتي توارثن هذه الوصفات عن أمهاتهن جيلاً بعد جيل، وكان هناك بعض الرجال أو السيدات الذين يلجأ إليهم الناس في المسائل الصحية، والتي لا يستطيع أحد ممارستها في داخل الأسرة.

العلاج بالكي لذات الجنبْ :

فعلى سبيل المثال كان هناك مختصون لعلاج ذات الجنب بالكي، وذات الجنب التي كان الناس يسمونها —الجنبة— هي الالتهاب الرئوي أو ذات الرئة. ولم تكن المضادات الحيوية قد عرفت في ذلك الوقت السحيق، مثل البنسلين ومشتقاته وما تلاها. فإذا أصيب إنسان بذات الرئة أسرع أهله في إحضار الرجل المختص بعلاج هذا المرض بالكي. وكان من أشهر من عرفت في جدة رجل حضرمي اسمه باهميم، كما كان في مكة رجل بدوي اسمه لافي وقد رأيت كلا الرجلين يعالج حالات من هذا النوع بنجاح، وطريقة العلاج أن يكشف الطبيب الذي يتولى العلاج على صدر المصاب وظهره ويتحسس المواضع التي يؤشر عليها بالفحم، بعد أن يسأل المريض عن مواضع الألم. فإذا تأكد من وجود المرض، وحدد مواضعه، أحضر له إناء به جمر متوهج، فيضع فيه الأداة الحديدية التي يحملها معه. وهي عبارة عن قطعة من الحديد الرفيع، فإذا توهجت هذه القطعة بفعل بقائها في النار، سارع الرجل فكوى بها المريض في مواضع الألم التي حددها. ويتم هذا الكي دون تخدير، وبعض المرضى يحتاج إلى سبع كميات، والبعض يحتاج إلى أكثر أو أقل بحسب الحالة التي يراها الرجل الذي يتولى هذه العملية، والذي نطلق عليه اصطلاحاً كلمة الطبيب لأنه كان بالفعل طبيب هذا النوع من الأمراض.

وقد شهدت بعض الحالات كان المرض فيها يبلغ مبلغ الخطورة، و يكون المريض قد جفاه النوم من شدة الآلام والسعال المتواصل، الذي قد يكون مصحوباً ببعض الدم المفرز مع البصاق. فإذا تم هذا الكي شعر المريض بالراحة، بعد إتمامه بفترة بسيطة. وكان الطبيب المعالج يحمي المريض لمدة أربعين يوماً، فيقتصر طعامه على اللحم المشوي على الحجر ظهراً و يسمونه المظبي، وعلى العسل مع الفطير في الصباح والمساء. وكان هذا الطبيب يتردد على المريض إلى أن تطيب الجروح التي أحدثها الكي في جسمه فيترك فراش المرض سليماً كأنما نشط من عقال.

النساء يعالجن النساء :

ولم يكن العلاج بالكي مقتصراً على الرجال فقط، فقد كان هناك بعض السيدات اللاتي يحذقن هذا النوع من العلاج، فيقمن بكي النساء المصابات بذات الجنب. ومن أشهرهن امرأة بدوية كانت تسكن بضاحية الرويس بجدة اسمها بنت عمرو، وكان هناك امرأة أخرى من عائلة طربية اسمها عائشة طربية كانت تقوم بتجبير الكسور للسيدات و يبدو أنها تعلمت ذلك عن والدها أو أحد أفراد أسرتها.

معالجة الكسور بالتجبير :

وكانت الكسور التي يتعرض لها الناس تعالج بالتجبير. و يقوم بها أطباء من البدو أو الحضارمة، أو من أهل البلاد الذين أخذوا هذا العلم عن رجال مارسوه قبلهم. فإذا وقع حادث كسر أو شرخ في العظام أحضر الرجل الذي يقوم بالعلاج و يسمونه —المجبر— فيفحص مكان الإصابة ثم يضع عليها جبيرة، وهذه الجبيرة غالباً ما تكون من ألواح خشبية رفيعة، ثم تلف بالقماش لفاً جيداً وكانوا يعتبرون مدة العلاج مرتبطة بعمر المصاب. فإذا كان المصاب في الأربعين من العمر احتاج شفاؤه إلى أربعين يوماً. وإذا كان أقل كانت المدة أقل أو أكثر حسب العمر، وفي نهاية المدة يجري فك الرباط وإزالة الجبيرة، وإذا كان العلاج بالكي في مرض ذات الجنب قد أثبت نجاحه تماماً، فإن العلاج للكسور لم يحظ بهذه الدرجة من النجاح في بعض الحالات وخاصة حالات الكسور الصعبة. وكذلك إذا تعرض المسنون للكسور فإنه لا يسهل

علاجهم بهذه الطريقة التي أشرنا إليها، وعلى أي حال فإن هذا هو أسلوب العلاج الذي كان سائداً في ذلك الزمان.

فصد العين:

ومن أخطر أنواع العلاج التي أدركتها في ذلك الزمان، معالجة العمى الذي ينتج عن ظهور الماء في إحدى العينين أو كلتيهما. وهو علاج قديم ظهر في بدء الدعوة الفاطمية قبل مئات القرون. وهذا العلاج يعتمد على فصد العين المصابة بالماء. وكان له بعض الأطباء المختصين من البدو، وهم قلة نادرة جداً. وكانوا يقومون بعملهم هذا سراً، بعيداً عن أعين الدولة، لخطورة العضو الذي يعالجونه وهو العين، فإذا وجد منهم من يقوم بهذا العمل فإنه يتولى الكشف على العين المصابة، ثم يقوم بفصد العين وإخراج الماء الذي يكون فيها، ثم يحجب المريض في غرفة مظلمة تماماً لمدة طويلة، قد تصل إلى أربعين يوماً. وكان الفصد يتم بآلة حديدية صغيرة تشبه المخيط الذي كان يستعمل لخياطة أكياس الخيش، وله طرف مدبب رفيع مسنون فتفصد العين بهذا المخيط ثم تلف العين تماماً، بحيث يحجب عنها الضوء. و يبقى المريض في غرفة مظلمة لمدة طويلة إلى أن تنقضي المدة التي يحددها الطبيب الذي قام بعملية الفصد. فإذا فك الرباط عن العين تظهر النتيجة، إما نجاحاً يستطيع به المريض أن يرى الناس والحياة التي كان محجوباً عنها وإما أنه يفقد بصره إلى الأبد. وعلى أي حال فإن من كانوا يقومون بهذا العمل قلة نادرة، وإذا قاموا به، قاموا به في السر والتكتم. ومن كانوا يقدمون من المرضى على مثل هذه المخاطرة قليلين أيضاً، وذلك لخشية الإنسان الطبيعية على عضو من أهم أعضائه وهو البصر.

معالجة الرمد:

وإلى جانب هذه العمليات الخطيرة للعين فهناك المعالجات البسيطة التي تتم في البيوت، للأمراض العادية للعيون، كاحمرار العين والالتهابات البسيطة، وكان الدواء هو التشمة، وهي مادة سوداء تشترى من العطارين الهنود، وترد من الهند، ومعروفة لكل الناس، فإذا أصيب الطفل باحمرار في العين، وضعت له أمه التشمة في عينيه حين النوم. وهي مادة سوداء تذر في العين وتحدث ألماً شديداً لأن الأطفال يبكون حينما توضع هذه التشمة في أعينهم. أما الكبار الذين

يضطرون إليها فيتجلدون مخفين آلامهم أن تظهر أمام الصغار، كما أن بعض الالتهابات كانت تعالج بدهن العين بمادة حمراء اسمها الحامورة. وأظنها مادة مبردة وتستعمل من الخارج فتصبغ الجفن وما حول العين بلون أحمر. وكثيراً ما وضعوا للطفل قطعة من القماش الملون فوق العين لتحميه حر الشمس. ولم تكن النظارات الشمسية قد عرفت في ذلك الوقت بعد. وكان الناس وخاصة النساء يستعملون الكحل، و يعتبرونه مفيداً للعين، و يصفونه بأنه يجلي البصر. وقد أدركت كبار العائلة رجالاً ونساء وهم يستعملونه كل ليلة قبل النوم بصورة عادية كما يستاك المرء كل صباح.

علاج الحمّى بالخاشكير:

أما من تصيبه الحمى فكانوا يعالجونه بالخاشكير، وهو نبات كذلك يرد من الهند يشبه السمسم، بني اللون. فكانوا يغلونه في الماء حتى يحمر لون الماء، ثم يأخذون الماء الصافي فيحقنون به المريض حقنة شرجية. وكانوا يسمون هذه الحقنة «الطرمبة». فإذا أفرغ المريض بعد هذه الحقنة ما في أمعائه هبطت حرارته. وقد يستعملون هذا الخاشكير شرباً كالشاي بعد إضافة السكر أو النبات إليه وكانوا يعتبرونه علاجاً ناجحاً لتخفيض حرارة المريض.

السنامكي وزيت الخروع:

وكان من المعتاد في كل بيت أخذ مادة السنامكي، كمادة مسهلة. وكانوا يصرون على استعماله مرة في كل شهر، وخاصة للأطفال، و يعتبرونه مطهراً للأمعاء، وكانوا يغلون السنامكي مع الماء ويحلونه بالسكر، و يسقى للأطفال في أكواب كبيرة. وكانت نتائجه سريعة مع أكثر الناس، وبطيئة مع القلة القليلة منهم، ثم ظهر زيت الخروع كمادة مسهلة فحلَّ محلَّ السنامكي وهو زيت كريه الرائحة وكان الأطفال يفضلون عليه السنامكي لأنه أشبه ما يكون بالشراب الحلو اللذيذ المذاق.

علاج الجروح بالأدافور :

أما الجروح البسيطة التي كانت تصيب الناس، وخاصة الأطفال، فكانت تعالج بمادة اسمها «أدافور». وهي مسحوق أصفر له رائحة نفاذة غير مستحبة، فيذر هذا الأدافور على الجرح. و يسبب بعض الحرقان حينما يلامس الجرح، ولعل طبيعة هذا الأدافور أنه مجفف ومطهر. وكان كذلك يباع لدى العطار ين في الأسواق.

المزين نصف طبيب :

وما دمنا نتحدث عن التطبيب والدواء، فلا بد أن نتحدث عن المز ين الذي كان يقوم بدور هام في حياة الناس، مما يجعله في درجة تصل إلى مساعد طبيب. فالمز ين هو الذي يقوم بعلاج الجروح المستعصية، والتي لا ينفع فيها العلاج البيتي، إذا صح هذا التعبير. ولديه سوى الأدافور الذي وصفناه، بعض المراهم التي يحتفظ بأسمائها سرًّا لديه. وهو الذي يستطيع عصر الجروح، وتنظيفها ووضع المراهم التي لديه عليها، و بعض المواد مثل صبغة اليود التي كانت قد وصلت حديثاً إلى البلاد كما أن المز ين هو الذي يتولى طهور الأولاد بعد ولادتهم. وكان هذا الطهور يتم بعد أن يكون الأطفال قد بلغوا الثالثة أو الرابعة من العمر، واشتد عودهم، فيحضر المز ين في الصباح إلى المنزل، و يكون والد الطفل وأعمامه قد استعدوا لاستقباله. وغالباً ما يتم الطهور لعدة أولاد في العائلة. فإذا نزل الطفل أطبق عليه المز ين، وأمسك به اثنان من الرجال، فإذا تمت العملية وارتفع صراخ الطفل من الألم بادرت والدته ونساء العائلة إلى استقباله من أول السلالم. وكانوا قد أحضروا له الألاعيب والهدايا والحلوى، ليتلهى بها عما حل به في ذلك اليوم العتيد. و يفد الأهل والأصدقاء وهم يحملون له الهدايا و يتحفونه بالنقود، بينما يتولى الرجال إكرام المز ين ومساعده، فيتناولون معه طعام الإفطار الذي يكون قد أعدَّ لهذه المناسبة، ثم يحضر المز ين كل صباح لتغيير الجرح. وكان هذا التغيير مؤلماً للطفل، لأن اللفافة نفسها تكون قد التصقت بالجرح، فإذا خرجت سبّبت للطفل آلاماً أخرى. ولم تكن هناك المطهرات التي عرفت فيما بعد، وإنما كانت المسألة كلها تتم بالصورة التي يعرفها المز ين والخبرة التي اكتسبها من تجار به

الطويلة في هذا الميدان، وبعض الأطفال يشفى خلال سبعة أيام، والقليل كان يطول معه أمد العلاج.

الداية طبيبة أمراض النساء والولادة:

كانت القابلة أو الداية كما كانوا يسمونها، هي التي تتولى عملية الولادة بالنسبة للنساء الحوامل، بل وكانت تتولى كذلك معالجة الأمراض النسائية. فهي طبيب أمراض النساء والولادة بالتعبير الحديث. وكانت الولادات تتم في البيوت كما لست في حاجة لأن أقول، وكانت أشهر داية في مدينة جدة امرأة اسمها حليمة الهندية، وهي هندية كما يدل اسمها عليها، وعلى أي حال فقد كان هناك دايات كثيرات، وكانت كل واحدة منهن مختصة ببعض العائلات، فإذا ظهرت آثار الحمل استدعيت الداية الخاصة بالعائلة لرؤية السيدة الحامل. ثم تأخذ في التردد عليها إلى أن يحين وقت الولادة، وكان يشارك الداية في عملها السيدات الكبيرات من نساء العائلة ممن سبقت لهن تجارب كثيرة. فإذا كانت الولادة ميسرة، تم كل شيء بصورة طبيعية. أما إذا بدأت الأمور لاسمح الله تتعسر، فحينذاك تتصرف الداية حسب علمها وتجاربها السابقة. ومما أذكره في هذا المجال أنه إذا كان الجنين منحرفاً، فتوضع المرأة فوق سجادة كبيرة، ويتولى النساء حمل هذه السجادة وتحريكها ذات اليمين وذات الشمال، ليعتدل الجنين وينزل بصورة طبيعية.

المعمّر بعد الولادة:

وكانوا يضعون المرأة النفساء على كرسي كبير له فتحة من أسفله، ويضعون تحت الكرسي إناء فيه نار متأججة، ويضعون فيه مواد للبخور، ويغطون الكرسي من جميع الجهات، بحيث يتسرب هذا البخور الحار المتصاعد إلى جسم المرأة، وإلى داخلها ويسمونه — المعمّر — ويتم هذا قبل إتمام النفساء لليوم السابع من الولادة.

الحمى النفاسية وأخطارها:

وكانت النفساء إذا أصيبت بالحمى النفاسية، فإن هذا يشكل حادثاً صحيًّا خطيراً، بالنسبة لها. وقد توفيت نساء كثيرات بسبب هذه الحمى النفاسية التي لم تكن معالجتها ميسورة للناس في ذلك الزمان.

ريح الكلا:

وكما كانت الحمى النفاسية تشكل مرضاً خطيراً للنساء اللاتي يصبن بها، فقد كان هناك مرض خطير آخر يتعرض له النساء والرجال على السواء، وكانوا يسمونه «ريح الكلا» وهو التهاب الزائدة الدودية، وما ينتج عنه من آلام شديدة. ولما لم يكن من المتيسر إجراء العمليات في المستشفيات الموجودة في البلاد في الثلاثينات والأربعينات، فقد كان المرضى الذين تسوء حالتهم يسفّرون إلى السودان أو إلى أسمرا والقليل إلى مصر. وغالباً أن المرض يكون قد وصل إلى حدود لا يجدي معها العلاج أو الجراحة، فيموتون، وتأتي الأخبار أن فلاناً توفي بريح الكلا فسبحان مغير الأحوال.

المستشفيات والأطباء

وللقارىء أن يتساءل بعد أن علم من أمر الطب والعلاج الذي كان سائداً في ذلك الزمان، له أن يتساءل عن المستشفيات التي كانت موجودة في البلاد. والأطباء الذين يعملون فيها ما هو أثرهم في هذا المجال؟

كان هناك مستشفى في جدة فيه طبيب أو اثنان وبعض المساعدين، كما كان هناك طبيب الحجر الصحي والذي كان يسمى «الكورنتينة»، وهو الذي يتولى شؤون البواخر والحجاج القادمين عليها. فليس سرًّا أن الأمراض الوبائية كانت تتفشى في البلاد في مواسم الحج في العهد العثماني، وكان الحجاج يتعرضون للحجر الصحي إذا عادوا إلى بلادهم فتم وضع الحجر الصحي

في جدة لدرء هذا الوباء إن وجد، وكان هؤلاء الأطباء سواء من كان منهم في المحجر الصحي أو في مستشفى جدة يعالجون من يراجعهم من المرضى بالإمكانات البسيطة المتاحة لهم، والتي لم يكن من بينها إجراء العمليات الجراحية بحال من الأحوال، وخاصة في العهد الهاشمي وأوائل العهد السعودي.

وكانت السفارات الأجنبية تفتتح عيادات لمعالجة المرضى، بصورة عامة والرعايا التابعين لتلك السفارات بصورة خاصة. فكان هناك طبيب وصيدلي هندي في السفارة البريطانية على حساب حكومة الهند، وكانت مستعمرة بريطانية، وكان هناك طبيب جاوي وصيدلي مثله في السفارة الهولندية، على حساب حكومة جاوة التي كانت مستعمرة هولندية، وبعد أن احتلت إيطاليا الحبشة وأرتريا وليبيا، افتتحت عيادة يديرها طبيب إيطالي وصيدلي، كذلك وبعض المساعدين من الليبيين والأرتريين، بل إن السفارة الروسية كان لها طبيب روسي وصيدلي، وكانوا يذهبون إلى البيوت لزيارة المرضى الذين يترددون عليهم ولعلهم كانوا يريدون التودد إلى الشعب الذي لم يحفل بهم في وقت من الأوقات. أما في مكة المكرمة والمدينة المنورة فكانت هناك التكية المصرية في كل منها ولكل واحدة منها طبيب وصيدلي مصري، وكانتا تؤديان نفس الدور الذي كانت تؤديه عيادات السفارات الأجنبية.

وكان الناس يترددون على هذه العيادات المقامة في دهاليز السفارات للعلاج الذي كان يتم بصورة مستعجلة. وذلك بعد أن تنورت العقول وعرف الناس فائدة الطب والأطباء أو قل إنهم لجأوا إلى هذه العيادات الطبية التماساً لعلاج أنجح من العلاج القائم على الوصفات والذي كانوا يمارسونه من قبل، ومهما كان الأمر فإن الوضع بحالته التي وصفنا كان يحز في نفوس العقلاء من الناس الذين كانوا يتمنون وضعاً أفضل وأكرم، ولكن هذه هي إمكانات البلاد في ذلك الوقت السحيق، وقد أكرم الله البلاد بعد ذلك بوصول أوائل الأطباء السعوديين إلى مكة المكرمة وهم الدكاترة حسن حسنين، ومحمد الخاشقجي –رحمه الله– وكان هذا في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات فكان تفانيهم في العمل ومباشرتهم لإجراء العمليات بنجاح في المستشفيات الحكومية هو البلسم الذي كان شفاء للصدور، ولقد أكرم الله البلاد بعد ذلك بالوثبة الكبرى لشؤون الطب والأطباء في منتصف الستينات حينما تولى سمو الأمير عبد الله الفيصل شؤون وزارة الصحة، وكان أول وزير لها. وعلى أي حال فإن هذه الفترة لاتدخل ضمن الزمن الذي نكتب عنه ومن شاء الاستزادة عن هذا الأمر فليرجع إلى الحلقة الخاصة بالدكتور محمد الخاشقجي في كتابنا أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة.

الفصل السادس

التجــارة وأحوالهـا

خلال الثلاثينات والأربعينات كانت التجارة محصورة في الاستيراد من الهند. ولتحري الدقة نقول: إن معظم التجارة التي ترد إلى البلاد كانت ترد من الهند، وهي تشمل الأرز والسكر والحبوب والشاي والبهارات بكافة أنواعها، كما تشمل المنسوجات كالبفتة والدوت، وكانوا يسمونه «السليطي» وبعض أنواع المنسوجات الحريرية. وكانت بيوت التصدير في الهند معروفة، بعضها هندي وبعضها عربي، ومن البيوت العربية التي كانت تتولى التصدير من الهند، بيت الحاج زينل علي رضا، الشقيق الأكبر للحاج عبد الله علي رضا، ووالد الحاج محمد علي زينل رضا، مؤسس الفلاح، والحاج سليم الخنجي وكان من تجار جدة المعروفين، وفي وقت من الأوقات افتتح آل الجمجوم بيتاً تجاريًّا لهم في الهند. وكان يديره المرحوم الشيخ عبد العزيز جمجوم شقيق السادة عبد الرؤوف وصالح وصلاح جمجوم. وكان أشهر البيوت التجارية الهندية بيت عبد الله بهاي. وكانت الطريقة المتبعة أن المصدرين يبرقون إلى التجار المستوردين في جدة في حال تعيين باخرة، ويذكرون لهم الأسعار القائمة للبضاعة المنوي تصديرها، وتصل البرقيات إلى جميع التجار في وقت واحد وبسعر واحد، فيعين كل تاجر الكمية التي يرغب في استيرادها. ويجري تحويل الأثمان بالروبيات الهندية إلى المصدرين، فإذا وصلت الباخرة كان جميع المستوردين لهم حصة فيها، ولعل اعتماد البلاد على التجارة مع الهند هو الذي حدا بالتجار العرب إلى فتح فروع لهم في الهند كما أسلفنا. وإلى جانب البيوت العربية الخاصة بالاستيراد في الهند، كانت هناك بيوت عربية أخرى تخصصت في تجارة اللؤلؤ، وأهمها وأكبرها كان البيت الذي أسسه الحاج محمد علي زينل رضا مؤسس مدارس الفلاح، والذي اتسعت تجارته حتى شملت عواصم أوروبا، فكان له مكتب في لندن وآخر في باريس، حتى أصبح يلقب بملك اللؤلؤ في العالم، وكان للشيخ إبراهيم الفضل كذلك بيت تجاري في بومباي. ولا شك أن أهمية التجارة مع الهند هي التي دفعت التجار العرب، ليس من الحجاز فحسب، وكذلك من نجد والخليج إلى

افتتاح مراكز تجارية لهم هناك، والمورد العذب كثير الزحام. وكان إلى جانب التجارة مع الهند تجارات أخرى مع موانىء الخليج والبحر الأحمر، فكان الشعير والتمر يستوردان من البصرة في العراق، وكانت الفواكه والدخان والبصل والفول تستورد من ميناء السويس في مصر كما كانت المنسوجات الحلبية والدمشقية ترد عن طريق ميناء السويس بعد أن تحمل بسكة حديد الحجاز عبر سوريا وفلسطين يوم كانت بلاد الشام كلها بلاداً واحدة ولم ينلها التقسيم الذي أحدثه الاستعمار الغربي. وكان الناس إذا ذكروا طرابلس في لبنان قالوا عنها طرابلس الشام للتفريق بينها وبين طرابلس الغرب في ليبيا –تلك طرابلس الشام والثانية طرابلس الغرب– ولم تكن هناك هذه الدول المتفرقة التي قسمت الشعوب بين الاستعمار الانجليزي والفرنسي والإيطالي ليصبح هذا التقسيم حقيقة قائمة بعد رحيل الإستعمار إلى هذا الزمان، كما كان هناك القليل من البضائع الواردة من أوروبا والتي تصل كذلك عن طريق ميناء السويس.

أما بالنسبة لموانىء اليمن، التي كانت تستورد المملكة منها حاجتها من الدخن والشعير والسمسم والبن، فكانت السفن الشراعية هي التي ترود هذه الموانىء، مثل ميناء جازان والقنفدة والحديدة. ومن المعلوم أن جيزان والقنفدة كانتا تحت حكم الأدراسة قبل انضمام إمارة الإدريسي إلى حكم المغفور له الملك عبد العزيز. وكان ميناء عدن يشكل أهمية كبيرة بحكم وجوده في الطريق إلى الهند، ولوقوع ميناء عدن كذلك تحت الحكم الإنجليزي، وكانت الهند أكبر درة في تاج تلك الإمبراطورية التي كانت لاتغرب عنها الشمس. وسبحان مغير الأحوال ومديل الدول ومقلب الزمان.

النداء على البواخر:

وكان المنادي يدور على أسواق جدة رافعاً عقيرته باسم الباخرة القادمة والمسافرة، وموعد سفرها وقدومها، واسم وكيلها. وكان أشهر مناد في جدة هو المرحوم صديق حلواني، وكان رجلاً جهير الصوت، وكان يلبس الملابس الحجازية الخاصة بأبناء الشعب، إذا صح هذا التعبير، فيتحزم بحزام عريض من الصوف فوق الثوب القصير و يتعمم بعمامة كبيرة ملفوفة على الرأس، ويمسك بيده عصا غليظة من الأبنوس، ثم يطلق عقيرته قائلاً: "بابور بوسطة إنكليزي اسمه جهانكير إن شاء الله بكرة حضوره هنا، يسافر بعد بكرة كل من له بضاعة أو صرة بالحال يراجع

الوكيل حاجي زينل علي رضا» ثم يتوقف ليعلن عن باخرة أخرى إذا كانت قريبة الموعد فيقول: بابور بوسطة خديوية اسمه الطائف إن شاء الله بكرة حضوره هنا، يسافر بعد بكرة كل من له بضاعة أو صرة في الحال يراجع الوكيل خواجة جلاتلي هنكي وشركاه.»

الشركات الأجنبية:

وكان أغلب وكلاء البواخر من الأجانب، باستثناء الحاج عبد الله علي رضا قائمقام جدة، الذي استطاع استخلاص بعض تواكيل البواخر من بعض الشركات الأجنبية، وقد أدركت هؤلاء الوكلاء، وكان أهمهم بيت جلاتلي هنكي وشركاه بسودان ليمتد. وكان بيتاً تجارياً إنجليزياً، مركزه الرئيسي في مدينة بورت سودان. وكان لهذا البيت نشاط تجاري عظيم، فكان يجمع بين توكيلات المصانع والشركات الأجنبية من كافة أنحاء المعمورة، على اختلاف هذه الوكالات، وعلى مزاحمة بعضها البعض. مما يدل على أن هذه الشركات لم تكن على علم بأحوال البلاد وتجارها، وكان الإسم الوحيد المعروف لديهم هو اسم هذه الشركة الإنجليزية. ويكفي أن نقول: إنها كانت تجمع بين وكالات سيارات جنرال موتورز من البيوك والالدزموميل والشفرولية، وبين وكالة سيارات كريزلر التي تنتج الدودج وغيرها من السيارات، وذلك حينما سمح بدخول السيارات إلى البلاد في أوائل العهد السعودي، كما كانت هي التي تتولى توكيل شركة شل للزيت، التي تمون البلاد بغاز الإضاءة كما تمون السيارات بالبنزين. ثم تمون الطائرات بعد افتتاح أول خط للطيران بين جدة والقاهرة، في أيام الحرب العالمية الثانية. وكانت إلى جانب ذلك تقوم بأعمال البنوك والتحويلات والاستيراد من أوروبا بمختلف أنواعه، سواء للالآت والمحركات، أو البضائع الأخرى، وكانت هناك شركة أخرى تعمل إلى جانبها، وهي الشركة الشرقية التي أسسها المستشرق سانت جون فلبي، الذي سمى نفسه عبد الله فلبي، فيما بعد. وكان قد حصل من جلالة الملك عبد العزيز على امتياز لسيارات فورد وكفرات قودريير الأمريكيتين. فكان لا يسمح بدخول السيارات إلا لشركة فورد ولا للكفرات إلا لشركة قود يير. وبهذا استطاع بيت فلبي التجاري أن ينفرد بالعمل في هذين النوعين وهما من أهم الأعمال. وقد استطاعت الشركة العربية للسيارات، وكانت الشركة الوحيدة التي تتولى نقل الحجاج والبريد كما تعمل في النقل الداخلي للحكومة بين الحجاز ونجد والمناطق الأخرى. أقول: استطاعت هذه الشركة أن تحصل من جلالة الملك عبد العزيز على إذن باستيراد ما تريده

من أنواع السيارات والكفرات الأخرى. فتم إلغاء هذا الامتياز حينذاك، وكان فلبي قد حول بيته التجاري إلى شركة متشل كوتس الانجليزية، والتي ما لبثت أن أنهت أعمالها في السبعينات، بعد أن تبين لها أنها لا تستطيع البقاء بعد أن انطلقت أمور التجارة من عقالها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وأخذت البيوت التجارية السعودية وخاصة الجيل الجديد من التجار بزمام المبادرة، فانفتحت تجارة المملكة على العالم في كل بقاعه ولهذا شعر الأجانب أنهم لا بقاء لهم مع هذا الانفتاح. وقد أدركت الوقت الذي كان الناس يلجأون فيه إلى هذه الشركات الأجنبية لاستيراد بعض ما يحتاجونه من أوروبا وخاصة للمحركات الكهربائية بقصد الإنارة. وذلك قبل دخول الكهرباء أو المكائن الزراعية وطلمبات الري، كان الرجل يذهب إلى شركة جلاتلي هنكي مثلاً، أو لشركة متشل كوتس ليقدم طلبه، ثم يقابل الإنجليزي المختص، الذي يحضر مترجماً من الشركة. وتنتهي المقابلة بأن يدفع نصف قيمة المكينة المطلوبة مقدماً، ودون مناقشة في الأسعار، وبعد ذلك تطلب الشركة الأجنبية هذه المكينة التي قد تصل بعد بضعة شهور، إن لم تصل إلى عام كامل. فإذا وصلت كان على صاحبها أن يدفع بقية الثمن ثم يتولى هو تخليصها من الجمارك، ثم يبحث عمّن يتولى تركيبها وتشغيلها، فإذا احتاجت إلى قطعة غيار فهو لن يجدها لدى الشركة وإنما تطلب له بنفس الأسلوب السابق الذي طلبت به المكينة ذاتها. ولست في حاجة لأن أقول: إن هذه الأساليب في العمل لم تكن لتبقى لو أن تجار البلاد كانوا منفتحين على العالم في ذلك الوقت. ولهذا فما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وانفتح التجار السعوديون على أوروبا وأمريكا واليابان حتى تغير وجه التجارة في المملكة تغيراً كاملاً. وحتى أغلقت الشركات الأجنبية أبوابها. فبالنسبة لشركة جلاتلي هنكي اقتصر عملها على توكيلات البواخر، وشركة اللويدز للتأمين. ثم باعت الشركة أو على الأصح باعت هذه الوكالات إلى صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل الذي حولها إلى شركة سعودية تحمل اسم الشركة العربية للملاحة وهي باقية بهذا الإسم حتى الآن. أما شركة متشل كوتس فقد أغلقت أبوابها في السبعينات، لأنها رأت أن لا بقاء لها في المملكة. وكانت هناك شركة إيطالية تتولى توكيل البواخر الإيطالية اسمها لازاريني وهذه كذلك أنهت أعمالها بعد هزيمة إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، وكانت هناك شركة أخرى هولندية تتولى توكيل البواخر التي تحمل حجاج أندونيسيا والتي كانت يطلق عليها جاوا. وقد انتهت هذه الشركات الأجنبية تماماً، وحل محلها التجار السعوديون، وكنت أرى في مدينة جدة وأنا صغير السن كثيراً من التجار الإيطاليين واليونانيين يحضرون إلى مدينة جدة، في مواسم معينة، لبيع المسابح التي تصنع في إيطاليا. ثم

انقرض أثرهم ولم يظهروا فيا بعد، وكان هناك تاجر يهودي واحد في جدة في القصبة قريباً من السوق الكبير، والقصبة هي شارع فرعي مازال قائماً، يؤدي إلى سوق الحراج في جدة. وكان هذا اليهودي الوحيد اسمه ماركو، يبيع الطرابيش وبعض الأقمشة. وكان إلى جانبه بقال مسيحي اسمه اكيلي يني خريستو، وهذا البقال اليوناني كان الشخص الوحيد الذي استمر في مدينة جدة إلى أن توفي. ثم عهد بالعمل إلى شاب يوناني كان يعمل معه في المحل وقد تزوج الخواجة اكيلي بابنة اليهودي ماركو على اختلاف ديانتيهما. و يبدو أن الرجل والفتاة أحبا بعضهما البعض فتزوجا على غير رغبة والد الفتاة ولم يأبها باعتراضه مما حمله على الرحيل عن مدينة جدة إلى غير رجعة.

مقبرة النصارى:

وكانت في مدينة جدة مقبرة للنصارى، ولا تزال هذه المقبرة موجودة حتى الآن، وآخر من دفن فيها هو القنصل الإنجليزي المستر أوزمان، الذي قتله الأمير مشاري بن عبد العزيز في الستينات على ما أذكر. وكانت هذه المقبرة تسمى «الكنيسة»، ولا أعرف لماذا سميت كذلك وهي عبارة عن مقبرة فقط، فإن المملكة كلها لا يوجد فيها كنيسة واحدة بحمد الله. و يبدو أن هذه المقبرة أقيمت في العهد العثماني لدفن الأجانب الذين يموتون في جدة. حيث أن بها مركز التمثيل الدبلوماسي الأجنبي و يعيش فيها أجانب كثيرون، ولم يكن هناك من يحسن تحنيط الجثمان، حتى يرسل بالباخرة لدفنه في بلاد أخرى، فكانت الحاجة داعية إلى إيجاد هذه المقبرة. وهي قائمة حتى الآن كما ذكرنا في جنوب جدة قرب السوق الجنوبية ولكنها غير مستعملة إطلاقاً كما لسنا في حاجة لأن نقول.

البواخر الشراعية:

إن ما ذكرناه عن أحوال التجارة إنما يمثل الفترة التي عاصرتها خلال الأربعينات والخمسينات، وما قبلها بقليل، أما الفترة السابقة والتي تعود إلى أوائل القرن الهجري الرابع عشر، فكانت تعتمد على المراكب الشراعية، التي تسافر إلى الهند، والتي يقودها ربابنة حجازيون. وأشهر رجل منهم هو الشيخ إبراهيم غلوم من تجار جدة، وقد أدركته رجلاً قصير

القامة، يلبس الجبة والعمامة الحجازية، مشتهراً بالتقتير الشديد، مع ضخامة ثروته، وكانت هذه المراكب الشراعية تسافر إلى الهند في وقت معين من السنة، بحيث تستطيع السفر والعودة قبل مواسم الفيضان في المحيط الهندي، وكان الكثير من التجار يملكون مركباً شراعياً. والبعض يشترك مع غيره في ملكية مركب، وقد سمعت والدي وعمي يتحدثان عن أن جدي الشيخ عبد الوهاب مغربي- رحمه الله- كان يشارك في ملكية مركب شراعي بالنصف. ولم تكن البواخر البخارية قد وصلت إلى البلاد ولعلها لم تكن تصل إلا في أوقات الحج، لنقل الحجاج، ثم العودة بهم بعد انتهاء موسم الحج، وكان التجار يرسلون النقود إلى الهند من العملات الذهبية صرًّا يسلم إلى الربابنة، الذين يسلمونها بدورهم، إلى البيوت التجارية هناك. وكان التاجر الواحد يقسم النقود التي يبعثها في عدة بواخر، فإذا كانت القافلة المبحرة تشمل خمسة مراكب مثلاً، وكان يريد إرسال خمسمائة جنيه، أودع في كل مركب صرة بمائة جنيه، وكانت فكرة التقسيم تقوم على أساس أن هذه المراكب معرضة للغرق، فكان التجار يلجأون إلى هذا التقسيم في مراكب كثيرة، حتى ولو كانوا يملكون واحدة منها خشية أن تغرق إحدى المراكب فيسلم المال الباقي في المراكب الأخرى، ولست في حاجة لأن أقول: إنه لم تكن هناك بنوك ولا معاملات بنكية فضلاً عن وجود شركات تأمين حتى يلجأ الناس إلى التحاويل البنكية أو التأمين على ما يرسلون من أموال إلى خارج البلاد.

ميناء جدة يمون القطر المصري:

وأعجب ما سمعته عن هذه المراكب أن تجار جدة لم يكونوا يستوردون ما يكفي الحجاز من البضائع فحسب، وإنما كانوا يستوردون الكميات التي تصدر إلى مصر، وذلك قبل شق قناة السويس. فكانت المراكب الشراعية إذا عادت من الهند محملة بالبضائع تبقى خارج الميناء ولا ينزل منها في ميناء جدة إلا بقدر ما تحتاجه البلاد، وتبقى المراكب في مرساها بالبحر عبارة عن مخازن عائمة. فإذا تلقى التجار طلبات البضائع من القاهرة أرسلوها من هذه البضائع الموجودة في المراكب، ليبحر بها مركب أو أكثر إلى السويس. وكان في مدينة القاهرة تجار عرب أغلبهم من الحضارمة، وبعضهم من الحضارمة الحجازيين، والعدنيين، ومن أشهر من أدركت منهم آل بازرعة. وهم من حضارمة عدن، ومن ذوي السمعة العاطرة، وآل باجنيد وهم من حضارمة عدن وأبناء عمومة الشيخ عبد الرحمن باجنيد التاجر المشهور بجدة. وهؤلاء التجار كانوا يقومون

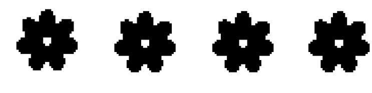
بالاستيراد للأرزاق، والبهارات من الهند، وعدن وغيرها، وفي وقت من الأوقات هاجر الشيخ أبوبكر باغفار - رحمه الله - إلى مصر وافتتح عملاً بها، كما كان لآل باناجة عقار كثير في القاهرة لايزال موجوداً حتى الآن. وأخبرني صديقي المرحوم الشيخ عبد القادر باعشن أن جده الشيخ باعشن هاجر إلى مصر، وما لبث أن صار فيها شهبندر التجار، أي رئيس التجار، وهو ما يعرف الآن برئيس الغرفة التجارية. وهذا يدل على أن الفرص كانت متاحة للعاملين في كافة البلاد الخاضعة للخلافة العثمانية، كما كانت هذه البلاد مفتوحة لجميع رعايا الخليفة دون تفريق، كما يدل على أن إخواننا المصريين كانوا يهتمون بالفلاحة والزراعة أكثر من اهتمامهم بالتجارة. وبشق قناة السويس قبل ما يقرب من مائة عام، انتهت تجارة الحجاز مع مصر، أو انتهى على الأصح تموين الحجاز لمصر بالبضائع الواردة من الهند، حيث أن بواخر الهند تستطيع الوصول إلى مصر عن طريق قناة السويس.

ميناء جدة

ولكي يكون الحديث كاملاً عن التجارة لا بد وأن نتحدث عن ميناء جدة ثغر المملكة ودهليز الحرمين، كما كان يطلق عليها، ونحن في سن الحداثة. فهذا الميناء هو البوابة التي يدخل منها القادمون إلى البلاد عن طريق البحر، من الحجاج والزائرين، كما تدخل منها البضائع أو السلع التي تحملها البواخر البخارية والمراكب الشراعية على حد سواء.

ميناء جدة مليء بالشعاب المرجانية، التي إن اصطدمت بها باخرة أو زورق، تعرضا للعطب. ولهذا فإن هناك الربابنة من أهل جدة، الذين يعرفون الطرق السليمة، التي يجب أن تسلكها المراكب الكبيرة والصغيرة على حد سواء، أما بالنسبة للزوارق الصغيرة فقد وضعت لها علامات من الأحجار الكبيرة، في البحر في الأماكن التي تعبرها، بحيث تسلك طريقاً آمناً خالياً من الشعاب، أما بالنسبة للبواخر الكبيرة فإنها تقف بعيداً عن منطقة الشعاب المرجانية، ثم يصعد إليها الربابنة المحليون، فيتولون قيادتها، إلى المرسى الذي ترسي فيه البواخر، وهو يبعد عن مدينة جدة حوالي النصف ساعة بالزورق البخاري، وكانت وكالات البواخر المختلفة تتفق مع هؤلاء الربابنة على اختصاصهم، بإدخال بواخر شركاتهم، إلى المرسى حين قدومها، وإخراجها منه إلى البحر الكبير. وكان الربان كما علمت يتقاضى جنيهاً ذهبياً واحداً، عن كل باخرة لقاء قيادته السفينة، وكان هناك عائلات معينة يتولى أفرادها هذه القيادة، ويتعلمونها من آبائهم

جيلاً بعد جيل. وقد أدركت منهم المرحوم الشيخ إبراهيم سلامة، الذي كان أشهر الربابنة، حتى الستينات. وبعد وفاته تسلم القيادة بعده ابنه الربان محمد سلامة. ولعله الوحيد الباقي في هذه الصناعة حتى الآن، كما علمت أن عائلة الرقبان كانت تتولى قيادة السفن، بنفس الطريقة كذلك، ولكني لا أعرف أحداً منها يقوم الآن بهذا العمل.



نقل البضائع والركاب من السفن إلى الميناء

أما بالنسبة لنقل الركاب والبضائع من مرسى البواخر، فكانت تقوم به طائفة البحارة في مدينة جدة. وكان الركاب الموسرون يستعملون الزوارق البخارية للتنقل بين البواخر والميناء، وخاصة حينما كان البحر هو الوسيلة الوحيدة للسفر قبل الطائرات. وكانت أجرة الزورق جنيهاً ذهبياً واحداً بين الباخرة ومدينة جدة للذهاب والعودة، وكان المسافر إلى مصر أو الهند يمتطي أحد هذه الزوارق ومعه أهله وأصدقاؤه لتوديعه. وإذا كان عدد المودعين كبيراً كانت هناك زوارق كثيرة لحمل المودعين، حتى إذا ما وصلوا إلى الباخرة جلس المودعون في صالون الباخرة وأديرت عليهم زجاجات القازوزة. وكانت هي النوع الوحيد المعروف من المرطبات، في ذلك الوقت، فلم تكن الكولا أو غيرها قد عرفت في البلاد. ويستمر المودعون في الباخرة إلى أن يقترب موعد رحيلها فتطلق الباخرة زمارة عالية إيذاناً لغير المسافرين بمغادرتها، فيبادرون بتوديع المسافر، ويغادرون الباخرة إلى الزوارق التي أقلتهم، أما بالنسبة للقادم من السفر فإن الأهل والأصدقاء يستعملون هذه الزوارق في الوصول إلى الباخرة، لاستقباله، حيث يجدونه واقفاً على شرفة الباخرة في انتظارهم، وبعد السلام عليه يصطحبونه في الزوارق التي وصلوا بها ليعودوا إلى مدينة جدة، حيث يكون بقية المستقبلين في انتظاره في الميناء على البحر، في منطقة الكرنتينة، والتي لا تزال باقية حتى الآن، ثم يذهب إلى داره. أما بالنسبة للحجاج فكانت تنقلهم السنابيك الكبيرة مع أمتعتهم. والسنبوك الواحد قد يتسع لثلاثين حاجاً أو أكثر، فإذا وصلوا إلى مدينة جدة وقفوا في منطقة السؤال حيث تكون هناك هيئة السؤال في انتظارهم.

هيئة السؤال:

وهيئة السؤال هذه هيئة رسمية، تسأل الحجاج بلغاتهم عن أسماء مطوفيهم، و يكون وكلاء المطوفين حاضر ين، لاستلام الحجاج التابعين لهم، حيث يتولون إسكانهم في بيوتهم، وفي البيوت التي يستأجرونها. ثم يتولون ترحيلهم وأمتعتهم إلى مكة والمدينة، حسب رغبة هؤلاء الحجاج، ومواعيد وصولهم. وكان الوكلاء في جدة يتنافسون على أخذ وكالات المطوفين، الذين ترد لهم أعداد كبيرة من الحجاج. و يبذلون الأموال الطائلة للمطوفين، لإعطائهم هذه الوكالات، وكان هناك مطوفون ووكلاء خاصون بكل جنس من أجناس الحجاج، وهم ينقسمون إلى طوائف متعددة، وكلاء الجاوا الأندونيسيين فيما بعد —وكلاء الهنود— وكلاء العرب وهم يشملون المصر يين والسور يين والسودانيين والفلسطينيين وحجاج المغرب العربي، وكلاء الايرانيين، وكلاء الأتراك، وقد كادت هذه التقسيمات أن تنتهي بعد أن ألغي نظام السؤال، وأصبح توز يع الحجاج، يتم على المطوفين بأعداد معينة، أوضحها النظام الجديد للمطوفين. وأصبحت مهمة الوكلاء هي استقبال الحجاج الذين يسكنون في مدن الحجاج بجدة وترحيلهم إلى مكة أو المدينة.

نقل البضائع:

وكانت البضائع التي ترد على البواخر تنقل بالسنابيك الكبيرة، وهي عبارة عن مراكب شراعية متوسطة الحجم، تحمل الواحدة منها عشرات الشوالات، زنة مائة رطل فما فوق. والإسم المفرد هو —سنبوك— والواقع أن هذه المراكب الشراعية كانت لها أسماء مختلفة، للتمييز بين أنواعها، فهناك السنبوك وهو أكبرها، والهوري وهو عبارة عن زورق صغير، يتسع لشخصين، وربما لثلاثة، وغالباً ما يستعمله الصيادون. وهناك النوري وهو وسط بين السنبوك الكبير و بين الهوري الصغير، كما أن هناك الزوارق البخار ية، وكانت تسمى لنشات مفردها لنش. ولعل بعض هذه الأسماء من أصل أجنبي. على أي حال فقد كانت هذه المراكب بأنواعها، تصنع في مدينة جدة، ولها صناعها المعروفون. وهم يستعملون في صناعتهم أقوى الأخشاب، بعد تنشيفها ودهنها بالمواد التي تتحمل البقاء في الماء، كما كانوا يدهنونها بعد كل فترة لتجديدها.

نعود الآن إلى نقل البضائع فنقول: إنها تنقل من البواخر على هذه المراكب الكبيرة الشراعية التي تسمى بالسنابيك، ثم يتولى نقلها حمال الفرضة من ظهور السنابيك، لإيصالها إلى مخازن الجمرك، فإذا تم تخليص البضائع من الجمارك قام بنقلها حمال الزملة من الجمارك إلى مخازن التجار، وهكذا فقد كانت الأعمال مقسمة بين الطوائف المختلفة حتى لا يتعدى أحد على اختصاص أحد.

البحر نزهة أهل جدة :

وكان أهل جدة يتخذون من البحر منتزهاً لهم، وخاصة في أيام الأعياد، وخاصة عيد الإضحى المبارك، حيث تكون عشرات البواخر في المرسى خارج الميناء. فيذهب الرجال والشبان ممن تتحمل أسنانهم هذه الرحلات، يذهبون في رحلات بحرية على الزوارق البخارية، لرؤية البواخر الموجودة في المرسى، فيشربون هناك القازوزة. وربما تغذّى بعضهم على ظهر إحدى البواخر وكثيراً ما يشترون بعض الفواكه، وخاصة المانجو والنارجيل، بالنسبة للبواخر الهندية، والبرتقال والتفاح والكمثرى وقصب السكر، وأبوفروة، بالنسبة للبواخر المصرية، وكان البعض يشتري كذلك برميلاً صغيراً من ماء النيل حينما كانت المياه العذبة شحيحة في مدينة جدة على ما سيأتي ذكره فيما بعد.

جزيرة أبو سعد :

وكانت هناك جزيرة تسمى أبوسعد، وأخرى اسمها الواسطة، وثالثة اسمها أم علي قريبة من مدينة جدة في وسط البحر. وكانت جزيرة أبوسعد أكبر هذه الجزر وأشهرها وأقربها إلى مدينة جدة، وكانت بها صهاريج للماء العذب، وكذلك مبان لسكن الحجاج، إذ كانت هذه الجزيرة تستعمل كمحجر صحي للحجاج الذين يصابون بأمراض وبائية. وكان يطلق على المحجر اسم «الكورنتينة» والترجمة العربية الصحيحة هي الحجر الصحي، وكانت الحكومة المصرية قد اتخذت محجراً صحياً في مدينة السويس لحجر الحجاج الذين يصلون من الحجاز في كل عام،

لفترة معينة، سواء ظهر بينهم وباء أو لم يظهر. وكان هذا بطبيعة الحال، حينما كانت مصر خاضعة للحكم البريطاني، وأذكر أنني في أول رحلة قمت بها من جدة إلى مصر في عام ١٩٤٢ للميلاد، تعرضت وعائلتي لهذا الحجر الصحي لأننا سافرنا من جدة في آخر باخرة للحجاج. وكان اسمها الباخرة الطائف، ولم نصل إلى القاهرة إلا بعد عشرة أيام قضينا ليلة في ميناء ينبع وليلة في ميناء الوجه، وبعد سبعة أيام وصلنا إلى السويس، فنقلونا إلى عيون موسى في الطور، وقضينا هناك ثلاثة أيام، ولم نصل إلى القاهرة إلا بعد عشرة أيام من مغادرتنا لمدينة جدة فسبحان مغير الأحوال. هذا وقد قامت الحكومة السعودية، في عهد تولي الأمير عبد الله الفيصل لوزارة الصحة، في الستينات، ببناء المحجر الصحي في الجهة الجنوبية من مدينة جدة، لحجر الحجاج المشكوك في وجود أمراض وبائية بينهم، بدلاً من استعمال جزيرة أبوسعد لهذه الغاية. كما أن سموه بوصفه وزيراً للصحة اتفق مع الحكومة المصرية على إلغاء الحجر الصحي، الذي كان قائماً في مصر ولا يزال هذا المحجر موجوداً في مدينة جدة، ويحجر به الحجاج القادمون من المناطق الموبوءة بالكوليرا وغيرها من الأمراض الوبائية، حينما يكون ذلك لازماً منعاً لاختلاطهم بالحجاج الآخرين، ويتم نقلهم إلى المشاعر بعد انتهاء مدة الحجر وربما تم نقلهم في يوم عرفات بالذات دون أجر.

نعود الآن إلى جزيرة أبوسعد فنقول: إن أهل جدة كانوا يتخذون منها متنزهاً لهم، فيذهبون إليها في رحلات تستغرق اليوم واليومين والثلاثة، مصطحبين معهم أمتعتهم وطعامهم؛ مع قيامهم بالسباحة والصيد في البحر. ويكون معهم من يتولى تسليتهم، إما بالغناء أو الضرب على الآلات التي كان عدد من يتقنون الضرب عليها أقل من أصابع اليد الواحدة. كما أنهم يلجأون إلى التسلية بالألعاب المختلفة، التي كانوا يمارسونها والتي كانت معروفة في ذلك الزمان. وقد حلت مدينة أبحر، في الشمال الغربي من مدينة جدة، محل جزيرة أبوسعد والواسطة وأم علي. وبنيت فيها الدارات الجميلة، وأصبحت متنفساً أسبوعياً لسكان مدينة جدة، والقادمين إليها بعد أن بني فيها فندق كبير وشيدت فيها كبائن بحرية بالمئات وتوفرت فيها الزوارق الخاصة والخدمات الكهربائية والتلفونية.

أما ميناء جدة فإن البواخر الكبيرة الآن ترسو على أرصفته الكثيرة، بعد أن تحول إلى الميناء الإسلامي، وأصبح يضاهي الموانىء الكبيرة في العالم. وأصبح التفريغ فيه للبضائع إنما يتم بالآليات الضخمة الكبيرة، وهكذا أصبح الحال غير الحال ولكنه تغير إلى الأحسن والأفضل والحمد لله.

أنواع مختلفة من التجارة

تجارة الماء:

إلى جانب أنواع التجارة المعروفة، كانت هناك بعض أنواع التجارة التي تمليها طبيعة البيئة، إذا صح هذا التعبير. فلقد كان الناس يتاجرون بالماء في مدينة جدة، لشح الماء بها، فكانت للأغنياء صهاريج كبيرة، خارج مدينة جدة في طريق السيول التي تتدفق في الأودية بعد الأمطار. وكان من أهمها صهريج المشاط، وهو في الطريق بين النزلة اليمانية ومدينة جدة، وكان إلى جانبه ما يشبه الفيلا الجميلة، ولعله في ذلك الوقت كان ملك آل نصيف، وكذلك صهاريج حميد الشيخ، وكانت في الجهة الشرقية، خارج باب مكة، وكانت عبارة عن منخفض من الأرض تحده تلال صغيرة. وفي داخل هذا المنخفض صهاريج كثيرة صغيرة الفتحات، وكان يطلق على المحل كله حفرة حميد الشيخ. وكانت هذه الحفرة أو هذا المنخفض يمتلىء بالماء بعد الأمطار، حتى يكون بركة كبيرة. وكان بعض الناس يسبحون في هذا الماء، ولعل البعض ممن لا يحسنون السباحة يتعرض للأخطار، فيغوص في أحد الصهاريج المفتوحة تحت الماء فيهلك، وكان كبار الأهل يحذروننا من الاقتراب من هذه الصهاريج، خوفاً علينا من أخطارها، و يقولون عن حفرة حميد الشيخ «كل سنة لها واحد» أي أن كل سنة يموت فيها واحد على الأقل، وكان هناك صهاريج آل باناجة وهي في منطقة الشرفية. وقد اشتراها سيادة قائمقام جدة الشيخ عبد الرحمن السديري، و بنى بها بيوتاً لسكنه، وعماير في موضع الصهاريج. و بتعبير آخر فإن هذه الصهاريج والحفر التي كانت خارج مدينة جدة أصبحت الآن في قلب المناطق السكنية.

وكانت هذه الصهاريج إذا امتلأت بالمياه التي تدخل إليها من الفتحات المهيأة لهذا، يقفل عليها أصحابها، و يظل الماء فيها محفوظاً إلى الأوقات التي تشح فيها المياه، فيفتحونها للبيع، و يبيعون الماء فيها بالزفة، والزفة عبارة عن تنكتين من الماء، سعة كل واحدة منها خمسة جوالين أمريكية. وكان لبعض الناس صهاريج في داخل مدينة جدة، يملأونها كذلك بالماء بعد الأمطار، ثم يبيعون هذا الماء بنفس الطريقة، بعد انتهاء الشتاء. وكان كل بيت في جدة تقريباً مبنياً به صهريج، لتلقي مياه الأمطار، وحفظها، كما أسلفنا وصف ذلك في الباب الأول من هذا الكتاب.

أنواع الماء:

وكان الماء في جدة يتكون من ثلاثة أنواع: ماء مالح، وكانوا يسمونه «ماء رديخ» وهو يستعمل لكنس الحمامات، والسلالم، والسطوح، والدهاليز. و يرش كل عصر أمام مدخل البيوت لترطيب الجو، وماء العين، وهو ماء فيه بعض الملوحة، ولكنه لا يصلح للشرب فيستعمل للطبخ وغسيل الملابس وللاستحمام. وهذا الماء هو الذي يرد من العيون التي كانت خارج مدينة جدة مثل عين الوزيرية، أو عين فرج يسر أو غيرها من العيون، التي لم تكن منتظمة الجريان، والتي كانت كثيراً ما تجف وتنبض. وكذلك من بعض الآبار خارج مدينة جدة، والنوع الثالث من الماء هو الماء العذب الصالح للشرب، والذي كانوا يستعملونه للشرب، ولصنع الشاي، وأشهر بئر خارج مدينة جدة للماء العذب كان اسمها العسيلة. وكان هناك جماعة من البدو ترد العسيلة وتملأ القرب التي تحملها الجمال إلى مدينة جدة. وكان لهم عملاء من أهلها يشترون منهم هذا الماء بأغلى الأثمان. وكان والدي رحمه الله يتعامل مع هؤلاء البدو، وكان يجرى حفظ هذا الماء المخصص للشرب في أزيار كبيرة من الفخار، تحفظ الماء الكثير، ولها ميزة التبريد كذلك، ولا يرشح منه إلا القليل. كما كانت هناك أوعية مخصوصة للأنواع الأخرى من الماء، وكان في مدينة جدة مركز لتحلية المياه من البحر، أنشأته الحكومة العثمانية. وكان يسمى الكنداسة، وهو تحريف لكلمة كوندنسر الإنجليزية. ولكن هذه الكنداسة التي كانت تعمل بالفحم الحجري توقفت عن العمل خلال فترة الحرب السعودية الهاشمية، لانقطاع وصول الفحم الحجري لتشغيلها. فكانوا يوقدون الأخشاب في أفرانها، ثم أصبحت هذه الأخشاب عزيزة أيضاً، فتوقفت نهائياً، ثم أعيد إصلاحها في أول العهد السعودي. وكان يتولى إدارتها الشيخ محمد السليمان التركي، يرحمه الله، ولكن ما لبثت هذه الكنداسة أن أصبحت عاجزة عن تلبية طلبات الناس إلى الماء العذب. وكان الناس يتزاحمون في مكانها قرب بلدية جدة، في الوقت الحاضر بشارع الملك عبد العزيز، وكان طويل الباع من يستطيع العودة إلى داره بزفة من هذا الماء يحملها أحد السقائين. أما الذي يستطيع العودة ببرميل كامل فهو من العصبة أولي القوة، وكان الماء ينقل بالبراميل التي يتسع الواحد منها لإحدى عشرة تنكة. ولكن حينما أصبح الماء العذب عزيزاً وغالي الثمن، أصبح يباع بالزفة، والزفة هي عبارة عن تنكتين سعة كل تنكة منها خمسة جوالين أمريكية، وكانت هذه البراميل والتنك تستعمل أصلاً للغاز — غاز الكيروسين — الذي يستعمل في الإضاءة، ثم يشتري السقاؤون فوارغ هذه البراميل والتنكات، بعد تنظيفها

لنقل الماء، وفي الكنداسة وأحوالها نظم صديقنا الشاعر المرحوم الأستاذ محمد سعيد عتيبي أبياتاً لطيفة، فيها تعبير عن حالة الفوضى والشح في الماء وفيها يقول:

يا ذوي الرأي والحجى والكياسة — خلصونا من دوشة الكنداسه
كلكم تأخذون بالدسِّ ماء — ونشوف النجوم من أجل كاسه

وقد نشرت هذه القصيدة، مع بحث واف عن تاريخ الماء في مدينة جدة في مجلة الحج في موسم ١٣٦٥ هجرية بمناسبة وصول ماء عين العزيزية إلى مدينة جدة، وللصديق العلامة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري كتاب ضخم عن مدينة جدة، طبع على نفقة إدارة العين العزيزية وهو مرجع حافل عن المدينة وتاريخها فليرجع إليه من شاء الاستزادة عن هذا الأمر، هذا وقد راع أهل جدة ما وصلت إليه حالة الماء فيها فعزموا أمرهم على إيصال الماء إلى مدينتهم واجتمعوا في مدرسة الفلاح بجدة وتسابقوا في التبرع بالمبالغ الكبيرة لتحقيق هذه الغاية وكان معالي الأخ الأستاذ محمد عبد الله رضا وزير التجارة الأسبق هو الذي دعا إلى هذا الأمر واستقدم خبيراً من الخارج للبحث عن مواقع الماء، ولكن ما أن علم جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله بذلك، حتى أصدر أمره بأن يتم إيصال الماء إلى مدينة جدة، بمعرفة الدولة، وعلى حساب جلالته شخصياً. فأبلغ معالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية، رحمه الله، ذلك إلى أعيان مدينة جدة، وأعيد إليهم المال الذي تبرعوا به لهذا الغرض. وتم إيصال الماء من وادي فاطمة إلى مدينة جدة بالأنابيب في عام ١٣٦٥ هجرية. وأسست له إدارة العين العزيزية، وعلى أي حال فإن هذا استطراد اقتضاه الحديث عن الماء، لأن هذا التاريخ مما لا يدخل في الفترة التي نتحدث عنها في هذا الكتاب.

تجارة الفحم والحطب:

وكما كان للماء تجارة رابحة كما أوضحنا، فقد كان للفحم تجارة كذلك. وكان الفحم هو الوقود الطبيعي الذي تستعمله البلاد، وخاصة للطبخ. وكانت البادية هي التي تصنع الفحم من الأخشاب البرية، وله مواسم معينة يرد فيها بكثرة. وكان في خارج مدينة جدة حلقة الفحم، وهي خلف مقبرة الأسد، في باب مكة قريباً من محلة العيدروس. وكان الفحم الذي يرد من

البادية ينزل في هذه الحلقة، وهي مكان فسيح خارج المدينة كما ذكرنا. وللفحم دلالون مخصصون لبيعه، كما كانت هناك حلقة أخرى للخضار والفاكهة والأجبان، تسمى الحلقة فقط، وهي قريبة من حلقة الفحم خارج باب مكة.

وكان من أراد شراء الفحم بالشوال ذهب إلى هذه الحلقة، فاشترى حاجته منها. ولكن تجار الفحم كانوا يغتنمون فرصة الموسم، الذي يرد فيه بكثرة، فيشترونه ويخزنونه في مخازن خاصة. حتى إذا حل الشتاء أخرجوه لبيعه على تجار التفرقة بأسعار أغلى. وكان بعض أصحاب الدكاكين يبيعون الفحم مفرقاً لمن أراد بالمكيال، ولمن لا يستطيع الشراء بالشوال أو الكميات الكبيرة، كما كان هناك بياعون للحطب يبيعونه بالحزمة. وذلك إنهم يجمعون أعواد الحطب المتساوية المقاسات، ويحزمون كل بضعة أعواد في حزمة، ويضعونها في مكان بارز، وغالباً كان هؤلاء يتخذون من خارج المدينة مركزاً لتجارتهم. وكان الطباخون العموميون إن صح هذا التعبير يشترون الكميات الوافرة من الحطب لإشعال القدور الكبيرة، التي يطبخون بها الطعام الذي يبيعونه للناس أو يستعملونه إلى جانب الفحم للولائم الكبيرة التي تحتاج إلى وقود كبير.

الفحم يطهر الماء:

ومن أعجب ما شاهدته في موضوع الفحم إنه كان يستعمل كمطهر للماء، فقد كان لأحد معارف والدي صهريج من الماء، وظهرت في هذا الماء رائحة كريهة، فأشار عليه الوالد — رحمه الله — أن يلقي في الصهريج بشوال كامل من الفحم. وعمل الرجل بالوصية وبعد بضعة أيام جاء ليخبر الوالد أن الرائحة الكريهة لا وجود لها الآن في ماء الصهريج. ويبدو أن من خاصية الفحم امتصاص التلوث وتنقية الماء، ولعل السادة الأطباء لديهم في هذا الأمر ما يفسر هذا الذي شهدته وأنا صغير حدث.

الغاز وأدوات الإضاءة:

ذكرنا أن الغاز كان هو المادة المستعملة، وكانت شركة جلاتلي هنكي الإنجليزية تستورد هذا الغاز من شركة شل بالبواخر، داخل براميل أو تنكات (مفردها تنكة) وكان هذا الغاز إذا

وصل يودع في مكان اسمه «الغازخانة» أي بيت الغاز، أو مكان الغاز. وكانت هذه الغازخانة خارج سور المدينة في قلب شارع الملك عبد العزيز حالياً، ثم نقلت فيما بعد إلى مكان في جهة الرويس، وأصبحت مستودعاً لكل المواد الملتهبة، ثم البنزين والزيوت والشحوم بالإضاءة إلى الغاز، وكان كل دكان من الدكاكين الصغيرة توضع فيه تنكة من الغاز ومعها المكاييل الحديدية. ويحضر الناس بزجاجاتهم لملئها بما يحتاجونه من الغاز، وكان الغاز يستعمل للإضاءة فحسب، أما الطبخ وما إليه فكان الفحم هو الوقود الذي يستعمله الناس. وكان كل من أراد البدء بالعمل التجاري الصغير ولم يكن له دكان، اشترى تنكة من الغاز وبعض المكاييل، وجلس إلى ركن بين البيوت وأخذ يبيع الغاز على ربات البيوت القريبة، وربما أحضر زجاجة أو أكثر من الحلوى لبيعها على أطفال الحارة والمارين بها من الصبية.

وما دمنا نتحدث عن تجارة الغاز فمن المستحسن أن نتحدث عن أدوات الإضاءة التي كانت مستعملة في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر.

قناديل الزيت:

قبل الغاز كانت هناك قناديل السراج وهي الطريقة القديمة التي كانت تعتمد على الإضاءة بالزيت، وإشعال القنديل بالفتيل الذي يغمس في الزيت، ويستمد وقوده منه. وهذه الطريقة لم أدركها في أواخر الثلاثينات، لأن الغاز كان قد حل محلها. ولكن هذه القناديل كانت موجودة للزينة في المساجد ولعل بعضها لا يزال موجوداً بالحرم المدني الشريف حتى الآن. وأول من أضاء الحرم المكي بقناديل الزيت هو الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.[1]

اللمبة التنك:

أما الإضاءة بالغاز، فقد أدركت منها «اللمبة» وهي عبارة عن إناء من التنك يصنعه السماكرة محلياً، وله فتحة صغيرة يسكب فيها الغاز ويدلي فيها فتيل من القماش، ثم يشعل هذا الفتيل بالكبريت. وكانت تستعمل قبل وصول الفوانيس الهندية التي سيرد ذكرها فيما بعد،

---

(١) انظر كتاب أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي.

وكانت تستعمل لإضاءة السلالم و بيوت الماء، وكانت توضع في مكان لا يصل فيه إليها الهواء، لأن الهواء كان يطفىء الفتيل كما كانت هذه اللمبات تنتج هباباً أسود من الفتيل المحترق.

الفانوس الهندي :

وحينما وصل الفانوس الهندي إلى الحجاز حل محل هذه اللمبات، بوصفه أكثر أماناً، وهو عبارة عن فانوس يسكب في أسفله الغاز، ثم يقفل عليه بسدادة معدنية. ويحيط بالفانوس زجاج سميك بعض الشيء و بداخله الفتيل. وهو أجود نوعاً من فتيل اللمبة لأنه مستورد كذلك من الخارج، ثم يغطي الزجاج بغطاء من نفس المادة المصنوع منها جسم الفانوس وهو من النيكل الجيد، وهناك آلة لرفع الزجاج وخفضه لإشعال الفتيل وإطفائه. كما أن للفانوس يداً مستديرة في أعلاه ليمسك به من يحمله، حتى لا يتعرض لحرارة الفانوس، حينما يكون مشتعلاً. وهذه الفوانيس فيما أظن لاتزال معروفة في البلاد، وربما أنها تستعمل في المناطق التي لم يدخلها الكهرباء بعد، كالقرى النائية عن العمران. وهي على أي حال ترى في بعض الأفلام الأمريكية التي تمثل الحياة القديمة في أمريكا قبل عصر الكهرباء. وهذه الفوانيس كانت على مقاسات مختلفة منها الصغير والمتوسط والكبير، وكانت تعرف بالأرقام. فالفانوس نمرة(٣) هو أكبرها حجماً، ونمرة(٢) هو المتوسط، ونمرة(١) هو الأصغر الذي حل محل اللمبة التي سبق وصفها.

الفانوس المحلي :

وكان الفانوس الذي يصنع محلياً موجوداً في الأربعينات، وكان كبير الحجم وله شكل سداسي وجميع أضلاعه من الزجاج. بينما يتألف هيكله من المعدن الخفيف، وله باب صغير يوجد المصباح في داخله. والمصباح هو عبارة عن لمبة متطورة من الزجاج السميك، يسكب فيها الغاز ولها فتيلة تشبه الفتيل الذي يستعمل في الفانوس الهندي. ولها بعد ذلك زجاجة مستطيلة تتسع في الوسط وتضيق في الأعلى، تحفظ الشعلة، وتزيد من ضوئها. والمصباح كله صناعة خارجية، وله مكنة يركب بها الفتيل. ويمكن تعليته وتخفيضه حسب الإضاءة المطلوبة، وللفانوس يد في رأسه للتمكين من حمله بها. و بعض هذه الفوانيس كان يدخل في أعلاها بعض الزجاج الملون الذي

يز يد من جمال منظر النور، ولا يحجب الإضاءة لأن ما حول المصباح من الزجاج كان أبيض شفافاً. وقد أدركت هذه الفوانيس وهي تعلق في الأزقة المظلمة، وكانت تتميز بحجم أكبر من تلك التي تستعمل في البيوت.

القمرية:

وقبل الفانوس المحلي والهندي كانت هناك القمر ية، وهي مصباح من النحاس الأصفر أو الأبيض الناعم الملمس، يقوم على قاعدة مستطيلة. والمصباح نفسه بشكل نصف دائرة، وبها الفتيل وفي قاعدة المصباح مكينة لملء المصباح، كلما أر يد ز يادة إضاءته. والقمر ية نفسها صناعة خارجية كاملة، ولعلها كانت ترد من تركيا أو الهند. وكانت غالية الثمن فيما يبدو، فلم تكن متوافرة إلا في بيوت الموسر ين. وهي حسنة المنظر ولكنها فيما أظن لم تكن عملية، كما كانت مكائنها تحدث أز يزاً. وأذكر أنني ذهبت إلى مكة المكرمة في الخمسينات، وكنت أنزل في بيت جدتي لوالدي ـ رحمها الله ـ وكانت هذه القمر يات مرصوصة، وكأنها التحف الثمينة فأحببت منظرها، ولكني كرهت أز يزها لأنها كانت تذود النوم عن عيني في ذلك المجلس العتيد.

الأتريك:

وقد حل الأتر يك أخيراً محل الفانوس المحلي والقمر ية، وهو مصباح يعتمد على الكيروسين وقوداً، وله قاعدة معدنية تملأ بغاز الكيروسين، وهيكل زجاجي يحيط بالمصباح الذي كان من مادة غير قابلة للاحتراق. وكانوا يسمونه الكبوت فإذا أر يد إشعاله أشعل بالكبر يت، ثم يشحن المصباح بواسطة عمود معدني للضغط عدة مرات، فيتحول الكبوت الذي هو المصباح من اللون الأحمر إلى اللون القمري الأبيض، وإذا بالنور يبدو ساطعاً متوهجاً. وهناك إبرة صغيرة يعالج بها خرم في أعلى المصباح، لز يادة الإضاءة، كما يتم شحنه بالآلة التي وصفناها كلما خبا الضوء، وكان هذا الا تر يك يستعمل في بيوت الموسر ين والعلية من الناس في البداية لغلاء ثمنه، ولكنه ما لبث أن تعمم فأصبح في كل بيت. وكان المتوسطون من الناس لا يشعلونه إلا حينما يكون لديهم ضيوف يرغبون التجمل أمامهم، وكان نور الا تر يك واضحاً يرى من شبابيك البيوت لشدة ضوئه. ولكنه ما لبث أن أصبح مصباحاً عاماً يستعمله الناس جميعاً، وأصبح يستعمل في

الدكاكين وفي إضاءة الشوارع وفي الدوائر الحكومية، التي كانت تعمل في شهر رمضان بالليل، وتقفل بالنهار. وكانت هذه الأتاريك ذوات أحجام مختلفة منها ما يعلق و يسمى العلاقي ومنها ما يوضع على الطربيزات و يسمى الجلاسي وقد سبق الحديث عنها في وصف حفلات العرس.

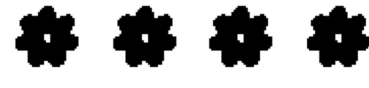
تجارة السمن:

وكانت هناك أيضاً تجارة موسمية أخرى، إذا صح هذا التعبير، هي تجارة السمن. ولم يكن السمن النباتي قد وصل إلى البلاد، ولو وصل في ذلك الوقت لما اشتراه أحد، ذلك أن الناس كانوا يتحرَّون أن يكون الدهن الذي يستعملونه في أطعمتهم وخاصة مع الفول في الصباح دهناً طبيعياً نقياً. وكانوا يعرفون السمن النقي من مذاقه، ذلك أن البعض كان يخلط به بعض الزيت، لغلاء السمن. ولكن الناس عامة كانوا يميزون السمن النقي من السمن المغشوش، سواء أكان هذا الغش بالزيت أو بالشحم، وكان السمن النقي يرد كذلك من البادية في مواسم الأمطار والخصب، وكان ذلك دائماً في فصل الربيع، فيبادر الناس إلى شراء هذا السمن، الذي يرد داخل قرب جلدية كبيرة أو صغيرة، حسب المقدار الذي تحويه من السمن. فيشترون منه ما يكفي لبيوتهم العام أو بعض العام. أما التجار فيشترونه ويخزنونه في التنكات الكبيرة — مفردها تنكة — و يلحمون هذه التنكات، بحيث يبقى السمن محفوظاً في داخلها، ثم يبيعونه في الوقت الذي يحتاج إليه الناس، وكان هناك مثل متداول بين الناس يقول: «من لا يشتري السمن في الثور ثور» أي أن من لا يشتري السمن في فصل الثور، وهو ثاني شهر في فصول الربيع، فهو ثور لأنه أضاع الفرصة في شرائه بالثمن الرخيص.

السمانة:

وكانت هناك دكاكين خاصة لبيع السمن والزيوت، و يسمى أصحابها السمَّانة، أي بائعو السمن. وكانوا يضعون السمن في قدور خزفية كبيرة، فإذا حضر المشترون تخيروا الأنواع التي يريدونها. فهناك السمن البري وهو أفضل أنواع السمن، وأغلاها، ثم السمن البقري الذي يغلب على لونه الإصفرار. بينما يكون السمن البرِّي أبيض ناصعاً، وهذا السمن البري كان يستعمل مع الفول المدمس، ولقلي البيض وعمل بعض الأطعمة التي تعتمد على السمن في معالجة طبخها،

أما السمن البقري فيدخل في الأطعمة الأخرى كالخضار واللحوم وغيرها. وإن كان بعض الذواقة لا يدخلون السمن البقري في أطعمتهم و يعتبرونه ضاراً بصحة أبدانهم و يباع السمن بالتفرقة لمن أراد وزناً.



وحدات الموازين والمكاييل:

وكانت وحدة الوزن هي الأقّة، وهي اثنان وثلاثون أوقية، والرطل وهو اثنتا عشرة أوقية. أما الكيلو فلم يكن معروفاً في التداول، وكان لدى البائعين مكاييل معايرة لوزن السمن، تبدأ من نصف أوقية وتنتهي إلى ثلاث أو أربع أوقيات، وما زاد عن ذلك فيباع بالوزن. وذلك أن يوزن الإناء الفارغ الذي سيوضع فيه السمن، و بعد معايرته بالأوقيات التي هي عبارة عن ثقالات صغيرة من معدن النحاس، ثم يوضع العيار المطلوب فوق هذه الثقالات، ويملأ الإناء بالسمن إلى الحدّ الذي يتساوى فيه مع هذه العيارات، و يسلم لصاحبه بعد ذلك. وكان السمانة لهم موازين من النحاس الأصفر اللامع، وكانوا يعتنون بنظافتها. وكان للميزان كفتان معلقتان بخيوط إلى قطعة من الحديد المستطيل، في وسطها قب الميزان. وكان الزبون يراقب دقة الوزن لأن العملية تتم بمحضر منه، وكان الميزان معلقاً في مكان عال بحيث تراه العيون.

أما وحدة الكيل فكانت الكيلة، وكانت الحبوب والأرزاق عامة تباع بالكيل، كما كان السمن والزيت والغاز والسكر والشاي والبن والتنباك وبعض البهارات الغالية تباع بالوزن. والكيلة عبارة عن ماعون من الخشب مستطيلة الشكل، محزمة بإطارات من الحديد، وكان هناك ماعون للكيلة، ونصف الكيلة، وربعها، وثمنها، ونصف الربع، ونصف الثمن. ولم تكن هذه المكاييل محل تلاعب لأنها تفقد التاجر سمعته، فينصرف عنه المشترون. كما أنه كان لكل فرع من فروع التجارة شيخ يرجع إليه في شؤونها، فهناك شيخ الحبابة، وشيخ السمانة، وما إلى ذلك من مختلف أنواع التجارات الصغيرة والكبيرة على السواء.

شؤون النقد

العملات وأنواعها

كانت العملات المتداولة في الحجاز خلال الثلاثينات وحتى في الأربعينات كثيرة، وكان أهمها بالنسبة للدنانير هو الجنيه الذهب الإنجليزي، ثم الجنيه الذهب العثماني. وإن كان قد بدأ في الانحسار بعد انتهاء الحكم العثماني. وقيام الدولة الهاشمية، وكان هناك الجنيه المسكوفي ولا أدري بالضبط ما هي صحة النسبة فيه؟ هل هو إلى موسكو؟ أي لدولة القيصر، أو أنه لدولة أوروبية أخرى؟ ويسمى في الحجاز بهذا الإسم، كما كان هناك الجنيه البنتو. ولا أعرف كذلك نسبته، وعلى أي حال فإن الجنيه المسكوفي، والجنيه البنتو، كان تداولهما نادراً جداً. وكان أيضاً هناك الجنيه المصري الذهب، وكان أغلى من الجنيه الإنجليزي، وهو أعلى العملات في ذلك الوقت يزيد بمقدار قرشين ونصف ذهباً. أي أن الجنيه الإنجليزي يساوي سبعة وتسعين قرشاً ونصف مصرياً، بينما يساوي الجنيه المصري الذي يحمل صورة الملك فؤاد الأول —والد الملك فاروق— مائة قرش مصري.

الدينار الهاشمي

وحينما قام الملك الشريف الحسين بن علي بالانقلاب على العثمانيين في الحجاز في عام ١٣٣٤ هـ، وأصبح ملكاً على الحجاز، سك ديناراً هاشمياً يحمل اسمه. وكان مسكوكا عليه في الجزء الأدنى من الدينار ملك البلاد العربية، ولكن الإنجليز فيما يبدو، بل والدول الاستعمارية في العالم العربي، مثل فرنسا وإيطاليا، احتجوا على تسمية الحسين ملكاً للبلاد العربية. فسك الشريف الحسين ديناراً آخر كتب اسمه على أحد وجهي الدينار وكتب في الجزء الأدنى منه الناهض بالبلاد العربية(١). ولم يعترض أحد على هذا الإجراء الأخير، لأن قيام النهضة في

(١) انظر كتاب ماضي الحجاز وحاضره لحسين محمد نصيف، صفحة (١٠٩).

الحجاز أدى إلى فتح سوريا. وإن كانت الدول الاستعمارية فيما بينها قد تقاسمت البلاد العربية، وخرج فيصل بن الحسين من سوريا ليتولى ملك العراق تحت الاستعمار الإنجليزي، ثم أسندت إمارة شرقي الأردن إلى الشريف عبد الله بن الحسين تحت الاستعمار الإنجليزي كذلك. ثم تحولت هذه الإمارة فيما بعد إلى المملكة العربية الأردنية الهاشمية وقد بقي هذا الدينار الهاشمي متداولاً طيلة حكم الشريف الحسين، وابنه الملك علي ولكن الجنيه الإنجليزي كما قدمنا كان هو الأكثر تداولاً.

الغوازي والمحموديات والريال الذهب

وكان إلى جانب الدنانير الذهبية التي أشرنا إليها، عملات ذهبية صغيرة. هي الغوازي (واحدتها غازية) وهي من المسكوكات التي تحمل أسماء الخلفاء من الدولة العثمانية. وكان الواحد منهم يسمي نفسه غازياً، ثم المحموديات وهي أكبر من الغازية وكانت تحمل اسم السلطان محمود العثماني. وكان هناك الريال الذهب وهو أكبر من المحمودية وفي حجم الريال الفضة العثماني، إلا أنه أخف وزناً. وكانت هذه العملات لا يجري التداول فيها كعملة مثل الدينار، وإنما يستعمل بعضها للحلي كأن تعمل منها عقود للنساء أو تهدى في مناسبات الأفراح، كالأعراس والولادة وما إلى ذلك.

العملات الفضية :

بالرغم من أن فترة حكم الشريف الحسين، وابنه الشريف على للحجاز، امتدت أكثر من عشرة أعوام. وبالرغم من أن الشريف الحسين قام بسك الريال الهاشمي، إلا أن العملات الفضية التركية كانت هي السائدة في طول البلاد وعرضها. وكانت وحدتها الريال المجيدي، وهو ينسب إلى السلطان عبد المجيد، الذي تنسب إليه توسعة المسجد النبوي الشريف في عصر الخلافة العثمانية الأخيرة. والذي يسمى باسمه باب المجيدي. وهناك نصف الريال المجيدي، وربعه، ثم العملة الصغيرة منه بقيمة قرشين. ولم تنته العملة الفضية العثمانية من التداول إلا في العهد السعودي حينما تم سك الريال العربي السعودي، الذي يحمل اسم جلالة المغفور له الملك



الوجه الأول من الدينار الهاشمي



الوجه الثاني من الدينار الهاشمي

صورة للدينار الهاشمي المضروب بمكة المكرمة سنة ١٣٣٤ هـ



الوجه الأول من الريال الهاشمي



الوجه الثاني من الريال الهاشمي



الوجه الأول من ربع الريال الهاشمي



الوجه الثاني من ربع الريال الهاشمي

صورة للريال والربع ريال الهاشمي

عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وقد أدركت الريال المجيدي الفضة في أواخر العهد الهاشمي، وسعر الجنيه منه بسبعة ريالات مجيدية. وكان ريالاً كبير الحجم مثل الريال السعودي الأول الذي ظهر فيما بعد، وكان الريال المجيدي يساوي عشرين قرشاً، والقرش الواحد أربع هللات، والهللة الواحدة تساوي عشرين بارة، بمعنى أن الواحدة في العملة كانت هي الوحدة العشرين وليست الوحدة المئوية كما هو الحال الآن.

الشريف الحسين وأسعار العملة

وكان الشريف الحسين-غفر الله له-يحدد أسعار صرف العملة للجنيه الواحد. وكانت كما أدركتها في حدود سبعة ريالات للجنيه، فإذا خالف الصيارفة ذلك زيادة أو نقصاً أنزل بهم أشد العقاب، وكان الجزاء غرامة نقدية تصل إلى مئات الجنيهات. ومن كان يمتنع عن الدفع يسجن في القبو وهو سجن مظلم تحت الأرض، فلا يكون أمامه إلا دفع الجزاء المطلوب إن كان قادراً على تأديته أو البقاء في هذا السجن الرهيب حتى يأذن الله له بالفرج.

الريال الفرانسة

وكان إلى جانب الريال المجيدي الفضي ريال آخر تستعمله بادية الحجاز، ولا ترغب عنه بديلاً، وكان يسمى الريال الفرانسة. ولا يظن القارىء أنه ريال فرنسي كما يتبادر إلى الذهن لأول مرة، فهو ريال نمساوي كانت عليه صورة ماري تريزا امبراطورة النمسا، يوم أن كان لهذه الامبراطورية شأن عظيم في العالم، أيام حكم آل هابسبورج. والذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الأولى، وكان ريالاً كبير الحجم تزيد زنته عن الريال المجيدي، وكان سعر الجنيه الذهب يساوي خمسة ريالات من هذا النوع. وكانت له وحدات النصف والربع، إلا أن هذا الريال ما لبث أن انتهى من الوجود بحكم انتهاء الدولة التي تصدره وبحلول العملات المحلية محله.

العملات المعدنية

وكانت إلى جانب العملات الفضية، العملة المعدنية من النيكل، وكانت وحدتها، القرش، ونصف القرش، وربع القرش، ثم الهللة، وهي من الحديد. وفي الأربعينات كانت العملة المعدنية الهاشمية هي المتداولة في البلاد.





صورة للعملة النمساو ية التي كانت متداولة في بادية الحجاز

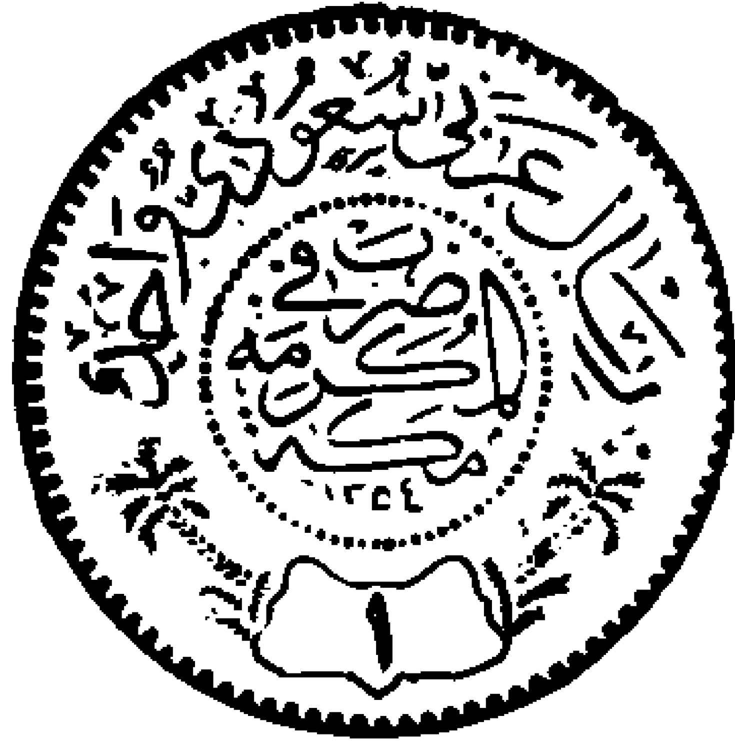
طمس الإسم :

وحينما فتحت مدينة جدة، وخلص حكم الحجاز للمغفور له الملك عبد العزيز في عام ١٣٤٤ هجرية، قامت الحكومة الجديدة بطبع كلمة «الحجاز» على العملة النيكلية الموجودة في خزائن الدولة. ونادى مناد في الناس أن يستبدلوا العملة النيكلية التي بحوزتهم بالعملة الجديدة التي طبع عليها كلمة «الحجاز» وذلك باستعمال الضغط الحديدي لطبع هذه الكلمة على العملة الهاشمية الموجودة في أيدي الناس وما لبثت الحكومة السعودية أن قامت بسك العملة الخاصة بها من النيكل ثم من الفضة، وكانت تحمل في البداية اسم المغفور له الملك عبد العزيز، وعلى الوجه الآخر لقبه الرسمي بعد فتح الحجاز وهو ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها.

العملات السعودية

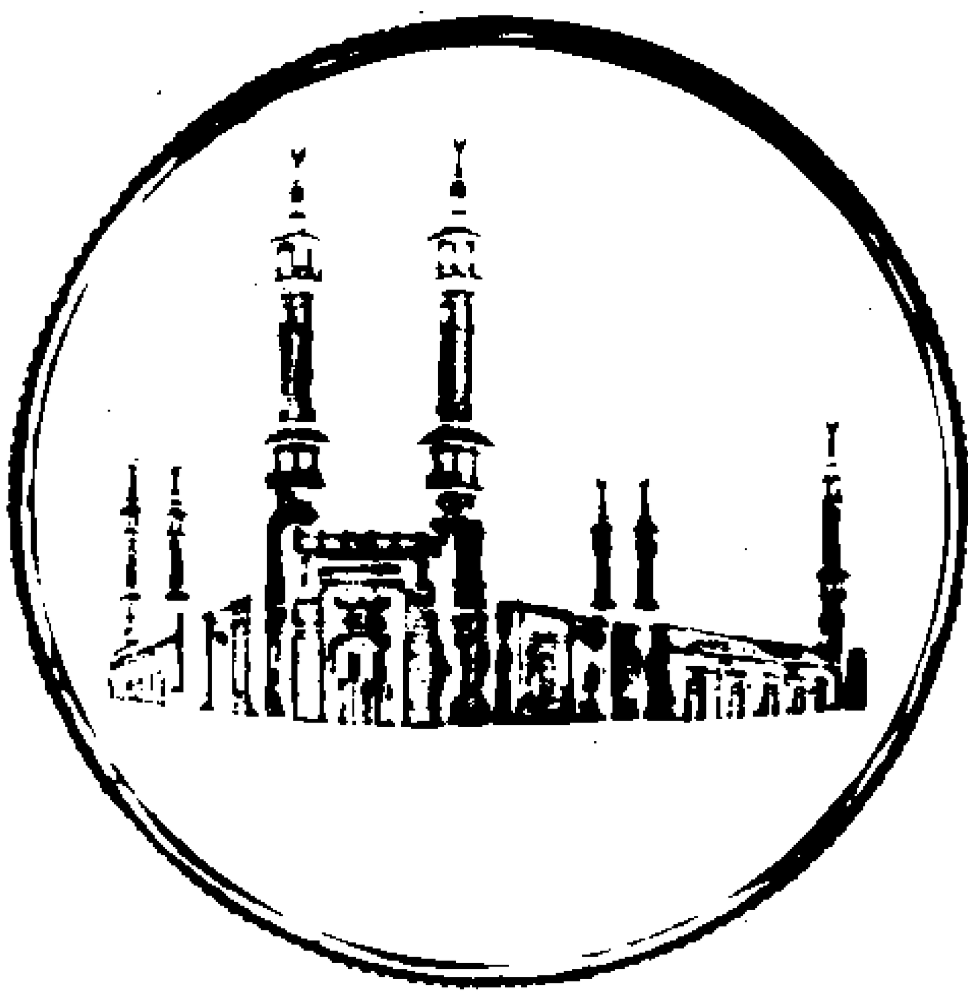
في أوائل العهد السعودي كان سعر الجنيه الذهب الإنجليزي بعشرة ريالات، وحدد سعر الريال باثنين وعشرين قرشاً دارجاً، والقرش الأميري هو ضعف القرش الدارج، فتكون قيمة الجنيه مائة وعشرة قروش أميرية. وكانت تسمى في ذلك الوقت قروشاً ذهبية، وبتعبير آخر فإن الجنيه الذهب يعتبر في المعاملات الحكومية والتجارية مساوياً لمائة وعشرة قروش، وفي المعاملات اليومية العادية بمائتين وعشرين قرشاً. وحينما قامت الحكومة السعودية بسك الريالات الفضية وأنصافها وأرباعها، كان هذا هو سعرها الرسمي. وكان الريال السعودي الأول كبير الحجم ثقيل الوزن، ربما بلغ وزنه وحجمه ثلاثة ريالات من الريال الفضي الموجود بعضه في الأسواق. وبعد الحرب العالمية الثانية في أواخر الستينات قامت الدولة بسك الجنيه السعودي الذهب وحددت سعره بقيمة أربعين ريالاً من الفضة. وقد ظل هذا السعر سائداً بالنسبة للريال والدينار السعودي، ماعدا فترات بسيطة حدث فيها بعض التضارب فتضاعف سعر الجنيه الذهب الإنجليزي ووصل إلى ثمانين ريالاً، وذلك قبل سك الجنيه السعودي. ولكن الدولة ما تلبث أن تتدخل لإعادة الأمور إلى نصابها، لأنه في الواقع لم يكن هناك ما يوجب الخوف أو الشك بالنسبة للعملات في ذلك الوقت بالذات.





وصورة الريال العربي السعودي





صورة الدينار الذهبي التذكاري يحمل صورة جلالة المرحوم الملك فيصل

التعامل بالعملات المسكوكة :

فالناس كانوا يتعاملون بالعملات المسكوكة من الذهب والفضة، وهذه العملات تحمل رصيدها فيها، إذا صح هذا التعبير. و يبدو أن الناس رأوا هبوط العملات الورقية مثل الجنيه المصري، الذي وصل سعره إلى ستة جنيهات بنكنوت، فقاسوا على ذلك، وهو قياس خاطىء، لأن العملات الورقية أو البنكنوت تكون أرصدتها في خزائن الحكومات. بينما أن العملات الذهبية والفضية المسكوكة تحمل أرصدتها فيها، ولهذا فإن الدول حينما تصدر العملات الورقية تستبدلها بما في أيدي الناس من العملات المسكوكة وتحفظ هذه العملات في خزائنها كجزء من الأرصدة للعملات الورقية.

هذا وقد ظل الناس في الحجاز وفي نجد وفي كافة أرجاء المملكة يتعاملون بالعملات المسكوكة. وكان كل تاجر له في محله خزائن حديدية متينة لحفظ العملات وخاصة الذهبية منها. وكان كذلك لدى كل تاجر من يقوم بمهمة عد النقود وترتيبها في الصناديق و يسمى الواحد منهم عداداً. وكانوا يعدون النقود الذهبية كل عشر ين جنيهاً و يرصونها صفوفاً فيما يشبه المائدة الخشبية الصغيرة التي لها جوانب من الخشب أيضاً تستند إليها صفوف الدنانير حين عدها. فإذا بلغت الألف وضعت في كيس صغير من قماش متين وحزمت وختمت بالشمع الأحمر بختم التاجر أو المحل، ثم حفظت في الصندوق الحديد. وكان أهل نجد يسمون هذه الصناديق «التجوري» و يشترونها من الحجاز لهذه الغاية، أما الر يالات الفضية فكانت تحفظ في أكياس الخيش بعضها يحمل الألف والبعض يحمل الخمسة آلاف ثم تربط أفواه هذه الأكياس برباط متين، وفي الدوائر الحكومية التي تتسلم النقود من أصحاب المعاملات كالجمارك ودوائر المالية وغيرها كان هناك العدادون الذين يتسلمون هذه النقود و يعدونها. وتبقى في حجرة الصندوق أكياساً مرصوصة بعضها فوق بعض فإذا انتهى موعد الدوام الحكومي، بادر أمين الصندوق إلى قفل باب الحجرة المخصصة لحفظ الأموال بقفل متين، ثم ختم فوهة القفل بالشمع و بختم الدائرة. وكان هناك الجنود يتناو بون الحراسة أمام هذه الغرفة إلى أن يتم فتحها في اليوم التالي بعد التأكد من سلامة الختم والشمع، وكان الصرافون يحفظون النقود في صناديق كبيرة. وكان الواحد منهم يحتفظ بصندوقين أو أكثر لأن دكاكينهم في الأسواق معرضة للعيون، وفي الأيام التي تكون لديهم من العملات ما لا تستوعبه الصناديق فإنهم ينتدبون الأمناء من العدادين لديهم للمبيت في محلاتهم لحراسة هذه النقود.

حجرة النقود:

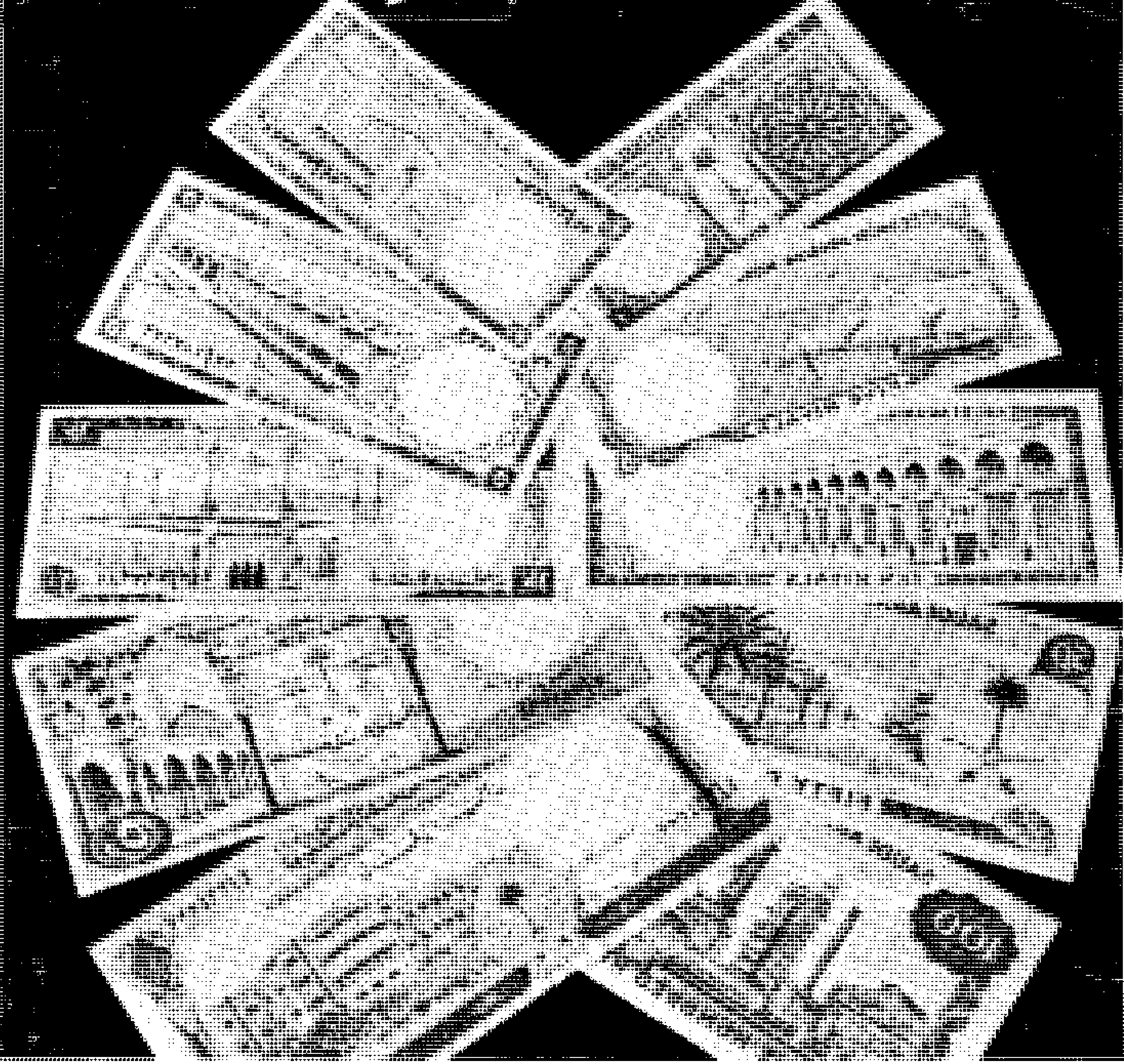
هذا وكان يعرف أن بعضاً من كبار أثرياء نجد يحفظون العملات الفضية في حجر خاصة بها فإذا امتلأت الحجرة بهذه الأكياس سدت منافذها بناء بالحجارة إلى حين الحاجة إليها.

دفن الذهب:

كما علمت أن بعضاً من كبار أثرياء جدة كانوا يدفنون أكياس الذهب في مخبأ تحت الأرض لا يعرفه غيرهم. فإذا صارت الحاجة إلى هذا المال، أخرج من مخبئه. وقد أخبرني بعضهم أنه قام بتعداد هذا الذهب المخبوء فكان حار الملمس لطول بقائه تحت الأرض. وهذا وذاك إن دل على شيء فإنما يدل على أنه كان هناك مال فائض لا يعرف الناس طريقاً لاستثماره فيسجنونه في الحجر أو يدفنونه في مخابيء تحت الأرض. ولم تكن هناك بنوك يودع الناس فيها أموالهم، وربما أنها لو وجدت لما كان من السهل على الناس الثقة بها من بداية تأسيسها.

الصرافون:

على أي حال كان هناك صرافون كثيرون، يتمتعون بسمعة حسنة بين الناس. وكان صغار التجار ممن لا يملكون خزائن حديدية يودعون أموالهم لديهم و يتعاملون معهم، ولكن مهمة الصرافين الأصلية كانت تقوم على تغيير العملات من الذهب إلى الفضة بالعملة المحلية، ومن العملات الأجنبية إلى العملات المحلية وخاصة في موسم الحج، ذلك أن الحجاج يصلون وهم يحملون عملات بلادهم روبيات جاوية أو هندية أو جنيهات مصرية أو عثمانية أو جنيهات إنجليزية. والجميع يحتاجون حين وصولهم إلى أرض الحجاز أن يبدلوا هذه العملات بالعملات المحلية ولم يكن يقتصر العمل في تبديل العملات على الصرافين وحدهم، وإنما يعمل في هذه الصناعة الكثير من الناس في أماكن تواجد الحجاج، ابتداء من منطقة السؤال في ميناء جدة، إلى ما حول بيوت وكلاء الحجاج الذين كانوا يسكنون الحجاج في بيوتهم، أو في البيوت التي



صورة لأوراق النقد للر يالات السعودية

يستأجرونها لهذه الغاية، قر يباً من بيوتهم. ولم تكن هناك مدينة حجاج البحر بعد، فضلاً عن مدينة حجاج الجو، وكان معظم وكلاء الحجاج في حارة اليمن. وكانت تتحول شوارع هذه المحلة إلى سوق يعج بالحركة، و ينصب عليه الباعة بسطاتهم ابتداء بالطعام والملابس وانتهاء بالصرافين.

تهريب الذهب :

وكانت العملية محاطة بالأخطار الكثيرة، وخاصة بعد أن انتبهت الدولة إلى ما يجري من نزح الذهب إلى الخارج. فمنعت تصديره، وبعد هذا المنع ارتفعت أسعاره، وخاصة في أيام الحرب العالمية الثانية. وإني لأذكر أن الربح كان في الجنيه الذهب الواحد جنيهاً مصرياً واحداً. فمن كان يستطيع تصدير ألف جنيه من الذهب فقد ربح فيها ألف جنيه مصري. وكان الكثيرون ممن يخافون على سمعتهم وكرامتهم قد امتنعوا عن المغامرة بتصدير الذهب. ولكن البعض استمر يعمل في الظلام، الخلاصة أن الذهب المصدر إلى الخارج كان يتحول إلى روبيات هندية لدى بعض البيوت التجارية في عدن وكانت تحول قيمة البضائع المطلوبة من هذه الروبيات في عدن لحساب التجار في مدينة جدة. وكانت العملية يتخللها وسطاء كثيرون كما ذكرنا ولهذا فإن الناس لجأوا إلى التعامل مع البنك الهولندي ومع الصرافين الكبار الذين أصبحوا يقومون بمهمة التحويلات النقدية لما يرغب التجار تحويله لقاء البضائع المستوردة.

رأس الرجل ورأس البنت :

بعد أن أصبح التجار مطمئنين إلى التعامل مع الصرافين، ومع البنك الوحيد الموجود في البلاد، قام بعض الصرافين بتدبير طريقة يحملون بها التجار على إيداع أموالهم لديهم، فأخذوا يميزون بين أنواع الدنانير الإنجليزية، فكان سعر الجنيه الذي يحمل صورة رجل يزيد عن سعر الجنيه الذي يحمل صورة امرأة. ولكن إذا أودع التجار دنانيرهم عند أحد الصرافين فإن هذا الفرق يذوب ويتلاشى ما بقيت هذه الدنانير لدى الصراف. ثم لجأوا إلى تمييز الجنيه الذي يحمل صورة الملك جورج الخامس عن الجنيه الذي يحمل صورة الملك إدوارد. وكان العارفون ببواطن الأمور يدركون أنها حيلة من الصرافين لإخراج هذه الدنانير من خزائن التجار إلى خزائن الصرافين. وقد انتهت هذه الألاعيب جميعها ببروز الدينار السعودي الذهبي الذي أصبح أكثر ميزة ورغبة لدى الناس.

وفي أواخر الستينات فتح البنك العربي أول فرع له في مدينة جدة بتشجيع من الدولة التي كانت تملك اسهماً فيه ولها عضو في مجلس إدارته.

البنوك السعودية :

أما البنوك السعودية فلم تظهر إلى النور إلا في أوائل السبعينات. وكان أولها البنك الأهلي التجاري الذي أسسه آل الكعكي، والشيخ سالم بن محفوظ، ثم ظهر بنك الرياض، ثم البنك الوطني، ولكن هذا الأخير تعرض لبعض المصاعب فعهدت الحكومة إلى بنك الرياض بتحمل مسؤولياته. وقامت الدولة بكفالة الودائع فيه للمواطنين، ثم تتابعت البنوك عربية وأجنبية تفتتح فروعاً لها ثم تحولت إلى بنوك سعودية كما هو حادث في الوقت الحاضر.

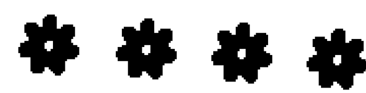
الأسعار والمعيشة وتكاليفها

لكي يكون حديثنا كاملاً عن التجارة وأحوالها، لا بد وأن نتحدث قليلاً عن المعيشة وتكاليفها بإيراد بعض الأسعار التي كانت سائدة خلال الأربعينات والخمسينات وحتى أوائل الستينات ليكون لدى القارىء صورة عن تكاليف الحياة في البلاد.

كان كبار الموظفين من درجة مدير فما فوق، يتقاضون مرتبات تبدأ بالألف قرش أميري، وتنتهي إلى ألف ومائتين أو ثلاثمائة. وكان الريال الواحد يساوي أحد عشر قرشاً أميرياً. ومعنى هذا أن مرتب المدير ورؤساء الكتاب وأمناء الصناديق وكبار المأمورين، كانت تتراوح ما بين مائة ريال إلى مائة وخمسين ريالاً على الأكثر. وعلى سبيل المثال أذكر أنني كنت أعمل مديراً لمكتب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان في مكة المكرمة من عام ١٣٥٥ إلى عام ١٣٦٤هـ، وكانت وظيفته الرسمية مدير عام وزارة المالية، وكنت أتسلم مرتبه شهرياً من خزينة الوزارة، وكان هذا المرتب ثلاثة آلاف قرش أميري، أي ما يساوي مائتين وسبعين ريالاً، لا تخصم منها الطوابع، وكانت وظيفة الشيخ محمد سرور إحدى كبريات الوظائف في الدولة، بحيث لم يكن أعلى منها إلا وكيل الوزارة الشيخ حمد السليمان -يرحمه الله- وكانت مرتبات الكتّاب والمأمورين تتراوح ما بين ثلاثمائة قرش وتنتهي إلى نحو ألف قرش. وأذكر أنني كنت أعمل مساعداً لمأمور الحوالات والطرود في بريد جدة بمرتب ثلاثمائة قرش، ثم وصل إلى أربعمائة قرش أميري، وكان هذا في عام ١٣٤٦هـ. وكانت وظيفة مأمور الحوالات والطرود

وظيفة مكفولة، لأن على من يتولاها أن يقدم كفالة عينية، كأن يرهن حجة بيت، أو يقدم كفيلاً مالياً غارماً، لأهمية الوظيفة المذكورة. وكان مرتب المأمور الشيخ سالم ناظر-يرحمه الله-ألف ومائة قرش أميري.

هذه المرتبات تعطي فكرة عن مستوى الحياة إلى أواسط الستينات، أما بالنسبة لتكاليف المعيشة فإن قيمة الخروف الواحد كان ثلاثة ريالات، وكانت مصاريف البيت المتوسط الذي يتكون أفراده من سبعة إلى ثمانية أشخاص لا تتجاوز الثلاثة ريالات كذلك، وكانت أجرة الخادم الصغير ثلاثة ريالات في الشهر، أما خادم الدكان والمكتب فكان يبدأ بجنيه واحد شهرياً ثم يتدرج في الزيادة كل عام حسب أهمية هذا الموظف لصاحب العمل. وكان هؤلاء العمال يعيشون في منزل صاحب العمل و يطعمون و ينامون وتقدم لهم الكساوي في كل عام.



الباي بربع ريال:

وعلى سبيل المثال كان أهل مكة إذا انقضى الموسم خرجوا في رحلات خارج مكة، وربما اصطحبوا معهم من يغني لهم الأغاني، و يذبحون الخراف و يأكلون السليق الذي يسمونه الآن «الرز العربي» وهو طعام معروف في الوقت الحاضر ولا حاجة لتعريفه. وسنتعرض لوصفه في باب الأطعمة فيما بعد. و يكون الباي لكل فرد من المشاركين في الرحلة هو ربع ريال، والباي هو حصة كل شخص في تكاليف هذه الرحلة، التي تشمل الطعام والتسلية بأنواعها وربما المبيت. وقد خصصت أهل مكة بالذكر لأنهم كانوا أكثر حيوية في إقامة هذا النوع من الرحلات الجماعية، فهم إن أبعدوا ذهبوا إلى الجعرانة، وإن اقتربوا ذهبوا إلى التنعيم، أو منى، وربما ذهبوا كذلك إلى وادي نعمان، أما أهل جدة فكان البحر هو محل رحلاتهم كما سبق ذكره عن جزيرة أبو سعد وأم علي فيما سبق.

الحسابات والدفاتر وأدوات التحرير

(الدفاتر وأنواعها)

كانت الحسابات التي يسجلها التجار في دفاترهم قائمة على طريقة تبدأ بسيطة وتنتهي معقدة، بحيث لم يكن يتقنها إلا القلة القليلة من المحاسبين. ولم يكن هناك بيوت المحاسبة، ولا المحاسبون القانونيون، الذين ينظمون للتجار المحاسبة ودفاترها، ومستنداتها، وإنما كان هناك محاسبون أفذاذ يوجد منهم واحد في كل بيت تجاري على الأقل، وكانوا يتعلمون هذه الصناعة من بعضهم وذلك بالتدرج في هذه الأعمال وإتقانها بالمران الطويل والممارسة اليومية.

دفتر الخرطوش:

وكان الدفتر الأول في البيت التجاري هو دفتر الخرطوش، وهو عبارة عن دفتر صغير الحجم تبلغ أوراقه مائتي ورقة، وله جلد متين. وكانت تقيد فيه جميع العمليات التي تتم يومياً ساعة إتمامها و يتم القيد في هذا الدفتر بطريقة «البقش» فإذا باع التجار مثلاً مائة كيس من الأرز لتاجر آخر وكان البيع يتم بواسطة الدلالين —وسيأتي الحديث عنهم— أمر التاجر الكاتب بأن يسجل البيعة في الخرطوش فيكتب مثلاً:

مباع على فلان بواسطة الدلال الفلاني مائة كيس أرز هورة بسعر كذا وقد قبض منه مبلغ كذا دلالة والباقي يدفع في التاريخ الفلاني.

وكذلك إذا اشترى بيعة من تاجر آخر أو وردت له بضائع من الخارج، أو أرسل بضائع إلى عملائه في مكة أو المدينة، يسجل كل ذلك في دفتر الخرطوش، وتسجل كل عملية على انفراد في بقشة خاصة بحيث تظهر كل عملية مستقلة في قيدها عن العمليات الأخرى.

هذا الدفتر الذي يمكن أن نعتبره الدفتر الأساسي لتسجيل الأعمال ينتقل إلى الباش كاتب وهو رئيس الكتّاب ورئيس الحسابات فيقيد في دفاتر كثيرة هي على الترتيب:

دفتر اليومية — دفتر الصندوق — دفتر الذمامات — دفتر الصوافي أو دفتر الحوش.

أما دفتر اليومية فهو الدفتر الكبير الذي تنقل فيه الأعمال اليومية المسجلة في دفتر الخرطوش، ولكن بطريقة أكثر تنظيماً، ذلك أن به خانات متعددة، خانة للبيع بالنقد توضع فيه الأرقام التي وردت أو صرفت نقداً، فيكون متفقاً في النهاية مع دفتر الصندوق، الذي يكون في يد أمين الصندوق إن وجد، بحيث إذا تم جرد الصندوق اتفق مع اليومية من حيث الداخل والخارج من النقود.

أما دفتر الصندوق فهو خاص بالأعمال النقدية فقط، ودفتر الذمامات خاص بالأعمال التي تباع فيها البضائع أو تشترى على الحساب الجاري، وفيه صفحة أو صفحات خاصة بكل عميل من العملاء، في الداخل والخارج تسجل فيه العمليات اليومية كذلك.

ودفتر الحوش هو في الواقع دفتر المستودع، والذي يبين البضائع الواردة والخارجة. وكانوا يسمونه دفتر الحوش لأن البضائع كانت تخزن في أحوشة خاصة بالتاجر، و بعض التجار يشتركون في حوش واحد أو يفرقون بضائعهم في أحواش مختلفة وكان أمناء هذه الأحواش يسمونهم المقادمة (واحدهم مقدم).

المقدم

والمقدم هذا هو المسؤول عن بضائع التاجر أو التجار. فإن كان التاجر يملك حوشاً خاصاً به، اختار له مقدماً ليكون الحوش بما يحتوي عليه من بضائع في عهدته. و بعض المقادمة يستأجرون الأحواش و يتقبلون البضائع التي ترد لهم من التجار، وكان لهم مبلغ معين على كل شوال من البضائع، هو عبارة عن قروش معدودات و يسمى هذا الجعل «الفسح» أي ثمن الفسح. وكانت البضائع المباعة يعطى بها «فسح» أي إذن كتابي مطبوع بطريقة خاصة تحت اسم البيت التجاري، مكتوب به مقدار البضاعة المباعة، واسم التاجر المباع عليه. فيسلم المشتري هذا الفسح للمقدم و يتسلم البضاعة و يدفع له المبلغ المعين على هذه البضاعة فيفسحها له المقدم، و بعد ذلك هناك الحمالون الذين يحضرهم المقدم والذين يتقاضون مبلغاً معيناً على كل كيس مقابل الحمالة من الحوش إلى ظهر العربيات التي تنقل البضاعة إلى مخزن التاجر، أو تحميلها على الجمال، إذا كانت منقولة إلى مكة أو المدينة. وهؤلاء لهم أجور معينة تسمى أجرة الحمالة، وكان هؤلاء المقادمة الذين أدركتهم جميعاً من الحضارمة. وكانوا مشهورين بالأمانة، ولم أسمع

عن تفريط حصل منهم، إلا في حادثة واحدة حينما بدأ أحد المقادمة يشتغل بالتجارة فخلط بين البضائع التي يملكها والتي كانت في عهدته فكانت بذلك نهايته كمقدم وكتاجر.

الدوبيـا:

كانت طريقة الحسابات المتبعة، والتي أسلفنا وصف دفاترها طريقة القيد فيها تسمى «الدوبيا» وأرجح أن الكلمة هندية، وتدل على شيء ثنائي، لأن كلمة دوالهندية معناها اثنين، ولست في الواقع قادراً على إعطاء الوصف الدقيق لطريقة الدوبيا، لأنني لم أتعلمها. ولكن ما أعرفه عنها أن هناك أرقاماً نهائية في التصفية الشهرية ثم السنوية يجب أن تكون متطابقة مع الدفاتر الرئيسية، ومن هنا جاءت الثنائية في الأمر كما يبدو. المهم أن العارفين بحساب الدوبيا كانوا قلة تعد على أصابع اليد الواحدة، وكانوا يقضون الليالي الطويلة المضنية لمراجعة الحسابات. لأن أي اختلاف في أي رقم أو خطأ في أي قيد يظهر في عدم التطابق في الأرقام النهائية، ولذلك لم يكن هناك من يقدم على تحمل مسؤولية هذه الحسابات إلا القلائل، الذين أشربوا حب هذا العمل وعكفوا عليه سنين طويلة، ووجدوا التشجيع من معلميهم وهم الرؤساء الذين سبقوهم في هذا المجال.

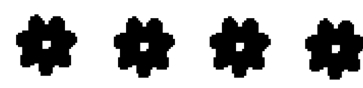
بيوت التجار هي المدرسة التجارية:

ولعلي لا أكرر الحديث إذا ذكرت أن التجار كانوا يتخرجون في البيوت التجارية بالعمل ككتاب مبتدئين فيها. فيتعلمون كيف يمسكون القيود التجارية، وكيف يتم البيع والشراء، كما يتعلمون طريقة الاستيراد من المكاتبات التجارية، التي كان يتولى الإملاء فيها التاجر نفسه، وكانت هذه المكاتبات تحفظ مطبوعة بطريقة الضغط بواسطة مكائن حديدية، وتسجل في دفاتر ذات ورق خفيف من نوع «البرشمان» الشفاف فإذا قضى الكاتب سنوات طويلة في البيت التجاري وآنس من نفسه القدرة على العمل منفرداً أو بالشراكة مع بعض الناس بادر بفتح محل خاص باسمه وبدأ عمله منفرداً أو بشراكة آخرين(١).

(١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع كتابنا أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر.

الدلال :

كانت الصفقات التجارية تتم بواسطة الدلال، وهو الوسيط الذي يتمم الصفقات بين التجار بيعاً وشراء. وكان هؤلاء الوسطاء يعرفون التجار معرفة جيدة، وبعضهم يختص بتاجر معين إذا كان عمله كبيراً. والكثير منهم يعملون مع كثير من التجار، والدلال حينما يتمم الصفقة، يأخذ العينات للبضاعة المنوي شراؤها من البائع. وتكون جميع مواصفاتها واضحة وربما ذهب للحوش، فأخذ العينة من الأكياس التي ترص فوق بعضها البعض وتؤخذ هذه العينة بواسطة «القصبة» وهي عبارة عن آلة من النحاس مجوفة، ولها طرف مدبب. فيغرس هذه الآلة من الطرف المدبب في الكيس فتخرج العينة من خلاله، فيعاينها الدلال ثم يذهب بها إلى الشاري ليطلعه عليها، وليحتفظ بها للمقارنة فيما بعد. فإذا تم الاتفاق على السعر صافح الدلال البائع نيابة عن المشتري وسلمه العربون أو المبلغ كاملاً إن اشترط التاجر ذلك، ثم تسلم فسح البضاعة من الحوش. وكانت عمولة الدلال هي ١/٨ ثمن في المائة، واحداً من ثمانية من واحد في المائة، وكان أغلب الدلالين كما ذكرنا من الحضارمة، وقد أدركت بعض هؤلاء الدلالين ولهم سمعة محترمة كالتجار، ويرتدون الجبة والعمامة الألفي الحجازية، ولهم مكانة وتقدير. وكان أغلبهم كذلك من الحضارمة، وبعضهم من التجار السابقين الذين تأخرت أحوالهم، فلم يستطيعوا مباشرة العمل التجاري، وقنعوا بدور الوسيط وكان ما يدره هذا الدور عليهم يكفيهم، لأن كل الأعمال إنما كانت تتم بواسطة الدلالين، وخاصة قبل دخول التلفونات، بل وحتى أن دخول التلفونات لم يؤثر على أعمال الدلالين لأن التجار كانوا يتفادون الإحراج في حالة الإختلاف لما تربطهم مع بعضهم البعض من أسباب الصداقة، فكان الدلالون هم الوسطاء المأمونون لإتمام صفقات البيع والشراء.



مزاورة التجار لبعضهم :

ومن أجمل ما أدركته من العادات الحسنة بين التجار، أنهم كانوا يتزاورون مع بعضهم البعض بطريقة تكاد أن تكون يومية. فكان لبعض التجار أماكن خاصة في مقدمة أحواشهم مفروشة بالسجاد، وكان التجار يفدون إلى هذه الأماكن صباحاً، يتناولون فيها القهوة والشاي. وكان أشهرها حوش الشريف مهنا، وحوش الشيخ إبراهيم الصنيع -رحمهما الله- وبيت الشيخ عبد الرحمن باناجة، وبيت زينل، وكانوا جميعاً ينزلون إلى أعمالهم مبكرين، وبعضهم يبدأ هذه الزيارات قبل الوصول إلى محله إن كان في طريقه إليه. أو البعض يذهب إلى محله أولاً، ويصرف الأمور، ثم يذهب قبل الضحى لهذه الزيارات، وكان الأصغر سناً يبدأ بزيارة الكبار ويحترمهم، ويؤدي لهم حق الأصغر على الأكبر، وكان أولئك يبادلون الصغار الحب ويمحضونهم النصح. وعلى أي حال فإن جلسة المساء في باب جديد كانت تجمع التجار فيتحدثون، ويصلون المغرب ثم يعودون، وتستمر الزيارات بطريقة منتظمة في أماكن تعودوا الاجتماع فيها والسهر، وكان البعض منهم يجتمع بعد صلاة العشاء للعب الورق، وكان الباصرة أولاً ثم الجوكر ثم البلوت وهو اللعب المعروف حتى الآن. والذي له هواة كثيرون حتى من المتعلمين. وكان التاجر المسافر يذهب الجميع لتوديعه حين السفر واستقباله حين العودة، بل كانت هذه عادة البلدة لكل مسافر تقريباً، فالمدينة صغيرة، والناس يعرفون بعضهم بعضاً، ويعرفون أحوال بعضهم البعض، وكان المسافر القادم يرد الزيارة لكل من زاره مهنئاً بسلامة العودة ومن يتأخر عن ذلك تسلقه الألسنة لوماً ومؤاخذة.

وكان يوم الجمعة، أو النصف الأول منه، مخصصاً لهذه الزيارات، فجميع التجار يجلسون في بيوتهم إلى ما قبل الصلاة لتقبّل الزيارات، ولزيارة بعضهم البعض، فإذا اقترب موعد الصلاة سارع الجميع إلى المسجد وتركوا البيع والزيارة.

هكذا كان الناس أكثر اتصالاً وتقارباً، وحتى هذه الطبقة التي صناعتها التجارة والمال لم تكن تغفل هذه الواجبات الاجتماعية بحال من الأحوال. ولعل السبب في ذلك هو أن هذه الأعمال مهما كبرت فهي محدودة بحدود المدينة التي يعيشون فيها، كما أنهم كانوا يراعون هذه الواجبات الاجتماعية بحكم تجاورهم، وصلات القرابة، والصداقة بينهم، وكنت تلمس صلات الود والاحترام التي تجمع بين الجميع.

الفصل السابع

الصَنائع والفنون

الصنائع والتصنيع الذي أدركناه في الأربعينات كان ينحصر في ما يحتاج إليه المجتمع في ذلك الوقت، وكان قوامه جماعات معينة، أو أفراداً فنيين توارثوا هذه الصناعات عن آبائهم، أو تعلموها من صناع مهرة تدربوا على أيديهم، وسنتحدث عن أهم هذه الصنائع فيما يلي:

صناعة المسابح اليسر

لعل صناعة المسابح من مادة اليسر كانت أدق هذه الصنائع وأكثرها مشقة، فلقد كان اليسر وهو شجر أسود يستخرج من قاع البحر الأحمر يتناوله هؤلاء الصناع، فيقطعونه و يشذبونه ثم يصنعون منه حبات المسابح المعروفة من اليسر، و يثقبونها لتنتظم حبات المسبحة عقداً متساو ياً في الحجم، متماثلاً في الشكل بحيث لا تشذ فيه حبة من حبات هذا العقد، التي تلمسها الأنامل بصورة متكررة في كل يوم وليلة خمس مرات، إن لم تكن أكثر، وكانوا كذلك يصنعون لهذه المسابح الإمام، وهو عبارة عن قطعة مستطيلة من نفس المادة تجمع طرفي العقد بعد انتظامها في الخيط الذي نظمت فيه، كما يصنعون لها الفواصل التي تفصل بين أعداد معينة في المسبحة، والمسابح الكبيرة الحجم تتكون عادة من تسع وتسعين أو مائة حبة، وحباتها صغيرة أو متوسطة الحجم، أما المسابح الصغيرة التي يسمونها الثلث فهي تتكون من ثلاث وثلاثين حبة، حباتها كبيرة نوعاً ما ولها إمام وفاصلتان كذلك، وكانت تتم صناعة هذه المسابح بدقة وإتقان فتظهر في شكل جميل أملس لماع، ولقد كنت أرى صناع المسابح وهم يقومون بهذه الصناعة في حوانيتهم، أو في دهاليز بيوتهم، وأمامهم الآلات الحديدية التي يضعون اليسر بين طرفيها فيتطاير الخشب الداكن اللون من بين سنى هذه الآلة، ولا يزالون يعالجون في هذه الأخشاب حتى تستقيم حبات منتظمة، تتحول بعد هذا الجهد المضني إلى سبحة ثمينة، وكان أشهر صناع هذه المسابح في جدة

هم آل الزامكة، وكان منزلهم في محلة المظلوم قريباً من سوق البدو، ولعله لا يزال قائماً حتى الآن بعد إصلاحه.

صناعة الخرط والنجارة الدقيقة

وكانت هناك صناعات خشبية نستطيع أن نطلق عليها اسم الصناعة الفنية، وهي تعتمد على الخشب كمادة أساسية فيها، وهذه الصناعة هي صناعة الخرط بفتح الخاء، وسكون الراء، والطاء، وكان في جدة شارع صغير اسمه (زقاق الخراطين) وكان بجوار مسجد الحنفي الموجود حالياً في الشارع الجديد الممتد من ميدان البيعة، بحذاء امتداد شارع الملك عبد العزيز، والمسمى حالياً، شارع الذهب، وكان لهؤلاء الخراطين حوانيت صغيرة في هذا الزقاق، الذي أزيل كل ما فيه من حوانيت وبيوت، وأدخلت توسعة للشارع في أول توسعة شهدتها مدينة جدة قبل حوالي ربع قرن، أما صناعة الخرط هذه فإنها كانت تقوم على قطع الأخشاب، فيتم تركيبها مع بعضها البعض فتتكون منها ما يشبه الموائد الصغيرة، وكان أشهرها «طبلية الجزة» والطبلية لعلها مأخوذة من كلمة الإنجليزية Table أي مائدة هي عبارة عن أربع قطع مستطيلة من الخشب تكون الأرجل التي تقوم عليها المائدة، ثم قطع أخرى متعاكسة تجمع بين القطع الأولى القائمة، وكانت هذه الطبلية تنحت نحتاً جميلاً وتصنع لها الحليات في وسطها وأطرافها، ثم تدهن بمادة حمراء تشبه الشمع الأحمر «أَلُكْ» ولعل هذا الشمع الأحمر يدخل في المادة المذكورة لأنها شبيهة به تماماً، كما تزين بألوان خضراء في أطرافها وتوصل قوائم الطبلية وعوارضها بمسامير متحركة، تسمح بتطبيق الطبلية أو فردها، وكانت هذه الطبلية مع موائد صغيرة من نفس النوع إلا أنها ثابتة، لتوضع فوقها أكواب الشاي وفناجيل القهوة للضيوف مع مائدة كبيرة للسموار والبراد من نفس النوع، كانت هذه المجموعة أساسية في كل بيت، وتجهز بها كل عروس، ولم تكن أعمال الخراطة قاصرة على هذه الموائد التي ذكرناها، ولكنها كانت تدخل في أشياء كثيرة، فكان يصنع منها دربزينات الشقادف «حواجز الهوادج» كما يصنع منها ظهور الدكاك، وغطيان شراب الماء وما إلى ذلك من الصناعات الخشبية.

النجارة الفنية :

ومما يشبه أعمال الخراطة، إن لم يكن أدق النجارة الفنية التي كان يقوم بها نجارون فنيون، وتقوم على أعمال النحت والنقر في الأخشاب مما يشبه في الوقت الحاضر النجارة العربية، والتي يطلق عليها «أرابسكاتو» وهو تعبير أجنبي عن النجارة العربية المعروفة والتي تتميز بعملها الدقيق الجميل والتي لا تزال موجودة في كثير من بيوت جدة القديمة، وقد أحسنت بلدية جدة صنعاً بالمحافظة على هذا التراث، و يستطيع الناظر إلى بيت باجنيد الكائن في شارع الملك عبد العزيز قريباً من فندق البحر الأحمر والذي قامت البلدية بشرائه وتجديده، يستطيع المرء أن يرى نوعية النجارة العربية المتمثلة في رواشين هذا البيت ونوافذه، فهي مثال لتلك الصناعة الجميلة التي كانت سائدة ومعروفة في ذلك الزمان.

الأبواب الفنية :

كان الناس كذلك يفتنون في اختيار الأبواب السميكة الضخمة لبيوتهم، وكان البعض منهم يتأنق في النقر على صفحات هذه الأبواب، أو على درفتيها، بحيث تظهر الصناعة في شكل فني جميل، وكان العمل في نقر هذه الأبواب وتزيينها يستغرق وقتاً طويلاً، وعمالاً مهرة، ولاتزال بعض هذه الأبواب موجودة في مدينة جدة، ومكة، في كثير من البيوت القديمة، وقد بدأ هواة التحف والآثار القديمة في التنبه إليها وشرائها، والمحافظة عليها، ومن أشهر الأبواب التي لاتزال تسترعي أنظار هواة التحف الباب الكبير لحوش باناجة في سوق الندى، فهو باب ضخم جداً من الخشب، وعليه من أعمال النقر والنقوش الكثير الذي يلفت الأنظار، وهو لا يزال قائماً في مكانه حتى الآن.

حليات الرواشين والنوافذ :

وكانت النوافذ وقواعد الرواشين تزين بحليات وزخارف من الخشب المنقور، وكانت هذه الحليات تظهر النافذة أو الروشان في شكل فني جميل، إذ تزينه بعض الورود المنقورة في الخشب وخاصة من الخارج، والبعض كان يزين النوافذ بهذه الورود الخشبية من الداخل والخارج، وكانت تستغرق الكثير من الوقت والجهد، ويمارسها صناع مهرة حاذقون، أخذوا هذه الصناعة

الدقيقة عن آبائهم ومعلميهم، وأن الناظر لبعض البيوت القديمة في مكة وجدة والطائف، سيجد هذه المعالم باقية حتى اليوم، تشهد بجمال الصناعة وإتقانها، وقد انقرضت هذه الصناعة بعد أن غزا الشباك الخشبي الصامت البلاد فقلده الناس جميعاً في مبانيهم ثم حل محله الشباك الألمونيوم الذي أصبحت له مصانع كثيرة في كل مكان.

أعمال الجص:

ومما يشبه ما ذكرناه عن الصناعة الفنية في الأخشاب أعمال الجص، التي كانت تزين بها واجهات البيوت، وعلو النوافذ، فلقد كان هناك من النوارين المبيضين من يتقن صناعة زخارف الجص، ويرسم منها أشكالاً جميلة من الطيور والشجر، مع كتابة آية قرآنية أو اسم من أسماء الله على سبيل التيمن، وكتابة تاريخ إنشاء المبنى كذلك، وكانت أغلب البيوت في مكة وجدة تزين أبوابها الرئيسية، خاصة بهذه الزينات الفنية من أعمال الجص، ولا زلت أذكر أن أبواب جدة القديمة، وخاصة باب مكة، كانت تعلوه لوحة كبيرة مبنية من الحجر، ومبيضة بالجص الناعم وقد رسم عليها العمامة الألفي، التي كانت شعار البلاد في العهد الماضي، وزينت برسوم جميلة من الأشجار والطيور، وكانت هذه اللوحة على ارتفاع البوابة تستلفت نظر كل إنسان ليتأمل جمالها ودقة صناعتها، كما أني أذكر أن باب البنط الذي كان في موضع عماير الأمير منصور حالياً، كان مكتوباً عليه بخط جميل جداً الآية الكريمة «ادخلوها بسلام آمنين» وتحتها اسم الخطاط المعروف الشيخ سليمان غزاوي —رحمه الله— وكان من أجمل الناس خطاً، وقد أدركته وهو كبير السن، أشيب، ولكنه كان أستاذ الخطاطين حتى في تلك السن العالية التي ترتجف فيها اليد، وترتعش الأنامل، وكانت الزخارف التي تزين علو الباب مما يستوقف النظر، كذلك وللأسف فقد أزيلت هذه البوابات الأثرية الجميلة حين إزالة السور مع أن بقاءها لم يكن ليعوق نمو المدينة وازدهارها، بل إنه كان من الآثار التي تحتفظ بها المدن دلالة على العراقة والأصالة.

الهوادج:

ومما يتصل بالصناعات الخشبية صناعة الهوادج (مفردها هودج) وكانوا يسمونه «الشقدف» وهو عبارة عن مجموعة من الأعواد الخشبية تلفف بطريقة متشابكة ثم تلبس بالخيش، وكانت هذه الهوادج صناعة رائجة يوم أن كان الجمل هو وسيلة النقل في الثلاثينات، والنصف الأول



صورة تمثل المحملين المصري والشامي

من الأربعينات، فكانت الهوادج توضع فوق الجمال، وتغطى بالوجاهات، أو الحنابل، وهي عبارة عن سجاجيد خفيفة من الصوف أو القطن، و يتكون الهودج، أو الشقدف، من قطعتين متقابلتين توضع فوق ظهر البعير، وله قاعدة خشبية تفرش بالبسط والمخاد والألحفة، فيجلس في كل جانب شخص واحد. كما يوضع في الوسط الذي يسمونه «الوسك» شخص صغير السن، وعلى أي حال، فإن الراكب في هذا الوسك هو أكثر الركاب تعباً، لأنه يظل طول الوقت جالساً في مكانه بينما يستطيع الراكب في الهودج نفسه أن ينام و يقوم لأن لديه السعة الكافية، لذلك وقد أمضيت ليلة لاأنساها في هذا الوسك حينما حججت حجة الفريضة في النصف الثاني من الأربعينات، وكان الصعود من مكة إلى عرفات بالجمال لأنه لم يكن يسمح للسيارات التي كانت قد دخلت البلاد بنقل الحجاج إلى عرفات.

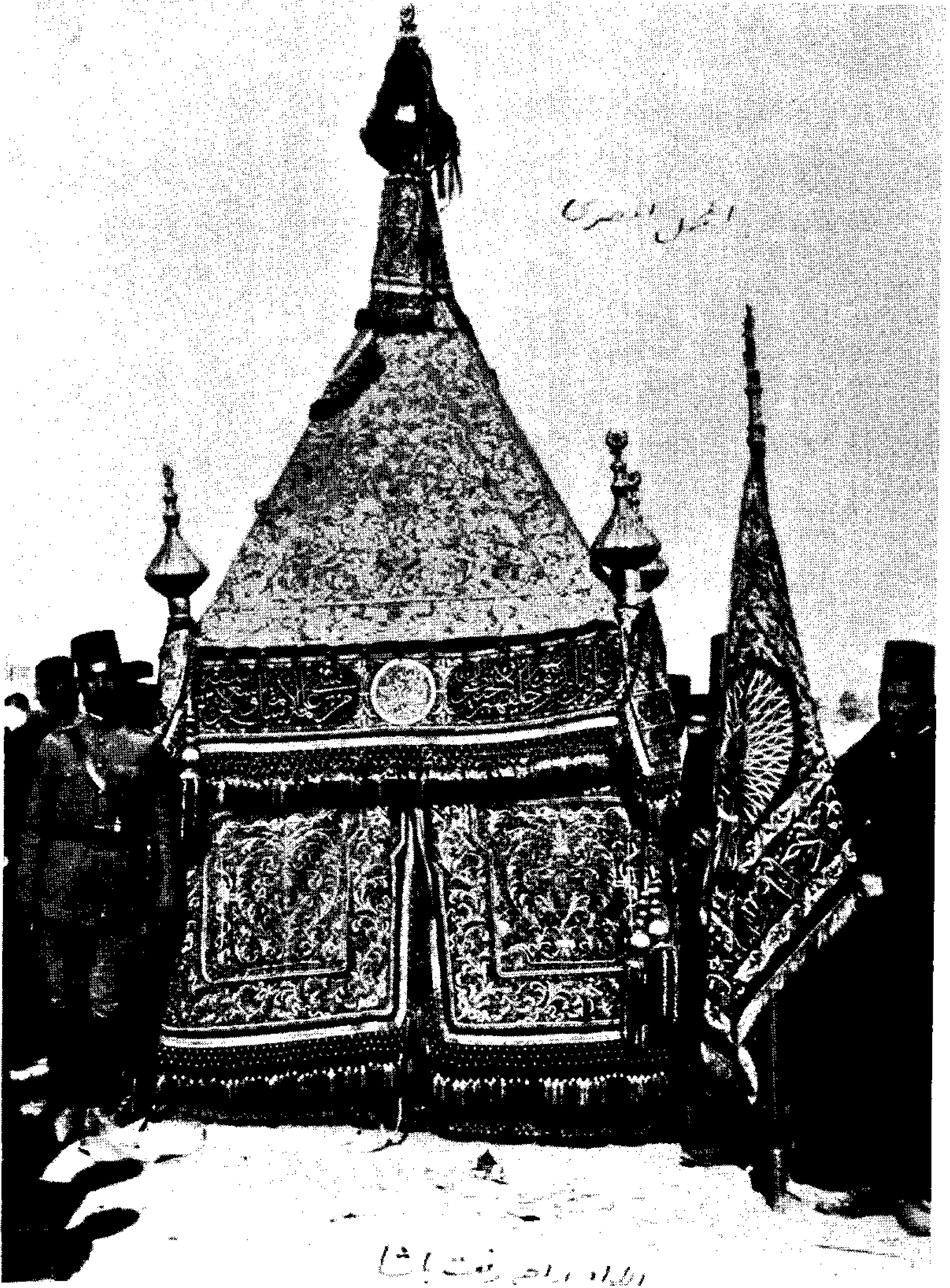
وإذا كانت الهوادج تحمل النساء فإنها تستر واجهاتها كذلك، بحيث لا تترك منها إلا فرجة بسيطة للهواء، كما كانوا يضعون الدرابز ينات «الحواجز» في مقدمة الشقادف حفاظاً على النساء والأطفال، وقد انتهت صناعة الشقادف أو الهوادج بحلول السيارات محل الجمال، بعد أن كانت صناعة رائجة لها صناعها وتجارها وسبحان مغير الأحوال.

عطر الورد

من الصناعات اللطيفة التي كانت تشتهر بها مدينة الطائف، وأظن أنها لاتزال، صناعة استخراج عطر الورد الطائفي، الشهير بجودته، ورائحته العطرة، وكان يتم استخراج هذا العطر في أوائل أيام الربيع التي يسمونها «الوردية» حيث يجمعون الورود الكثيرة، التي كانت تزرع في بساتين الطائف، وخاصة في منطقة الهدا، ثم يحولون هذه الورود إلى عطر نقي جميل الرائحة غالي الثمن، وكانوا وما زالوا يبيعونه بالتولة، وهي كمية قليلة تعبّأ في زجاجات صغيرة، ثم توضع في علب من التنك ز يادة في حفظها، وكان عطر الورد الطائفي أغلى ثمناً، وأحسن نوعية من عطر الورد التركي الذي يرد مع الحجاج الأتراك، وكان هذا العطر الطائفي يمتاز بصفاء لونه، بينما يكون العطر التركي أكثر دهناً، ولونه يميل إلى الإحمرار، وقد رأيت هذا العطر الآن يباع في لندن في زجاجات صغيرة، بعدما أخذت مصانع العطور في فرنسا وأورو با في تقليده، وهو يباع الآن في أشهر المحلات وأكبرها هناك.

الصناعة الفخارية

وكانت هناك صناعة الفخار، التي كانت تصنع منها الأز يار لحفظ الماء، وذلك قبل بناء الحنفيات في البيوت، كما كانت هناك الشراب التي تصنع من الفخار و يوضع فيها الماء ثم تعرض للهواء لتبر يد الماء، حيث لم تكن هناك ثلاجات لعدم وجود الكهر باء في ذلك الزمان، وكانت هذه الأز يار والشراب مما لا يستغنى عنه كل بيت، وكانت الشراب تمتاز بأنها تصنع من طينة أقرب إلى البياض، كما أنها تكون خفيفة، وكانت الشراب التي تستعمل في البيوت كبيرة الحجم، بحيث تتسع الواحدة منها لبضع لترات من الماء، بينما كانت الشراب الصغيرة التي تستعمل في المقاهي صغيرة، بحيث تتسع لما يقرب من زجاجة واحدة من زجاجات ماء الصحة، أو الأفيان، وكذلك كانت هناك الأز يار الكبيرة لحفظ الماء والتي تتسع لبضعة جوالين،



صورة للـمـحـمـل المصري و يلاحظ الكسوة التي كان يكسى بها المحمل وقد ألغي إرسال المحمل إلى الحجاز في العهد السعودي

والأز يار الصغيرة، وهذه كانت يوضع فيها شراب السوبيا أو الز بيب وتعرض للهواء لتبر يد محتو ياتها، ولا تزال صناعة الفخار حتى الآن لها بقية في مكة، والمدينة المنورة، تتمثل في الدوارق التي يسقى بها ماء زمزم، في مكة المكرمة، والماء في المسجد النبوي الشر يف بالمدينة المنورة، كما أن الحجم الصغير منها يسمى المزمزمية نسبة إلى ماء زمزم.

ثلاجات ومراوح الغاز :

وقد حلت الثلاجات التي كانت تدار بالغاز في البداية محل الشراب الفخارية، وأول ما وصلت هذه الثلاجات كانت نادرة، وكان الناس يستوردونها خصيصاً من الخارج لهذه الغاية، وأشهرها كانت الثلاجة ماركة الكترلكس، وكانت ترد بأحجام صغيرة ومتوسطة، وقد سبقتها المراوح التي تدار بالغاز كذلك، وكانت مراوح ذات قاعدة، توضع على الأرض ولها فتيل يتصل بخزان الغاز، و يشعل فتدور المروحة دوراناً بطيئاً، ولكنه كان كافياً لتلطيف حرارة الجو، وقد حلت هذه المراوح الغازية محل المروحة الهزازة.

المروحة الهزازة :

هي التي كانت تصنع من الخيش وتحشى بالقطن، وتعلق بحبل متين في سقف المحل، و يتولى هزها خادم خاص لتحريك الهواء، وهي عملية متعبة لمن يتولى القيام بتحريكها، لأن المروحة المذكورة ثقيلة وكبيرة الحجم، وكانت تستعمل في مكاتب كبار التجار، وكان يتولى القيام عليها عبيد مخصصون لذلك، يوم كان الرق سائداً في البلاد وقد حلت محلها المروحة التي تدار بالغاز كما أسلفنا.

صناعة السعف :

وكانت هناك كذلك صناعة الخسف، وهي تعتمد على أوراق شجر النخيل التي تجفف وتشذب بحيث تتحول إلى قطع مستطيلة من السعف، تصنع منها البسط التي كانت تسمى الخسف التكروني، وهذا الخسف التكروني، هو عبارة عن بساط من الحصير كانت تفرش به أرضية البيوت التي كانت غالباً من التراب، ثم يوضع فوق هذا الخسف السجاد الايراني، لحمايته من التراب وكان أغلب صناع هذا من إخواننا الأفارقة الذين كان يطلق عليهم «التكارنة» وهو من نوع إطلاق اسم البعض على الكل، فمن المعلوم أن تكرور هم جنس من أجناس الأفارقة، وكان الناس هنا يطلقون عليهم جميعاً اسم تكارنة، وفي بلاد تكرور يقول

الشاعر:

أمطري لؤلؤاً سماء سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا

وهو يدل على أن مناجم الذهب موجودة في بلاد تكرور.

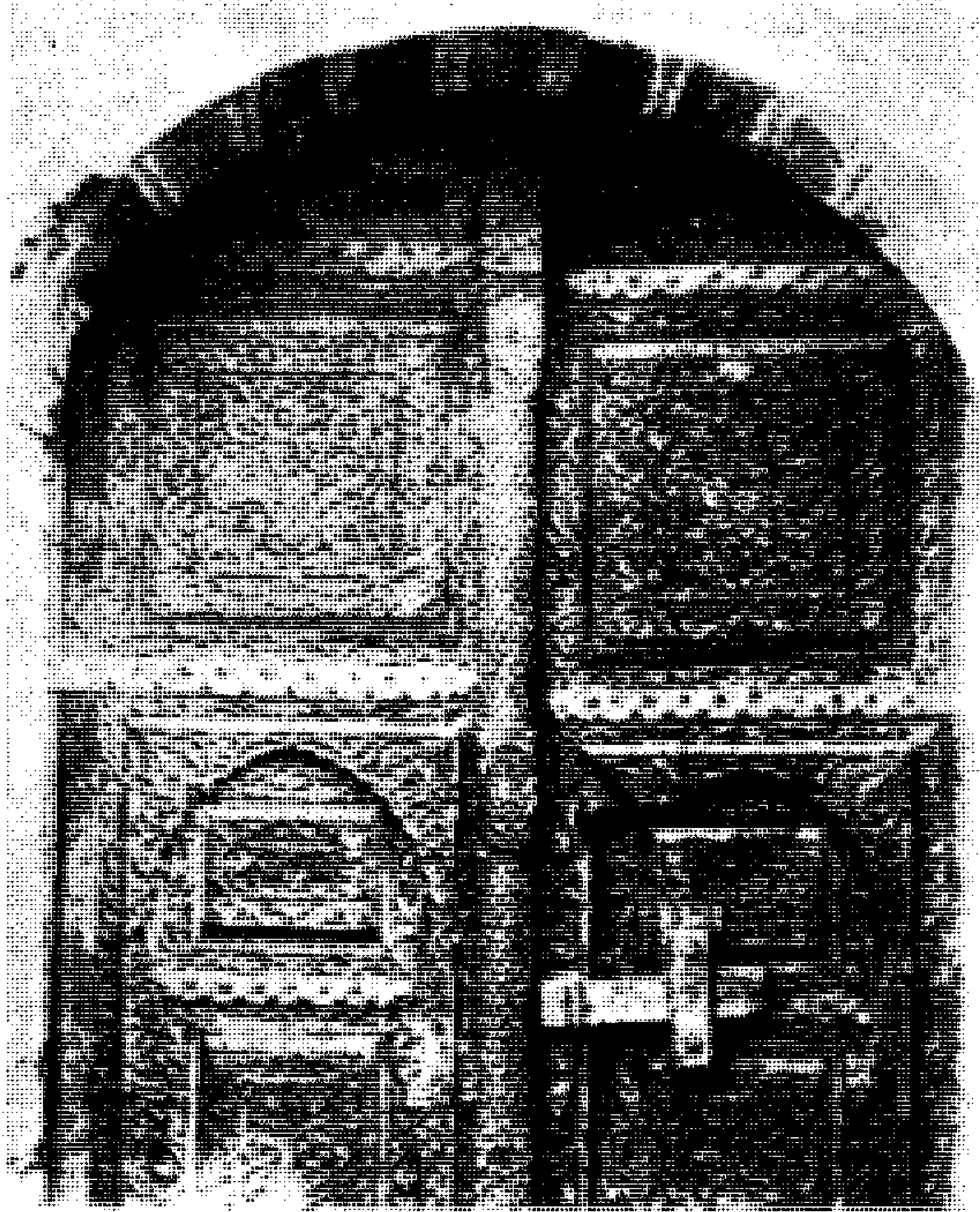
ونعود بعد هذا الاستطراد إلى صناعة الخسف، فنقول: إن هذه الصناعة كانت تشمل أشياء كثيرة، فمنها تصنع الزنابيل (واحدها زنبيل) وهي الأوعية الكبيرة التي تصب فيها الحبوب من الأرز والدقيق والحنطة والشعير والدخن، حيث تتصدر حوانيت الحبابين، وهم باعة الحبوب، والذين كان مقرهم الرئيسي في سوق العلوي، وباب مكة في جدة، وفي سوق الصغير بمكة المكرمة، والمناخة في المدينة المنورة، كما كانت تصنع من هذا الخسف الزنابيل الصغيرة، التي تحمل فيها متطلبات العائلة اليومية، من خضار وحبوب ولحم، وما إليها، وكانت كذلك هناك القفف الصغيرة «جمع قفة» بضم القاف وتشديد الفاء وفتحها وهي التي توضع فيها بعض الأطعمة لاصطحابها في السفر، أو الرحلات القصيرة، كما تصنع منها الزنابيل الكبيرة التي يقتنيها الحمالون، فيحملون فيها الأغراض للناس، وكان هؤلاء الحمالون وأغلبهم من جبال الحجاز من قبائل غامد وزهران، يفدون إلى المدن طلباً للرزق فيشتري الواحد منهم زنبيلاً من هذه الزنابيل الكبيرة، و يتخذون لهم أماكن في الأسواق يجلسون فيها للقيام بنقل أغراض الناس إلى البيوت والدكاكين، لقاء أجور معينة، وقد انتهت هذه الطبقة من الحمالين فيما أظن، بعد أن فتحت المدارس في كل مدن البلاد وقراها، وتوفرت الأعمال الكثيرة لكل الطبقات.

المراوح والمكانس والمقشات:

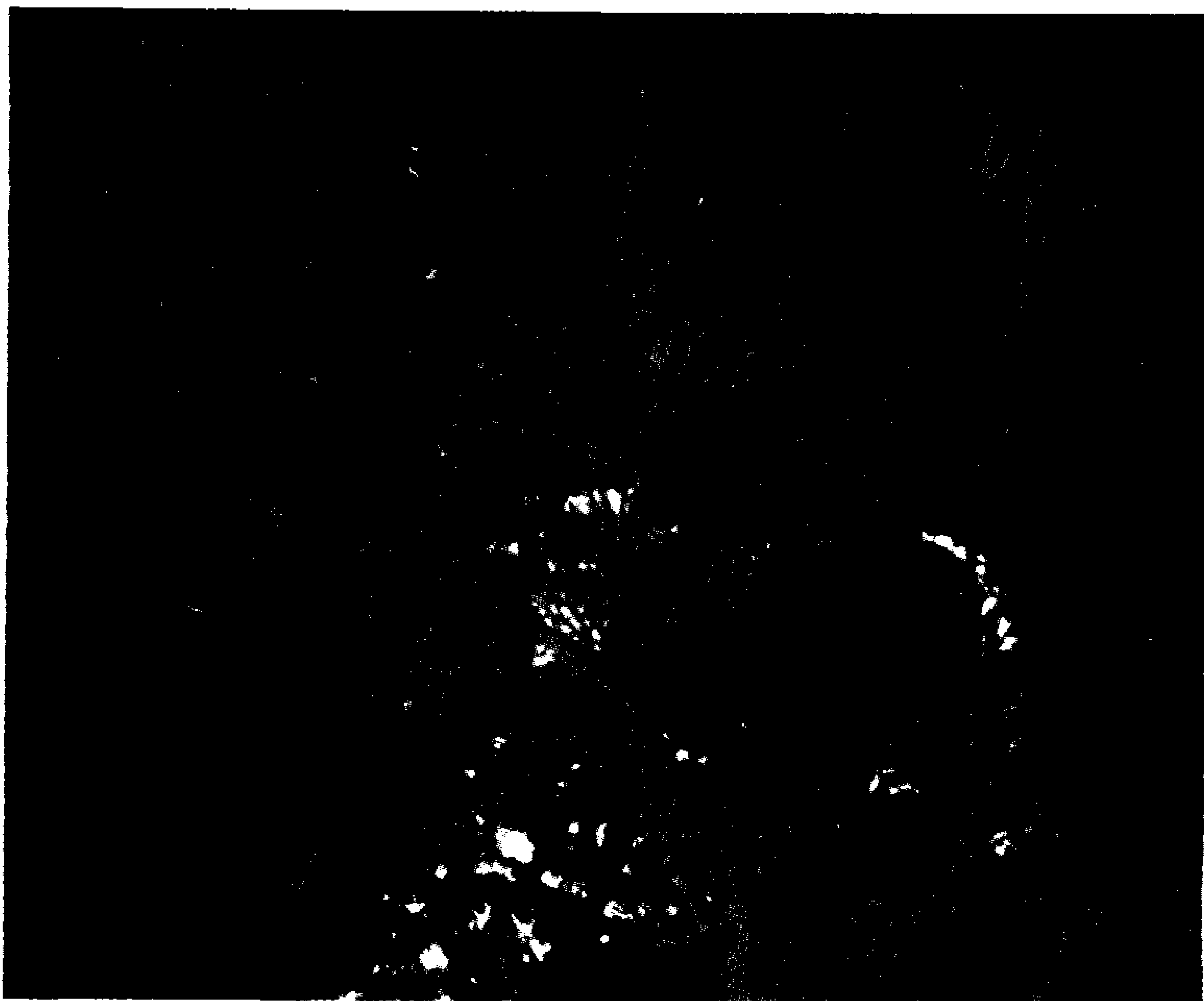
وكانت تصنع من هذا الخسف كذلك المراوح اليدوية، وكانت تصنع على نوعين: النوع الراقي منها يسمى المراوح المدني، وهي تصنع في المدينة المنورة، ومن المعلوم أن صناعة الخسف هذه إنما تعتمد على سعف النخيل، والمدينة هي بلاد النخيل، فكانت هذه الصناعة رائجة هناك، فكانت ترد من المدينة المنورة المراوح والمكانس، وكلما وفد الزائرون إلى المدينة المنورة، اصطحبوا معهم في عودتهم التمر والمراوح والمكانس والشراب المدنية لأنها أحسن صناعة من مثيلاتها في جدة، ومكة المكرمة، وكان الناس يفرقون بين صناعة المدينة وغيرها فيقولون مراوح تكروني ومكانس تكروني مثلاً، كما يقولون على تلك الصناعة من المدينة المنورة، المراوح المدني والمكانس المدني، والواقع أن سعف النخيل هذا كان يستعمل في أغراض كثيرة، ابتداء من

البسط وسجاجيد الصلاة إلى الأوعية الكبيرة والصغيرة مثل الزنابيل والقفف، كما كانت تستعمل في بسط صغيرة يوضع عليها الطعام، وتسمى الواحدة منها (مفتة) بكسر الميم وفتح الفاء، وفتح التاء، وتشديدها، والملاحظ دائماً أنه كلما كانت البلاد محدودة الاتصال بالخارج، كلما اعتمدت على تأمين متطلبات حياتها من الداخل، أو من البيئة كما يقولون الآن بالاصطلاح الحديث، وكلما انفتحت على العالم الخارجي وتعرفت على منتجاته رغبت في استعمالها، والاستعاضة بها عمّا ألفت، وخاصة إذا كانت هذه المنتجات أجمل شكلاً وأحسن صنعة، ولكل جديد لذة، كما يقولون.. ولقد رأيت الناس فيما بعد يستوردون المكانس من الشام ومن مصر لأنها أحسن شكلاً وأتقن صنعة، وعلى أي حال فليس هذا الأمر خاصاً بنوع معين من الصناعة، وإنما ينطبق على كل الصناعات الأخرى التي سبق الحديث عنها.

* * * *



صورة لأحد الأبواب القديمة وتلاحظ النقوش الفنية الدقيقة والجميلة المنقوشة على الباب وكذلك الضَّبة التي يقفل بها الباب



صورة تمثل نبات اليسر ببحر جدة

الفصل الثامن

الأطعمة والأشربة

تشتهر كل مدينة من مدن الحجاز بلون معين من ألوان الطعام، تتميز عن غيرها بإتقانه وإجادته وقد تنفرد به حتى لا يكاد يشاركها فيه بلد آخر.

المبشور :

وعلى سبيل المثال فإن المكيين يتميزون بل و ينفردون بإجادة المبشور، وهو نوع من اللحم الخالي من العظم، بل والمجرد من كل ما يختلط باللحم من الدهون والجلد والعروق، ولهذا فإن هذا اللحم يبشر بطريقة خاصة ثم يشوى على النار على أسياخ من حديد، وتشم رائحة هذا الشواء من مسافة بعيدة، و يؤكل المبشور مع الأرز ومع اللبن الحامض الممزوج بالسمن النقي، وقد أدركت الناس في مكة المكرمة في الأربعينات والخمسينات وهم يعتبرون هذا المبشور من أحسن الأطعمة التي تختص بها مكة المكرمة، بالرغم من انتشار أنواع أخرى من الأطعمة في كافة مدن الحجاز مثل السليق الذي هو في الأصل من اختصاص مدينة الطائف، ثم انتقل إلى جميع مدن المملكة، وليس إلى مدن الحجاز الأخرى فحسب، إلا أني لم أسمع أن هذا المبشور انتقل صنعه وإتقانه إلى مدينة أخرى غير مكة المكرمة.

السمك :

أما السمك بأنواعه فهو من اختصاص مدينة جدة، ولا غرابة في ذلك، فجدة مدينة ساحلية، والبحر الأحمر الذي تعيش على شاطئه، فيه من الأسماك الكثيرة، ما جعل سكان المدينة يفتنون في أنواع كثيرة من الأطعمة التي تصنع من الأسماك، و يستطيع المهرة من الطابخين والطابخات أن يقدموا مائدة كاملة مختلفة الأصناف، كلها من السمك، ابتداء من السلطة حتى الأرز، وقد

حدث كثيراً أن شاهدنا ذلك في الأربعينات والخمسينات، وما بعدها، حينما يرغب البعض في ذلك، ومن أنواع الطعام الذي يصنع من السمك:

الصيادية :

وهي مشهورة وغنية عن التعريف لأنها لا تزال باقية حتى اليوم، والطريقة هي تحمير الأرز بعد خلطه بالبصل المقلى، والزيت، والحُمَرْ، وسقيه بماء السمك المسلوق، حتى يتخذ لوناً أحمر، أما هذا السمك المسلوق فيوضع مع المسلوقة بعد خلطه بالبهارات ويسمى المطفى.

أنواع السمك :

وإلى جانب ذلك الأنواع الجيدة من السمك المقلى بعد تنظيفه ولا حاجة لصفته لأنه معروف ومتداول في جميع مناطق المملكة، وأحسن أنواعه البياض والشعور، بفتح الشين المشددة وضم العين، والسيجان وهو يؤكل مع الأرز الأبيض غالباً في سحور رمضان لسهولة هضمه، والفارس وهو كبير الحجم، أحمر اللون، ويعمل منه كباب السمك، ذلك أنهم يطبخون السمك في شكل الكباب بعد تنظيفه من الشوك، كما يستعمل في المطفى والمقلى وغيره. والعربي وهو الذي يسميه المصريون البوري، ولحمه أبيض، وهذا لا يقطع وإنما تفتح السمكة من النصف ويستخرج ما في باطنها من الزوائد ثم تعالج بالبهارات والتوابل، وتوضع في الفرن حتى إذا تم شيّها وضعت في المائدة بشكلها الكامل وتؤكل كذلك مع الأرز الأبيض.

ويصنع كذلك من السمك نوع يسمونه «صالونة السمك» وتصنع هذه الصالونة من السمك مع إضافة النارجيل المبشور ومزجه بالماء الناتج من غلي السمك بعد معالجته بالبهارات والتوابل، وأهمها الحمر، بضم الحاء وفتح الميم وسكون الراء، وهو نوع معروف من التوابل يرد من الهند ويعرف في مصر بالتمر الهندي.

كما يصنع من السمك زربيان السمك، وهو نفس الأرز البرياني، الذي هو من اختصاص الهند، ويعرف في الحجاز بالزربيان، وذلك بدمج الكلمتين في كلمة واحدة للاختصار، وهو يصنع من الدجاج واللحم بإضافة التوابل إليها، وأهمها الكرى والزعفران. وكان أهل جدة يضعون فيه السمك بدلاً من اللحوم.

كما يصنعون سلطة السمك، وذلك بتفتيت السمك قطعاً صغيرة، ومعالجته بالبهارات كالثوم

والفلفل والليمون والطماطم، فتكون منه المقبلات التي تسمى في الحجاز السلطة.

وهناك آخراً وليس أخيراً السمك الطرطور، وهو الذي يسمونه الآن المايونيز وقد أخذه أهل جدة من الفرنجة المقيمين في البلاد، وهو تجريد السمك من الشوك والجلد وخاصة السمك السمين، مثل البياض أو الفارس، ورصه في طبق مستطيل بعد سلقه ثم يغطى بمادة المايونيز وهي مادة صفراء حريفة الطعم، ويحلى الطبق ببعض المقبلات، ثم توضع رأس السمكة في محل الرأس فإذا رأيت الطبق ظننت أن السمكة تنام فيه.

ومن أغرب ما رأيته في جدة، وأنا من أبنائها أن الناس كانوا يلجأون إلى السمك المصبر، ويسمونه السمك الناشف في بعض الأحيان، مع وجود السمك الطازج بين أيديهم صباح مساء.

وكان في سوق الخاسكية حانوت بل حوانيت مختصة ببيع هذا السمك الناشف، وهو على أنواع مختلفة بعضها كبير الحجم من نوع السمك البكلاه والبعض متوسط الحجم أو صغيرة وكانوا يحضرون هذا السمك ويشوونه على النار، ثم يضعونه في المائدة ليؤكل مع الأرز والعدس، أو المعدوس كما يسمونه، ذلك أنهم يطبخون الأرز مخلوطاً مع العدس، ويستحبون أكل هذا المعدوس مع السمك الناشف في أيام الأمطار، بل ويطبخون هذا المعدوس بماء المطر، وهو على أي حال نوع من التغيير يجد الناس فيه لذة الخروج عن المألوف.

ولم يكن الجمبري معروفاً في جدة في تلك الأيام، ولكنه كان يرد ناشفاً كذلك، ويباع لدى العطارين، وكان بحجم صغير للغاية، وكان أهل جدة يصنعون منه ما يشبه السلطة، أو شوربة السمك ويستعملونه كالأدام مع الأرز الأبيض ولله في خلقه شؤون.

وهناك شوربة السمك ولعلهم يسمونها المشرمل، والخلاصة أن الناس كانوا يفتنون في أنواع كثيرة من المآكل، قوامها السمك، وكما ذكرت فإنهم إذا وفد عليهم ضيف عزيز يعرفون أنه يتوقع أكل السمك أو يشتاق إليه، نصبوا له مائدة تتكون من أصناف كثيرة من السمك، لا ينقصها الشوربة ولا المقبلات، وقد بقيت هذه الصفة لمدينة جدة، وإن كانت لم تعد تحرص على ما كانت تحرص عليه من قبل.

السليق:

أما مدينة الطائف فتمتاز بالسليق، وعن الطائف أخذ سكان مكة وجدة والمدينة، بل وبقية مدن المملكة هذه الأكلة التي أصبحت تسمى الآن «العربي» ولا شك أنها أكلة عربية خالصة، فهي تتألف من اللحم والأرز. وأهل الطائف يسلقون الخروف أولاً، وفي بعض الأحيان يأكلون

لحمه ثم يأكلون الأرز الذي يطبخ بالماء الذي سلق الخروف فيه، ولهم طريقة في اقتسام اللحم بين الطاعمين وصفها المرحوم الأستاذ أحمد قنديل في كتابه «الجبل الذي صار سهلاً» وقد أخذ أهل مكة كما ذكرنا السليق عن الطائف، ولكنهم أضافوا إليه إضافات كثيرة، فأصبحوا يعالجون الأرز بالحليب وبالمستكاه، كما أصبحوا يصنعونه من الدجاج أو من الدجاج واللحم معاً، ولا حاجة للإفاضة عن السليق لأنه طعام شعبي معروف، ولكنا ذكرنا ما نعرفه عن اختصاص مدينة الطائف به.

الزربيان والبخاري:

الزربيان كما ذكرنا هو الأرز البرياني، وهو الأرز مضافاً إليه الكرى والزعفران والفلافل مع اللحم أو الدجاج، وقد أطلق عليه اختصاراً اسم الزربيان.

أما الأرز البخاري فهو كذلك طبخ الأرز مع اللحم أو الدجاج، ومعالجته بكثير من المقبلات ولكن لا يدخل فيها الكرى كما لا تدخل فيها الفلافل، وكان الناس يستعملون الأرز البخاري في الأفراح، كما يستعملون الأرز بالحمص في المآتم، والأرز بالحمص هو أرز باللحم مضاف إليه الحمص المقشور وبعض البهارات، ويصاحب النوعين من الأرز السلطة، وهي معروفة والفَنِّي وهو نوع من الحلو يصنع من دقيق الأرز ويعالج باللبن الحليب، أما المقدمة فهي السنبوسك وهي عبارة عن عجينة ملفوفة تحشى باللحم المفروم والبصل، وتكون في شكل مثلث وهي معروفة حتى اليوم.

الحجاز يأخذ الأطعمة عن الحجاج المسلمين:

والواقع أن التأمل في كثرة الأطعمة في الحجاز وتنوعها حتى من الصنف الواحد، يتبين أن الحجازيين يأخذون كثيراً من هذه الأطعمة، كما يأخذون كثيراً من العادات عن الحجاج القادمين إلى مكة المكرمة المجاورين لها، وفي المدينة المنورة، وهذا الأرز البخاري يحمل الصفة التي انتقل بها إلى الحجاز، ولا يخفى أن كثيراً من إخواننا التركستانيين الذين شردهم الغزو الشيوعي من بلادهم هاجروا إلى الحجاز، ضمن من هاجر منهم إلى ديار الإسلام، فراراً بدينهم، واتخذوا من مهاجرهم وطناً ثانياً، انتقلوا إليه بكثير من عاداتهم بما في ذلك الأنواع التي ألفوها من الطعام، وقد كانت محلة المسفلة في مكة المكرمة خاصة بهؤلاء التركستانيين، وكان هناك زقاق

اسمه زقاق البخارية وهو نسبة إلى مدينة بخارى التي كانت من أهم مدن التركستانيين(١) وكانوا يصنعون الطعام و يبيعونه للناس، وكان الأرز البخاري من هذه الأصناف التي يبيعونها، والتي أخذها أهل مكة عنهم ثم تفننوا في إتقانها، ومن الأطعمة التي لايزال يختص بها التركستانيون، اليغمش والمانتو، والأول عبارة عن عجين أبيض محشو باللحم المفروم، ولا يزال يباع في أسواق مكة وجدة، والمدينة إلى اليوم، وكذلك التميز وهو نوع من الخبز الكبير والمستدير الحجم، وهو يتكون من طبقة خفيفة من الدقيق ملئت بثقوب كثيرة وصغيرة، وصناعه الجيدون هم التركستانيون الذين هاجروا إلى المدينة المنورة، وعنهم أخذه أهل المدينة، وهو حتى اليوم يباع هناك كما يباع الخبز العادي في الأسواق.

ولإخواننا الأندونيسيين طعامهم، بل أطعمتهم، وقد كانت هناك مطاعم للأندونيسيين في مكة المكرمة، مشهورة يرتادها الناس وأشهرها، مطعم بيم، بضم الباء والياء وسكون الميم، والأطعمة الجاوية كثيرة، ولا طاقة لي بوصفها، لأني لا أطعمها لكثرة ما تحويه من الفلافل والبهارات، وقد أخذ أهل مكة عن هؤلاء الأندونيسيين هذه الأطعمة وهم يستطيعون أن يصنعوا منها مائدة كاملة، كما يصنع أهل جدة بالأسماك، ولعل هذه الأطعمة أو بعضها لايزال باقياً حتى الآن.

وعن الأتراك أخذ الحجازيون بعض أصناف الحلويات، مثل المهلبية والحلقوم كما أخذوا عن السوريين الحلاوة الطحينية، والكنافة والبقلاوة والبسبوسة، وسيأتي وصفها في باب الحلويات.

ولعلهم أخذوا عن المصريين طبخ الملوخية، فهم أكثر الناس إتقاناً لها وبعض الأصناف الأخرى.

التقليد لايقتصر على الطعام :

ونستطيع أن نقول: إن تقليد أهل الحجاز للحجاج المجاورين، والأخذ عنهم لم يكن قاصراً على الأطعمة، وإنما هو يشمل كثيراً من العادات والأزياء، وبعضها سيىء للأسف، ولقد أدركت النساء في الحجاز يلبسن الملابس البيضاء في المآتم، فلما اتصلت أسباب أهل الحجاز بأهل مصر وأقامت بعض عائلات الحجاز في مصر، أخذن يقلدن النساء المصريات في لبس

(١) للمزيد من المعلومات عن الغزو الشيوعي لتركستان، راجع كتابنا لعنة هذا الزمن.

السواد، في الحداد وشتان بين البياض والسواد، وإني لأذكر أن زوجة أحد السفراء المسلمين حضرت في بيتنا مأتماً ووجدت النساء كلهن في الملابس البيضاء، فعلقت على ذلك قائلة على البديهة:« كأنهن ملائكة» بينما أخذن يلبسن الآن هذه الملابس السوداء الكئيبة حقاً، ولكن المرأة مولعة بالتقليد ولو إلى الأسوأ.

كما ذكرت في باب الأزياء أن كثيراً من أزياء الرجال انتقلت إلينا من الهند، حينما سافر بعض شباب الحجاز إلى الهند للعمل في البيوت العربية، أو لطلب العلم أو العلاج، ثم عادوا وقد تغيرت أزياؤهم واحتفظوا بهذه الأزياء الجديدة، ولعل بعض هذه الأزياء أفضل مما يستعمله الناس.

ولكن الشعوب في نظري لا بد وأن تكون لها أزياؤها المميزة، وها نحن نرى إخواننا عرب شمال إفريقيا يتميزون بزيهم المغربي المعروف السابغ، والصالح للنساء والرجال على السواء، كما يتميز الهنود والباكستانيون بلباسهم الخاص، وخاصة بالزي النسائي الذي أصبح معروفاً في كل جزء من العالم لإصرارهم عليه، ونحمد الله أن أصبح الزي العربي الآن موحداً بالنسبة للرجال في الجزيرة العربية، وبدأ يأخذ طريقه ليكون معروفاً في العالم، وإن كانت الصورة في نظر بعض المغرضين من الصهيونيين ومن يدور في فلكهم يتعمد إظهارها مشوهة، إلا أن معرفة العالم بالعرب وأخلاقياتهم ستزداد مع الأيام، ونأمل أن يساعد العرب أنفسهم على جلاء هذه الصورة وإظهارها بالمظهر الأصيل الجميل، وأن يتجنب البعض منهم الأسباب والأعمال التي تظهرهم بمظهر السفهاء والقاصرين.

اللحوم والخضروات :

المائدة في الحجاز كانت غالباً ما تتكون من صنفين من الخضروات، وصنف من اللحم ثم الأرز والسلطة والفاكهة، أما الخضروات فهي معروفة ويطبخ معها اللحم. أما اللحوم فكان هناك المعرق، والمختوم واللحم الكبير، والمقلقل، والكباب، والكبيبة. واللحم المعوق هو عبارة عن مسلوق تدخل عليه بعض البهارات كالتوابل، وله مرق خفيف، أما المختوم فيضاف إليه اللبن الحامض ويكون مرقه سميكاً، والمقلقل يتم بقلي اللحم بدلاً من سلقه، أما الكباب فهو تجريد اللحم من العظم وتكبيبه بشكل مستطيل ثم قليه، والكبيبة هو عمل اللحم على شكل الكرات الصغيرة المستديرة، ويكون له مرق، بينما الكباب لا مرق له.

والخضروات التي كانت سائدة ولا تزال، هي الملوخية والبامية والفاصوليا، بنوعيها:

الأخضر والناشف، وكانوا يستعملون الملوخية الناشفة في بعض المناسبات، وخاصة في أيام الأعياد، ولعلها كانت تستعمل في الشتاء حينما ينقطع ورود الملوخية الخضراء، كما كانوا يصنعون نوعاً من الخضار من أقماع البامية فقط، و يطهونه كما تطهى البامية مع إضافة شيء من اللحم المفروم إليه، و يسمونها المسقعة، وكانوا يستعملون الطحينة كنوع من الخضار، وإن لم تكن كذلك، و يضيفون إليها اللحم والسمن، وهذه كذلك من أصناف أيام الأعياد، والواقع أن الناس كانوا يستعدون في اليوم الآخر من رمضان، وفي اليوم التاسع من ذي الحجة، في جدة، بطبخ ما يلزمهم لأيام العيد الثلاثة أو الأربعة لأن الأسواق جميعها تقفل ولم تكن هناك الثلاجات التي تحفظ الأطعمة، فكانوا يطبخون الخضار واللحوم بكميات كبيرة و يضيفون إليها أنواعاً من الأطعمة لا تقبل التلف السريع، مثل الطحينة التي وصفناها. كما كانوا يصنعون في أيام الأعياد الدبيازة وسنتحدث عنها في باب الحلوى. و يتنفس الناس الصعداء بعد انقضاء أيام الأعياد فيقبلون على ما ألفوا من طعام طازج ومتنوع، وقد أصبح هذا الوضع أثراً من آثار الماضي بعد وجود الثلاجات والمبردات في جميع البيوت.

الفطير والعجائن: المطبق:

أهم العجائن التي كانت معروفة من الأربعينات إلى الستينات هي المطبق، وأشهر من يصنعه في الحجاز رجل اسمه الشيخ أبوعوف، وقد ورثه في هذا العمل ابنه الشيخ عبد الرحمن أبوعوف، وكان هذا الابن زميلاً لنا في مدرسة الفلاح، ولم يتجه بعد تخرجه إلى الوظيفة وإنما بقي بجانب أبيه حيث تعلم منه الصنعة التي تفرد بها وأتقنها، وكان الناس إذا حضروا من مكة لابد وأن يقدم لهم في الصباح مطبق أبوعوف، أو مع العشاء، كما يقدم لهم السمك في الغداء، وقد شاهدت أبا عوف هذا، وهو يفرد العجينة بيديه في خفة وسرعة، ثم يضع فيها اللحم المخلوط بالكرات و بعض البهارات، ثم يتوجها بالبيض و يلفها لفاً محكماً في مهارة وخفة، ثم يضعها في صينية خاصة مع بعض السمن، حيث يأخذها مساعدوه فيدخلونها في الفرن الذي تتأجج نيرانه، فإذا استوت ونضجت خرجت من الفرن ولها لون الورد المائل إلى الإحمرار، وفاحت منها رائحة شهية، و يصنع المطبق الحلو بالموز أو بالجبن الطازج الحلو مع إضافة بعض السكر المذاب إليه، و يستعمل المطبق في طعام الإفطار والعشاء على السواء، وصناعه موجودون في كل مكان من مدن الحجاز الهامة في مكة، وجدة، والمدينة المنورة، والطائف، وغيرها من المدن.

السمبوسك والبف :

وإلى جانب المطبق، كانت السمبوسك التي سبق وصفها في طعام الأفراح والمآتم، وهي الصنف الذي يقدم في الظهر كمقبلات، وهو عبارة عن لحم مفروم ومعه بعض البهارات الخفيفة، ملفوف في عجينة مثلثة الشكل، ولعل إطلاق كلمة سمبوسك عليها هي لمشابهة هذه العجينة لطرف السنبوك والله أعلم، وهذه السمبوسك تصنع كذلك في كل مدن الحجاز بلا تفريق وتصنع باللحم و بالجبن المالح.

البف :

وفي المدينة المنورة يتقنون صناعة هذه العجينة، و يسمونها البف، بضم الباء وسكون الفاء، وهي عبارة عن عجينة خفيفة جداً محشوة باللحم، وقطع من البيض المسلوق و بعض التوابل و يصنعونها كبيرة مربعة الشكل أو مستطيلة، كما يصنعون منها صينية كاملة يدخلونها في الفرن ثم يقطعونها قطعاً صغيرة للطاعمين، ولا تزال المدينة المنورة تنفرد بهذا النوع من العجائن، و بإتقانه حتى الآن فيما أعرف.

الزلابية واللقيمات :

من العجائن التي كانت معروفة في الحجاز خلال الأربعينات والخمسينات، الزلابية، وهي نوع من العجائن المقلية الخفيفة جداً، وتظهر دقة الصناعة فيها أنها حينما تفرد العجينة تكون قرصاً كبيراً، لعله بضعف حجم قرص الخبز العادي مستديرة الشكل، ثم تلقى في إناء كبير مليء بالزيت وما هي إلا لحظات حتى تخرج قرصاً كبيراً خفيفاً، حتى إنه ليتكسر إذا لمسته الأيدي، لهذا فإنهم يلمسونه من أطرافه وتؤكل هذه الزلابية في الصباح مع ذائب السكر الذي يسمونه «الشيرة» ولعل هذه الزلابية أخذت عن الهنود أو المصريين لأنها معروفة في مصر وما يحملني على الظن بنسبتها إلى الهند هو كلمة «شيرة» التي ترتبط بها وهي كلمة هندية فيما أظن وكانت الزلابية تستعمل رسمياً في طعام الفطور والأفراح.

اللقيمات :

ومع الزلابية توجد دائماً اللقيمات وهي عبارة عن عجائن صغيرة تصنع على شكل كرات صغيرة، وتقلى في الزيت وتستعمل في الصباح كذلك مع ذائب السكر المسمى بالشيرة وقد انتهى استعمال الزلابية فيما أعرف لأنها كانت تباع في الأسواق في أيام الأعياد وما إليها، أما اللقيمات فعاد الناس الآن إلى استعادتها لأن صناعتها لا تقتضي الدقة التي يجب توفرها في صناعة الزلابية، ولكن يوجد حتماً من معلمي الصناعة في مكة وجدة والمدينة من يصنع الزلابية، وهي تصنع الآن في بعض المناسبات الخاصة لمن أراد.

الحلويات

الكنافة :

الكنافة من أنواع الحلويات التي كانت تصنع في الحجاز، وقد شاهدت صناعها وهم يضعون محلول الدقيق في إناء مخرم بأخرام صغيرة كثيرة، ثم يمررون هذا الإناء على صاج كبير قد أوقدت تحته النيران، فيخرج معجون الكنافة على شكل سائل خيوطاً بيضاء رفيعة جداً، وبعد أن تترك فترة من الوقت فوق هذا الصاج تجمع وتلف على بعضها البعض توطئة لبيعها للراغبين، وكان الناس يشترون هذه الكنافة وتقوم النساء في البيوت بصنع الحلو منها بإضافة القشطة والعسل في داخلها أو بوضع الجبن الحلو الطازج مع السكر، ثم يوضع الإناء على النار ويترك حتى ينضج، فيخرج الطبق وقد اكتسى بلون الورد، حيث يقدم للآكلين في أيام رمضان وأيام الأعياد، وقد كاد صنع الكنافة أن ينتهي بعد أن أصبحت الكنافة التي تصنع في سوريا ولبنان ترد إلى الأسواق في كل حين.

الجبنية :

ومثل الكنافة الجُبْنِيَّةْ، كان الناس إذا أمطرت البلاد يترقبون وصول السمن والعسل والجبن الطازج من البادية، حيث تباع في الأسواق، وكانوا يشترون الأجبان خاصة فيصبرون البعض

بإضافة شيء من الملح إلى الماء الذي يوضع في الإناء الذي يحفظ فيه الجبن، و يغير هذا الماء من وقت إلى آخر حتى لا يفسد، أما الجبن الطازج فيسمونه الجبن الحلو، وهذا هو الذي يصنعون منه الجبنية، والجبنية هو نوع من الحلو يفرك الجبن فيه على الدقيق، ثم يغلى بالسمن على النار و يضاف إليه شيء من العسل، أو السكر حتى ينضج، و يقدم طعاماً شهياً للطاعمين، وقد انتهى كذلك استعمال هذه الجبنية، وربما كان انصراف الناس عنها لتوفر أنواع الحلويات، وكثرة الأصناف التي أصبح لها محلات كثيرة تصنعها وتبيعها وخاصة في الفنادق الكبيرة ومحلات الحلوى.

وكانت الجبنية تصنع على شكل أقراص صغيرة في مواسم الجبن، وتباع للراغبين في الأسواق وخاصة في شهر رمضان المبارك.

الحلاوة التركي :

وكان هناك نوع من الحلوى يصنع في البيوت بكثرة، و يسمى الحلاوة التركي، وهذه الحلوى عبارة عن دقيق مخلوط بالسكر، و يعجن هذا الدقيق ثم يوضع على النار، مع تقليب هذا المعجون حتى يكتسب حمرة داكنة و يؤكل حاراً في أيام الشتاء، وقد انتهى هذا النوع من الحلوى في هذه الأيام فلم يعد يصنعه أحد فيما أعرف، والله أعلم.

الدبيازة :

والدبيازة هي كذلك نوع من الحلو خاص بالأعياد، وهو مجموعة من المكسرات تتألف من القعقع والزبيب والبندق واللوز والمشمش الناشف، وهذه الأنواع جميعها ترد إلى الأسواق في شهر رمضان من سوريا ولبنان، وكان يصنع من هذه التشكيلة حلو يطبخ على النار و يقدم ضمن طعام العيد، ولا يزال بعض كبار السيدات في بيوت جدة، وربما في بيوت مكة، والمدينة، يصنعنه ليذوقه الأولاد والأحفاد في المناسبات السارة.

قمر الدين :

وهناك كذلك حلو يسمى قمر الدين، وهو خاص بشهر رمضان المبارك، وهذا القمر الدين هو عبارة عن المشمش بعد إخراج بذوره وتنشيفه ثم معالجته، بحيث يفرد و يسطح حتى يصبح متماسكاً، فإذا نظرت إليه رأيت صفحته حمراء، مثل القماش الأحمر، و يبلغ عرض بعض هذا

القمر الدين نحو نصف هنداز (الهندازة تسعون سنتيمتراً) و يباع ملفوفاً كالقماش، أما طريقة صنعه فهو يفت ثم يغلى على النار، و يقلب حتى يصبح سائلاً، و يضاف إليه السكر وماء الورد ثم يبرد و يقدم شراباً سائغاً عذباً للشاربين، ولايزال هذا القمر الدين يستعمل في أيام رمضان ولياليه وخاصة في أيام الصيف.

الحلويات - الطحينية:

أنواع الحلوى التي كانت معروفة في الحجاز خلال الفترة التي نتحدث عنها كثيرة، وأهمها: على النطاق الشعبي الحلاوة الطحينية، وهي تصنع من الطحينة بعد إضافة السكر والدقيق إليها، وأحسن من يتقنها المكيون، وأجود أنواعها ما كان خفيفاً أبيض اللون فإذا أخذت قطعة منه ظهر إثر القطع خيوطاً دقيقة رقيقة كرقة الشعر، وقد وردت بعد ذلك إلى البلاد الطحينة الشامي وهي نفس الحلوى مضافاً إليها بعض الفستق، وتمتاز بلون أكثر صفاء، وصناعة جيدة، وكان يبيعها البقالون في مدينة جدة، ولكن كان ولايزال للطحينة البلدي آكلوها وزبائنها وخاصة في مكة المكرمة.

الهريسة:

الصنف الثاني من الحلويات هي الحلاوة الهريسة، وهي عبارة عن حلوى مصنوعة من الدقيق كذلك مضاف إليها بعض اللبن، وخلافه، مما لا أعرف، وهي تبدو حمراء اللون ثم تقطع الى قوالب صغيرة، لأنها متماسكة وقد أدخل فيها بعض اللوز أو الفستق المطحون، ولعل أصلها من صناعة الهند.

المفروكة:

وكان بعض الناس يخلطون بين الحلاوة الطحينية والهريسة، و يفركون هذا الخليط فركاً جيداً، وهذه الحلوى سواء الطحينية أو الهريسة مليئة بالبروتينات، فإذا أكل منها المرء ثلاث أوقيات شبع وامتلأ، وكان كثير من الناس يعتمدون عليها في عشائهم، ولا يخلطون بها غيرها على الإطلاق.

الحلاوة اللبنية والمهجمية واللدو :

ومن أنواع الحلوى كذلك اللبنية وهي مثل الهريسة تصنع في صينية كبيرة، ثم تقطع قوالب صغيرة، ولكن لونها يغلب عليه البياض، لأن اللبن هو قوام الصناعة فيها، أما المهجمية فهي نوع من الحلوى تشبه الحلقوم، إلا أنها صناعة محلية والحلقوم التركي أكثر جودة، واللدو تشبه الحلاوة الهريسة إلا أنها تصنع بشكل كروي متوسط الحجم، وهي كذلك هندية الأصل فيما أقدر.

الحلاوة اللوزية :

وهناك الحلاوة اللوزية التي تستعمل في الأعراس، وهي عبارة عن كمية من الدقيق المخلوط بالسكر ومحشوة باللوز، وقد وصفناها في باب الأعراس، وهي تستعمل في المناسبات السارة كالأعراس، وما إليها وقد انتهت هذه الحلوى، وحلت محلها الحلوى الأجنبية التي تحمل نفس الإسم، وتستعمل لنفس المناسبات والأغراض.

الحلاوة المطي :

هناك أخيراً الحلاوة المُطّي ولها من اسمها نصيب، وكان الباعة يحضرون بها في صوان كبيرة ساعة انصراف التلاميذ من المدارس، و ينادون عليها حلاوة مُطّي فيقبل عليها الأطفال في شوق ونهم و يشترونها، وهذه الحلوى تكاد تكون خاصة للأطفال وهي تمط بالفعل في يد آكلها، فإذا أخذ منها شيئاً في فمه مطت مطًّا شديداً، وكانت تصنع في شكل عجينة بيضاء كبيرة متماسكة، وقد يدخل عليها اللون الأحمر زيادة في إغراء الأطفال بها، وقد انتهت كذلك هذه الحلوى فلم أعد أراها أو أسمع بها، وحلت محلها الشيكولاتة وأمثالها.

المشبك :

وكان هناك نوع من الحلوى اسمه المشبك، وله كذلك من اسمه نصيب وهو عبارة عن أقراص من الحلوى، تتكون من دائرة كبيرة في مثل حجم قرص الخبز المتوسط، أو الصغير ثم تلصق بها أصابع من نفس هذه الحلوى بشكل طولي وعرضي، فتبدو متشابكة وهذه الحلوى كما ذكرنا تشبه الأصابع في استطالتها لأنها مجوفة من الداخل، والمشبك ذهبي اللون كثير الحلاوة، وقد رأيته يباع في الأحياء الشعبية في مصر مثل حي السيدة زينب، وسيدنا الإمام الحسين رضي

الله عنها، ولعله ورد إلى الحجاز من مصر أو الهند، وكان يستعمل في الأعياد والمناسبات السارة كذلك، ولكن لم يعد له وجود الآن، وإن كان بعض الحلوانيين يصنعونه لمن يطلبه في مناسبات الأفراح والليالي الملاح.

أصناف الحلو في رمضان:

في رمضان يستعد الناس في الحجاز بأصناف من الحلو، بعضها يتناولونه مع طعام الإفطار، والبعض الآخر مع طعام السحور، و يشترون المواد الخاصة بهذه الأصناف من أواخر شعبان، حيث يقوم باستيرادها التجار المتخصصون، بحيث تكون موجودة في الأسواق في الوقت المناسب، ومن أهم هذه الأصناف الزبيب، واللوز، والفستق، والبندق، والقعقع، والألماسية، والمهلبية، والسقدانة، ونتحدث الآن لنعطي نبذة عن هذه الأصناف.

الخشاف:

الخشاف هو نوع من الحلو السائل يعتمد على الزبيب الأسود وذلك بغلي الزبيب وتصفيته، ثم إضافة السكر إليه وبعض أنواع المكسرات، كالبندق، أو الفستق، ثم يصب في زباد كبيرة ويبرد، ويقبل الناس على تناوله في الإفطار خاصة إذا كان الصيام في أيام القيظ، كما يتزودون منه في السحور لما يأملون من مفعوله في تبريد الأجسام، وبعض الناس يضيفون الألماسية إلى الزبيب، فيتجمد، ثم يقطع قطعاً صغيرة متساوية ليأخذ منه كل ما يريد.

الألماسية:

أما الألماسية فهي ترد من سوريا في حزم طويلة نباتية اللون، وهي تحمل في طياتها مادة غرائية بسيطة وتحل هذه الألماسية، في مواعين كبيرة بالماء، ويضاف عليها السكر وأحياناً الحليب، ثم تصب في أطباق مستطيلة أو مستديرة، حسب الحاجة.

المهلبية:

أما المهلبية فهي تصنع من دقيق الأرز، وتعالج بالحليب والسكر، ويضاف إليها بعض اللوز الحجازي، أحياناً، وتصب كذلك في أطباق كبيرة وتتناول بالملاعق — والمهلبية صنف من الحلو المعروف في هذه الأيام حتى في الأيام العادية، أما الخشاف والألماسية فيكاد استعمالها مقتصراً على شهر رمضان.

الحلاوة السمسمية - وحلاوة الراجين :

هناك نوعان من الحلوى كانت تصنع محلياً، وهما كذلك مما يباع للأطفال، وأحد هذين النوعين هو الحلاوة السمسمية، وهي تصنع من السمسم، وصناع هذه الحلوى من اليمنيين المقيمين في مدينة جدة، ولعل السبب في ذلك أن السمسم كان ولايزال يزرع و يرد إلى الحجاز من اليمن.

معاصر الزيت :

وكان يستخرج منه زيت السمسم وكانت له معصرتان في مدينة جدة، إحداهما معصرة الكُدَّاف، بضم الكاف والدال المشددة المفتوحة، وهو يمني معروف، والأخرى معصرة ابن عفيف، وكنت أشاهد عمال هذه المعاصر يفردون السمسم فوق الخسف، و يدعسونه بأرجلهم دعساً شديداً، ولم يكن هؤلاء العمال من النظافة بحيث تستساغ الطريقة التي كانوا يتبعونها، وهي طريقة بدائية قذرة، ثم يوضع هذا السمسم المدعوس في المعصرة حيث تدور الساعات الطويلة بواسطة الحيوانات من البغال أو الحمير، بعد أن تعمى عيونها لأنها تدور في حيز محدد، وكان لهذه المعاصر دوي يزعج الجيران، ومن الطرائف التي تروى عن ذلك أن معصرة الكداف هذه كانت تقع أمام بيت المرحوم الشيخ عبد الله الصغير من أعيان مدينة جدة، وكان يشكو من الضجيج الذي تحدثه المعصرة، وخاصة حينما يأوي إلى فراشه للنوم ثم ما لبث أن ألف الأمر.

وأصبح صوت المعصرة مألوفاً بالنسبة إليه، وجاء يوم أوى فيه الشيخ الصغير إلى فراشه، وكانت المعصرة واقفة عن العمل، في تلك الليلة، ولكنه لم يستطع النوم بعد أن تعود أن ينام على صوت المعصرة، وحينما طال به الحال فتح النافذة، ونادى على صاحب المعصرة «يا عبد الله شغل المعصرة» وحينما عادت الضجة وجد النوم سبيله إلى عينيه.

مصنع ظافر :

ونود بعد هذا الاستطراد إلى الحلاوة السمسمية، وقد ذكرت قبلاً أن صناعها من اليمنيين، وقد كان في حارة المظلوم مصنع لها، وصاحبه رجل يمني اسمه ظافر كان ابنه زميلاً لي في مدرسة الفلاح، وقد أتاحت لي هذه الزمالة أن أدخل إلى المصنع، فأرى السمسم وهو يدعس بالأرجل، كما رأيت القدور الكبيرة التي تصنع فيها الحلوى، والنيران المشتعلة، وكانت الحلاوة السمسمية

تصنع على شكل كرات صغيرة، وهي من السمسم المذاب معه السكر المعقود، كما تصنع على شكل ألواح صغيرة مستطيلة، ولكن الأغلب الذي كان يباع هو من هذه الحلوى الكرو ية، وكانوا يبيعون معها حلاوة الرانجين، وهي حلوى تصنع من الرانجين الذي كان يستورد من الهند ضمن ما يستورد منها، وكان هذا الرانجين يقطع إلى قطع صغيرة بعد تنظيفه، ثم يوضع على النار في السكر المعقود، فتخرج الحلوى حمراء اللون، وكان باعة هذه الحلوى يتجمعون أمام المدارس وقت انصراف التلاميذ، فيبيعون لهم هذه الحلوى التي لم تؤخذ الاحتياطات الصحية لعرضها، حيث توضع في صوانٍ مكشوفة للغبار والذباب، والواقع أنه لم يكن هناك وعي صحي، وإلا لمنع الباعة من ممارسة هذا الأسلوب، ولفرضت عليهم الرقابة والوقاية الصحية اللازمة، وعلى أي حال فهذا زمن قد مضى وأصبح للحلو يات الآن أمكنة نظيفة، كما أن الرقابة الصحية متوفرة كذلك والحمد لله.

المعصوب:

ومما يدخل في باب الحلوى وإن كان يعتبر صنفاً من الطعام المعصوب وهو نوع من الخبز الرقيق يخلط بالسمن والعسل و يدق دقاً جيداً، و يستعمل عادة في الإفطار وتشتهر به مدينة جدة، وصناعه من الحضارمة.

الهريسة:

وكذلك الهر يسة، وهي نوع من البر النقي يدق مع اللحم الرقيق دقاً جيداً، بحيث لا يتبين اللحم فيه إلا للذواقين الذين يعرفون كيفية صناعة هذه الهر يسة، لأنها تهرس هرساً جيداً و يضاف إليها بعض الفلفل الأسود، والهيل، وتؤكل بالسمن الذي يجعل له مكان خاص في وسط الطبق، و يضاف إليه السكر المدقوق، وقد اشتهرت مدينة الطائف بإتقان هذه الهر يسة، كما كان بعض الحضارمة في جدة يجيدون صنعها، والهر يسة هي طعام الإفطار المفضل في مدينة الطائف، ولها في مكة، وجدة، والطائف، صناع معروفون، يبيعونها كل صباح في ذلك الزمان.

الفول:

وعلى ذكر طعام الإفطار فإن الفول يعتبر طعاماً شعبياً في الإفطار في الحجاز عامة، وفي مدنه الكبيرة المشهورة خاصة و يشتهر في جدة فوال مشهور اسمه عبد القادر أمير بإتقان الفول، وانتقائه

من أحسن الأنواع، وعلى كثرة من يقصده من الزبائن كل يوم فهو لا يصنع إلا جرة واحدة، والجرة هي الإناء النحاسي الذي يباع فيه الفول، والذين يرغبون أن يأكلوا من فول عبد القادر الأمير، عليهم أن يبكروا بالحضور إلى دكانه بعد صلاة الصبح مباشرة، والذين يمرون من هناك يجدون الواقفين في انتظار دورهم أكثر من الطاعمين، وما هي إلا ساعة حتى يكون الرجل قد باع هذا الفول العتيد وانصرف إلى داره قرير العين، وباعة الفول في كل مدينة كما ذكرنا كثيرون، وهو طعام مليء بالبروتين، وإذا أتقن طبخه وأحسن اختيار نوعه، فهو طعام شهي كذلك، ولا يقتصر تناوله على الإفطار، فالناس في الحجاز يتناولون طعام الفول في المساء كما يتناولونه في الصباح، فهو طعام شعبي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لأنه يجمع بين الفائدة واللذة ورخص الثمن.

ومن الفول كان الناس يصنعون نوعاً من الادام، وذلك بعد تقشير الفول وتنظيفه جيداً ثم يطبخ بالسمن، و يضاف إليه بعض التوابل والفول المخصص لهذه الغاية يسلق و يقشر، ثم يعرض للبيع وكان بعض النسوة يبعنه للراغبين قريباً من أسواق الجزارين و بائعي الخضار، كما يصنع منه نوع آخر على شكل حساء و يسمى الفول النابت، وهذا هو الفول المسلوق غير المقشور و يغلى بعد إضافة بعض البهارات إليه، و يستعمل كحساء للمرضى الذين لايتحملون الدسم من الطعام.

و يستورد الفول من السودان ومن الصعيد في مصر وأجود أنواعه ترد من الصعيد وأحسنه ما كان صغير الحجم مستطيلاً سالماً من السوس مع صفرة في اللون تقرب من الإحمرار.

ويحمص الفول السوداني خاصة، كما يحمص اللوز والفشار و يباع وكأنه من المكسرات، وكان أغلب زبائنه كذلك من الأطفال، وهذه الأنواع في الواقع تحتوي على فوائد كثيرة فهي نباتات عظيمة الفائدة الغدائية، شهية المذاق، رخيصة الثمن، ولهذا انتشرت على النطاق الشعبي وخاصة للأطفال في ذلك الزمان.

الكسكر:

ومن الأطعمة التي كانت مشهورة في ذلك الزمان «الكسكر» وهو ما يسميه إخواننا المغاربة الكسكسي وهو مصنوع من الدقيق على شكل حبات صغيرة، كحبات السمسم، ولكن الغريب أن أهل الحجاز كانوا يطبخونه بالسكر، و يعتبرونه نوعاً من الحلو، بينما عرب شمال إفريقيا يعتبرونه طعاماً رئيسياً. كما نعتبر نحن هنا الأرز تماماً، و يضيفون معه اللحم أو الدجاج

والخضار، وعلى أي حال فإن المدينة المنورة تشتهر بوجود أحسن أنواع الكسكسى لوجود جالية مغربية مجاورة في دار الهجرة، ولعلهم هناك يطبخونه بالطريقة المغربية الأكثر إجادة، كما وصفنا.

اللحوم

الكوزي :

ومن الأطعمة المشهورة في الحجاز والتي لا تزال باقية حتى اليوم، الكوزى، وهو الخروف تنظف أمعاؤه، و يقلى على النار حتى ينضج، ويحمر، ثم يوضع في إناء كبير وقد ملىء هذا الإناء بالأرز المخلوط بالبيض، والزبيب، واللحم المفروم، و يقدم للطاعمين، والكوزى صنف معروف في كل البلاد العربية الخليجية فيما أعرف، و يسمونه في العراق المنسف.

المندى :

والمندى هو كذلك خروف كامل، إلا أنه يصنع بطريقة مخالفة للكوزى، فهو يشوى على المنداة، بحيث ينضج من تلقاء نفسه، وقد اشتهر أهل الطائف كذلك بهذا النوع من اللحوم والدهن الذي يفرزه الخروف،يطبخ به الأرز و يؤكل مع المندى الطحينة، والعسل، ولا يزال المندى معروفاً ومستعملاً في كل مدن الحجاز حتى اليوم.

مكة وإجادة الطبخ :

إذا كانت مدينة جدة تشتهر بإجادة طبخ السمك، وتعدد أنواعه، فإن مكة المكرمة تشتهر بإجادة الطبخ في الأنواع التي تعتمد على اللحوم خاصة، وكان في مكة طباخون مهرة يصنعون من الخضار أنواعاً جيدة متقنة مثل مختوم البامية، وهريسة الملوخية وغيرها من المأكولات التي تعتمد على اللحوم والخضروات، ذلك أن المدينة المقدسة كانت عاصمة البلاد، وكانت لبعدها عن البحر، وانعدام وسائل إيصال منتجاته إليها في ذلك الزمن السحيق، تعتمد على اللحوم وما يتعلق

الشيخ حسن عشي :

وكان أكبر وأشهر طباخ في مكة المكرمة، هو المرحوم الشيخ حسن عشي، وكان رجلاً من أعيان مكة المكرمة، يلبس أحسن الملابس، وأصدقاؤه هم أعيان مكة وسراتها، وكان يطبخ للملوك والأمراء في الحفلات العظيمة، وكان فيما علمت طباخاً للشريف عون الرفيق أمير مكة في العهد العثماني، وقد أدركته في الخمسينات، وهو يتولى الطبخ للحفلات الرسمية التي يقيمها المرحوم الملك عبد العزيز، كما يتولى الطبخ في المناسبات الهامة، التي يدعى فيها لدى النائب العام لجلالة الملك «جلالة الملك فيصل فيما بعد» أو لمعالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية الأسبق، وقد علم أبناءه الثلاثة أحمد وحسين — رحمه الله — وعباس سر الصنعة التي أتقنها إتقاناً لامزيد عليه وكان هو وأبناؤه يظهرون في أحسن مظهر فيلبسون أغلى الملابس وأزهاها، وكان رجلاً معتزاً بنفسه وبفنه، وكان قديراً عبقرياً في فنه، وقد كان مشهوراً بأنه يصنع الحلوى من الدجاج، ولم يكن يعرف سر هذه الصناعة سواه وسوى أبنائه الذين أتقنوا فنه، وحافظوا على أسراره، وكان كذلك رجلاً صالحاً سكن مرة جاراً لنا في الطائف فكانت والدتي تسمع صوته وهو يرتل القرآن في الربع الأخير من الليل — رحمه الله —

بعض أعضاء الحيوان

هناك بعض الأطعمة اللذيذة التي تتألف من بعض أعضاء الماشية وخاصة الخرفان والعجول وأهمها:

الرأس :

أهم الأطعمة التي يستعمل فيها رأس الخروف هي الثريد، وذلك بأن يسلق الرأس سلقاً جيداً، حتى ينضج ثم يؤخذ ماؤه ويفت فيه الخبز الناشف إلى قطع صغيرة، ويسقى بهذا الماء، مضافاً إليه بعض التوابل ثم يكسر الرأس ويستخرج ما بداخله من المخ واللسان والأشفار وغيرها، وبعض الناس يشوون الرأس بطريقة المنداة، وفي هذه الحالة يسمى الرأس المندى، وله صناع يقومون بهذه العملية في الأسواق، ويشترى منهم الرأس أو على الأصح محتويات الرأس فتخرج ناضجة شهية للآكلين.

وفي الأطعمة التي يقدم فيها الخروف كاملاً مثل السليق والكوزى والمندى يوضع الرأس

بجانب الخروف حيث يجري إفراغ محتو ياته بواسطة العارفين لذلك، وتقدم أجزاؤه للضيوف مع كبد الخروف وكليتيه.

المقادم :

كما أن المقادم وهي أرجل الخرفان تنظف تنظيفاً جيداً، وتسلق وتباع في الأسواق وكذلك أرجل العجول الصغيرة، وفي مصر تسمى الكوارع (واحدها كراع) وهو اسم عربي صحيح، أما المقادم فهي إشارة إلى الرجلين الأماميتين للخروف، وصناع المقادم في مدن الحجاز كثيرون ومعروفون، وكانت لهم أماكن معروفة في سوق الندا، وسوق العلوي يطبخون فيها هذه الكوارع، في قدور كبيرة جداً بعد أن يوقدوا عليها النيران الكبيرة المشتعلة لفترات طو يلة، و بعضهم يترك هذه الكوارع تغلى في قدورها طيلة الليل حيث تقدم للزبائن في الصباح الباكر بعد صلاة الصبح، وهو طعام دسم وفي البيوت يشترون هذه المقادم بعد تنظيفها و يعتنون بغسلها وصنعها مع الثر يد، وخاصة في إفطار شهر رمضان المبارك.

الكرشة والعصبان :

الكرشة هي بطن الخروف أو كرشه الذي تتجمع فيه الفضلات، أما العصبان فهي العروق الكبيرة أو الأعصاب، ولعل كلمة العصبان جمع عصب، وهذه الكرشة تنظف و يصنع لها حساء توضع فيه هذه الكرشة والعصبان، بعد أن تقطع إلى قطع صغيرة بعد تنظيفها جيداً، وتباع كطعام شعبي في وقت الظهيرة، وكما ذكرت فإن باعة المقادم والروس والكرشة وملحقاتها لهم أماكن معروفة، كما أن لهم ز بائن معروفين، وخاصة من الطبقة الشعبية التي تخرج من بيوتها مبكرة لتسعى على أرزاقها، أو المحرومة من حياة العائلة.

السقط :

و بالنسبة للكرشة فإني أدركت الناس في مدينة جدة يصنعون منها ومن بقية أعضاء الحيوان كالكبد، والطحال، والكلية، طعاماً شهياً للغاية، و يطبخونه كما يطبخ الادام بعد إضافة الحمص إليه والطماطم، و بعض البهارات فيخرج طعاماً شهياً، وأهم ما فيه هو تنظيف الكرش تنظيفاً جيداً حتى يصبح أبيض نقياً وتطهيره بالماء الحار ثم تقطيعه إلى قطع صغيرة وإضافة الكبد والكلى والطحال إليه، بعد تقطيعها أجزاء صغيرة، وطبخ الجميع على النار بعد إضافة الحمص

والطماطم والتوابل إليه و يتكون من مجموع هذا طبق شهي للغاية، ولا يزال الطباخون في مدينة جدة يقدمون هذا الصنف إذا طلب إليهم وخاصة في أكل المآتم، وكأنه نوع من الادام، ولكن أحسن من يُطمأن إليهم في إتقانه هم سيدات البيوت اللاتي يشرفن على من يقمن بتنظيفه النظافة الكاملة، وفي الأربعينات والخمسينات كان من العادي في جدة عمل هذا النوع من الطعام، كنوع من التغيير والتفكيه، ولكن الناس في مكة المكرمة كانوا يشْتعرُّون من ذلك، فإذا رأوا من يشتري الكرش (الذي يسمونه السقط) محملة في سوق الجزارين تندروا به مشهرين، وأذكر أن صديقاً لنا في مكة المكرمة ذاق هذا السقط فأعجب به كثيراً وحينما علم بطريقة صنعه أراد أن يتعلمها، وكنا كلما دعوناه إلى الغداء ألح أن يكون السقط من ضمن أصناف الطعام.

ولم يعد الآن من يصنع هذا السقط في البيوت فيما أعلم، لأنه ليس هناك من يستطيع معاناة تنظيفه وطبخه، ورحم الله سيدات البيوت من الجيل الماضي، والجيل الذي سبقه، اللاتي كن يصنعن العجائب في بيوتهن، ولكن هذا السقط كما ذكرت يقوم بعمله الطباخون، ولكن لا أكتم القارىء أني لا أطمئن إلى نظافته على أيدي الطباخين ولهذا فلست الآن من آكليه.

الشعيرية :

هناك طعام آخر يعد من أصناف الحلو يسمى الشعيرية، وهو يشبه الكنافة في طريقة صنعه، ولم أر من يصنعه هنا لأن الشعيرية كانت تستورد من إيطاليا فيما أظن، وتباع بالكيلو، والشعيرية عبارة عن دقيق مصنوع على شكل خيوط رفيعة مبرومة، وتقلى بالسمن حتى يحمر لونها ثم يضاف إليها السكر وتقدم لتؤكل في الإفطار.

الأشربة

الأشربة التي كانت مشهورة في الحجاز هي الأشربة التي كانت تلائم الجو الحار الذي يعيش فيه الناس، فكانوا في الصيف يصنعون هذه الأشربة و يبيعونها للراغبين.

السوبيا :

وأهم هذه الأشربة الشعبية هو شراب السوبيا، وهو يصنع من الخبز بعد أن ينشف و يدق جيداً ثم يحفظ في مواعين مكتومة مدة معينة، ثم يخلط بالماء البارد والسكر المذاب و يوضع في أزيار من الفخار و يعرض للهواء حتى يبرد ثم يعرض للبيع.

الزبيب :

ومثل السوبيا، كان الزبيب البارد، وهو يصنع من الزبيب الأسود بعد غليه كذلك، و يعالج بنفس الطريقة التي وصفناها في السوبيا، و يوضع كذلك في أزيار من الفخار ليكون بارداً للشاربين.

شراب الليمون :

وهناك أيضاً شراب الليمون، وهو عصر الليمون في الماء وإذابة السكر فيه، وكان شراب الليمون يصنع في البيوت كذلك، و يقدم للضيوف في أيام الصيف، كما كان يصنع هذا الشراب للحجاج بعد تلوينه باللون الأصفر والأحمر، وكان أكبر زبائنه من الأندونيسيين الذين كانوا يسمونهم الجاوة، نسبة إلى جزر جاوا المشهورة، وكان الباعة ينادون عليه باللغة الأندونيسية، «انقرمنيس» وكان باعة هذا الانقرمنيس يتخذون حوانيتهم أو بسطاتهم في مراكز تجميع الحجاج، عند خروجهم من منطقة السؤال والجوازات، حيث كانوا يردون بالبواخر، وقد اشتهر إخواننا الأندونيسيون بأنهم يقلدون بعضهم البعض فإذا اشترى واحد منهم شيئاً تبعه الباقون واشتروا مثله، وإذا نطق أولهم باسم مطوف تبعه الباقون فنطقوا بنفس الإسم، وكان للباعة معهم قصص كثيرة في إغراء أول رجل في القافلة على الشراء، بل وإرغامه في بعض الأحيان ليتبعه الباقون، كان هذا يوم أن كانت بلادهم في يسر ورخاء وكانت الروبية الجاوية عملة قوية، وكانوا يصلون إلى البلاد ومعهم الذهب والماس، فكان الحجاج الجاويون أغنى الحجاج وأكثرهم صرفاً في الحجاز، فكان مطوفوهم ووكلاء هؤلاء المطوفين يعيشون في بحبوحة مما تدره هذه الصناعة وسبحان مغير الأحوال ومقلب الزمان.

شراب الحمر :

وكان هناك كذلك شراب الحمر، وهو التمر الهندي كما يسميه المصريون، و يصنع هذا الشراب بأن ينقع الحمر في الماء بعد تنظيفه وإخراج النوى الذي بداخله، ثم يصفى و يذاب فيه السكر ثم يبرد للشاربين.

شراب الخروب :

وكان هناك شراب يصنع من الخروب بعد غليه كذلك ودقه وإذابة السكر فيه وهو شراب جميل الطعم والرائحة وكان صناعه يضعونه في زجاجات كبيرة يحملونها على ظهورهم و يبيعونه في كاسات صغيرة تشبه الكاسات التي كان يصب فيها الزمزم في المسجد الحرام.

وقد انتهى الآن استعمال الناس لهذه الأشربة جميعها، وحلت محلها العصيرات المعروفة للفواكه، والتي تعصر في البيوت وترد معلبة من المصانع الخارجية.

القرفة والزنجبيل :

في الشتاء يستعمل الناس القرفة والزنجبيل طلباً للدفء، وذلك بغلي الزنجبيل مع القرفة في إناء واحد، ثم تصفيتها وإذابة السكر فيها و يصب بعد ذلك في الأكواب، حيث يدار في ليالي الشتاء على السامرين، وكان يستعمل كذلك لمعالجة المصاب بالبرد لأنه يكسب الجسم دفئاً وحرارة.

قهوة اللوز :

وفي الشتاء كذلك يتناول الناس قهوة اللوز، وهي قهوة تصنع من الحليب بعد دق اللوز الحجازي، وتقشيره وسلقه، وإضافة الحليب، حتى ينعقد و يذاب فيه السكر، ثم يقدم في الأكواب، ولاتزال قهوة اللوز معروفة حتى الآن في بعض الأوساط، أو على الأصح بدأ الناس يعودون إلى استعمالها بعد انقطاع طو يل.

لبن الجاموس :

ومن الأشربة التي كان يحبها الناس في الأربعينات والخمسينات، لبن الجاموس، وكان يرد في علب مختومة، وهو لبن ثخين أصفر اللون، شديد الحلاوة، فكانوا يمزجونه بالشاي و يتناولونه في ليالي الشتاء، وهو دسم المذاق وقد انقطع استعماله منذ وقت طو يل.

وعلى ذكر الحليب كان المعتاد وجود الأغنام في كل بيت، حيث يأخذ الناس حاجاتهم من الحليب، أما العائلات الكثيرة العدد فكان لديهم بقرة أو أكثر لهذه الغاية وكانت البيوت مزودة بأحوشة لهذه الحيوانات.

قهوة القشر :

وكان هناك قهوة اسمها قهوة القشر وهي من قشر البن، حيث يغلى و يضاف إليه السكر المذاب، وكان البن الذي يرد إلى البلاد من اليمن والحبشة، وكان القشر يباع في شوالات كبيرة وله مستوردون، وكانت البادية تشتر يه لأنه أرخص كثيراً من البن.

القهوة والشاي :

ولست في حاجة لأن أذكر الشاي أو القهوة، لأنها أشهر من أن يذكرا، فالشاي كما هو معروف شراب رئيسي في الحجاز، يستعمله الناس في كل وقت، في الليل أو النهار قبل الطعام أو بعده، كما يستعمل إخواننا أهل نجد القهوة بنفس الأسلوب.

و يرجع معرفة الناس للشاي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وأحسن أنواعه تزرع في سيلان والهند، وهناك أنواع جيدة من الشاي تزرع في الصين.

وفي المدينة يستعمل الناس الشاي الأخضر، وقد أخذوه عن إخواننا المغاربة الذين يفضلونه على الشاي الأسود أو الأحمر و يسمونه «أتاي».

الوجبات الرئيسية

هذا وأود أن أذكر أن الناس خلال الأربعينات والخمسينات كانوا يعتمدون على وجبتين رئيسيتين: الأولى وجبة الإفطار، وهي تتكون من الفول والبيض والعسل، وفي العائلات الكبيرة العدد يضاف إليها الكسكسو والشعيرية والمقادم واللبن الحامض، والوجبة الثانية هي طعام الغداء، وهي تتكون من اللحم والخضار أو السمك، والأرز صحن ثابت في طعام الغداء، وبعض الناس وخاصة الذين يعملون في الدكاكين يؤخرون الغداء إلى ما قبل العصر، أما الموظفون وما إليهم فيتناولون غداءهم في الظهيرة حيث يخلدون إلى الراحة ساعة، أو بعض ساعة يستأنفون بعدها أعمالهم من حوالي العصر إلى ما بعد الغروب.

وفي الليل يتناول الناس طعاماً خفيفاً، أو يعتبرونه خفيفاً، وهو طعام دسم لأنه يتكون إما من المطبق، أو المقلية وهي عبارة عن أقراص من الكشري، وهو نوع من العدس يقلى و يباع في الأسواق، أو يصنع في البيوت و يسمونه في مصر الطعمية، وهي غنية عن التعريف، ولا تزال تصنع في مدن الحجاز، وتباع حتى اليوم، ونعود بعد هذا الاستطراد إلى الأصناف التي يتناولها الناس في العشاء، وهي بالإضافة إلى ما ذكرنا الفول والبيض والحلاوة الطحينية أو المفروكة،

وما إليها وأغلب الظن أنهم يعتبروها خفيفة لأن أغلبها يشترى جاهزاً فلا عناء في طبخه وتحضيره.

وبعد فليس ما ذكرناه من ألوان الطعام وأنواع الحلويات والمشروبات في هذا الفصل هو كل ما كان معروفاً من هذه الأصناف، ولكني فيما أظن ذكرت معظمها، وقد يكون فاتني ذكر بعضها، وليس الغرض هو الإحاطة التامة، بكل ما كان يتناوله الناس من طعام وشراب، وإنما الغرض الحقيقي هو إعطاء الصورة الكاملة عن ذلك، آمل أن أكون قد وفقت في إعطاء هذه الصورة حقها من الوضوح والتبيين.

* * * *

الفصل التاسع

فن الغناء والطرب

اسماعيل كردوس - حسن جاوه :

كان الغناء هو أبرز الفنون الحجازية الأصيلة في الأربعينات والخمسينات، وكانت مكة المكرمة تنفرد باثنين من أعلام الغناء في ذلك العصر، هما زعيما هذا الفن، أعني بهما الشيخ إسماعيل كردوس، والشيخ حسن جاوة، والأخير هو والد الأساتذة أمين وجمال جاوة.

وكانا يحييان حفلات الغناء التي كانت تقام دائماً بمناسبة الأعراس الكبيرة، في مكة المكرمة، وجدة، والتي قدمنا وصفاً تفصيلياً لها في باب الأعراس، وكان الغناء في الواقع يقوم على الإنشاد، ولم تكن تصاحبه آلات الطرب، كالعود، والكمان، والقانون، وغيرها من الآلات التي يشاهدها الناس، والتي تتكون منها الفرق الغنائية، فلقد كان استعمال هذه الآلات ممنوعاً بصورة صارمة خلال الأربعينات والخمسينات، بل وحتى الستينات وما بعدها، كما أنه لم تكن هناك الميكروفونات لأنه لا توجد كهرباء، وقد ذكرنا أن إذاعة الآذان من الحرم المكي الشريف بالميكروفون، إنما تم في النصف الأول من الستينات(١) ولهذا فإن المغني أو المنشد إنما كان يعتمد على صوته وحده، وكانت أصوات المغنين الذين ذكرتهم جهورية عالية الطبقات، وكان المرحوم إسماعيل كردوس أعلاهم طبقة، وأجهرهم صوتاً، وكانوا يبالغون إنه إذا كان يغني في الهدا سمعه الناس في الكر، والكر بضم الكاف والراء وتشديدها هو سفح جبل كرا وهو موضع معروف في الطريق الجديد للطائف، وكان هؤلاء المغنون يتعلمون الغناء على أيدي المغنين والمطربين المشهورين في زمانهم، وكانوا يتقنون الإنشاد إتقاناً تاماً، وما يقال عن إسماعيل كردوس يذكرني بما قرأناه في كتب الأدب عن المغني الحجازي الشهير معبد الذي كان مختصاً

(١) انظر الحلقة الخاصة بالشيخ عبد الرؤوف الصبان في كتابنا أعلام الحجاز في القرن الهجري الرابع عشر.

بشاعر الغزل الشهير عمر ابن أبي ربيعة، والذي كان إذا أنشد حبس الحجيج كله ليستمع إلى إنشاده، وقد أدركت كلا من إسماعيل كردوس، وحسن جاوة، شاهدتها أولاً في حفلات الأعراس الكبيرة التي كانا يستقدمان لها من مكة المكرمة خصيصاً، فيقضيان الليالي العديدة في جدة، لإحياء هذه الحفلات، ثم شاهدتها في مكة المكرمة، والطائف، حينما أقمت في مكة السنوات الطوال، وتوثقت صلتي بالمرحوم الشيخ حسن جاوة، الذي كان يقضي بعض أشهر الصيف في ضيافة المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان بالطائف في بعض الأعوام، وكان رجلاً ذواقة أريباً، يعطي المجالس حقها فإذا حضر إلى الحفل نظر إلى الحاضرين ليعرف مشاربهم فينشد لهم ما ينسجم مع أذواقهم، وتطرب له نفوسهم، فإذا كان المجلس يضم المتعلمين من الشباب مثلاً أنشدهم من شعر الغزل الرقيق، وكان يحفظ إلى جانب الشعر القديم طرفاً من الشعر الحديث، وكان هناك من يمدونه بهذا الشعر الجيد، ويطلبون منه إنشاده، وأذكر أنه بعد أن توثقت صلتي به كان يطلب مني تصحيح النطق لبعض المقطوعات الشعرية، ويقول لي (شيخها) فكنت أكتبها له بخط واضح وأشكلها تشكيلاً كاملاً ونقرأها معاً المرة تلو المرة، حتى يسلم له نطقها دون لحن أو خطأ كما كان يطلب ممن يعرفهم من الأدباء اختيار ما يستحسنونه له لإنشاده.

على أي حال كان الرجل ذواقة أريباً كما ذكرنا قبل، وكان يعطي لكل السامعين ما يرضي أذواقهم، وتطرب له جوارحهم، فإذا كان الجمع من عامة الناس وخاصة حينما يتجمع حوله شبان الحارة ويحيطون بدكاك العرس، كان ينشد لهم القصائد الحماسية لعنترة، وأبي فراس، وإذا كان الجمع من العلماء والمشايخ الذين تمتاز مجالسهم بالوقار لجأ حسن جاوة — رحمه الله — إلى هذا الشعر الذي يعتبره بعض المتصوفين تمجيداً للذات الالهية، ويأخذه غيرهم على أنه من الغزل العف الرقيق، كما أنه كان يختار لما ينشد الأوقات التي تتناسب مع الإنشاد وأذكر أنه كان دائماً في آخر الليل يغني قصيدة شاعر العرب المرحوم فؤاد الخطيب في الطائف.

أيها النائم قد حان البكور … وانطوى الليل كما تطوى السطور
ولقد خطت يد الله على … صفحة الكون الخلق سطور

والتي يقول فيها في وصف حدائق الطائف:

ولقد حدثني رمانها … أنه كان نهوداً في الصدور
وروى لي البان عن أعطافها … أنه كان قدوداً وخصور

وكان المغنون الحجازيون يبدأون الإنشاد بالمجس، بفتح الجيم، وسكون السين، وهذا المجس هو نوع حجازي خالص، وهو عبارة عن مقطوعة صغيرة تتكون من أربع أبيات أو أقل، أو أكثر، من الشعر العربي الفصيح، يبدأ بها المغني إنشاده، فيستثير حماس السامعين ويهيىء نفوسهم لما سيغنيه بعد، وهذا المجس يطرب له السامعون بحيث لا يملكون إلا ترديد استحسانهم، حينما يتوقف المغني بأصوات عالية، تنسجم مع نفس النغم الذي ينشد به المغني، وكان المغني يتجاوب مع هذا الترديد، ويستزيد السامعين منه بنغمة خاصة يختتم بها المجس، ويسمونها المحط، بفتح الميم والحاء، وسكون الطاء، فتنطلق أفواه السامعين بالترديد المطلوب، الذي تصاحبه بعض كلمات الاستحسان من السامعين المتحمسين.

وكان المغني بصورة عامة هو الملحن، وهو المنشد، فلم تكن هناك فرقة الموسيقى، أو الكورس، أو خلافه مما هو معهود في هذه الأيام، ذلك أن استعمال آلات الطرب في ذلك الوقت كان محظوراً.

آلات الطرب :

وكان هناك من يتقن الضرب على هذه الآلات، ولكنهم كانوا يمارسون ذلك في السر بعيداً عن العيون والآذان في أقبية البيوت، أو في الأماكن المكتومة، التي لا تظهر فيها أصوات آلات الطرب أو في الخلاء بعيداً عن العمران.

الطريقة :

وكان المغني إذا انتهى من المجس بدأ بالغناء، وكان هذا الغناء على أنواع، وكان أشهره الطريقة اليمانية، وهو غناء راقص تهتز له الجوارح طرباً، وخاصة إذا صاحبته آلات الطرب، وللطبل فيها مكان بارز، ولعل أشهر من يمثل هذا النوع من الغناء في الوقت الحاضر، هو المغني الأستاذ محمد علي سندي فهو بقية من يجيدون هذا الفن الجميل.

وكان هناك الغناء العراقي ويسمونه النغمة عراق، وكان أشهر وأجود من يؤديه المرحوم إسماعيل كردوس، ويشعر السامع بالشجن الذي تمثله تلك النغمة الطويلة، التي يختتم بها المغني إنشاده، والتي تسمع فيها بعضاً من نواح الروح الشجي الحزين.

وكان هناك الغناء المصري، وكان أجود من يتقنه هو المرحوم سعيد أبو خشبة وهو مغن شاب من مكة المكرمة، ويأتي مقامه بعد كل من حسن جاوة، والكردوس، ولعله حينما بدأ الغناء

كان أولئك على مشارف شيخوختهم، وكان الغناء المصري قد انتشر بفعل الراديو الذي ظهر في مصر لأول مرة في الخمسينات بعد تأسيس الإذاعة المصرية، وأخذ الناس يستوردون أجهزة الراديو، ويلتقطون هذه الإذاعة، ويستمعون إلى أغاني أم كلثوم التي كانت تقام لها حفلات شهرية، وإلى أغاني محمد عبد الوهاب وصالح عبد الحي، وفريد الأطرش، فكان هواة الغناء ومحترفوه يقلدون هذه الأغاني، وكان البعض منهم يتقنها إتقاناً جيداً.

اسطوانات الغناء :

وقد سبق الإذاعة المصرية إلى نقل الغناء المصري بصورة خاصة وبعض أغاني سوريا ولبنان والعراق الحاكي «الذي كانوا يسمونه صندوق الغناء» والذي لم يكن يخلو منه بيت في المدينة، وإلى جانب الحاكي توجد هذه الاسطوانات المسجل عليها أغاني المغنين، وكان أشهرها على الإطلاق زعيمي الغناء في مصر محمد عبد الوهاب وأم كلثوم، وكان أشهر موردي هذه الاسطوانات في جدة هو المرحوم محمود يغمور، كما أن المرحوم الشيخ عبد الله بن زقر كان أول من استورد الحاكي الإنجليزي الحديث في ذلك الزمان، والذي يسمى «صوت سيده». وهكذا كان للغناء المصري سوقه الرائجة ومقلدوه من المغنين الحجازيين، وكان سعيد أبوخشبة من أبرز هؤلاء المتقنين لهذا النوع من الغناء.

المغنون والمطربون الهواة :

إن الأمثلة التي ذكرناها عن أشهر المغنين تعطي صورة عن الواقع الفني للغناء والإنشاد في ذلك العصر، وهؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم هم المغنون المحترفون، إذا صح هذا التعبير، أي الذين كانوا يتخذون الغناء حرفة أو كانوا يمارسونه إلى جانب حرفة أخرى، فلقد كنت أعرف المرحوم حسن جاوة وله دكان في سويقة لبيع بعض الملابس، كالجبب، والشيلان، وما إليها، وكان مختصاً بآل البوقري الذين كانت حوانيتهم تملأ السويقة، وكان على صلة عظيمة بهم، ولعل المرحوم سعيد أبوخشبة، كان يمارس حرفة أخرى هي الطوافة، ولكن هؤلاء كانوا قد اشتهروا كمغنين محترفين، وكان إلى جانب هؤلاء طبقة أخرى من الفنانين الشبان الذين كانت لهم أعمالهم ووظائفهم، وبعض هؤلاء كانوا يشغلون بعض الوظائف الهامة، وكانت ممارستهم للغناء أو الضرب على الآلات التي يتقنونها في حدود ضيقة خاصة بالخلص من أصدقائهم أو بالصفوة من الناس الذين يستدعونهم للسماع في بعض الأوقات، وكان من أشهرهم في مكة المكرمة المرحوم

عبد الله مكي الذي كان يشغل وظيفة كبيرة في ديوان التحرير بوزارة المالية، وكان يتقن العزف على العود، كما يتقن الغناء، وكان له صوت جميل رقيق.

وكان كذلك الشريف محمد بن شاهين من ذوي الأصوات الجميلة، وكان يغني في المجالس الخاصة، وفي الحفلات التي تقام خارج مكة المكرمة، لجماعة محدودة من الأصدقاء والمعارف.

وكان هناك من يجيد العزف على جميع آلات الطرب، وأذكر أنه كان هناك عازف للقانون اسمه حمزة مغربي، وفنانون آخرون يعزفون على العود والكمان معروفون، وأغلبهم من الهواة الذين أحبوا هذا الفن فتعلموه و برعوا فيه.

هذا بالنسبة لمكة المكرمة، أما بالنسبة لمدينة جدة، فكان أشهر عازف على العود هو شاب لبناني، أقام في جدة وتزوج بها اسمه نور الدين كوسة، وكان جميل الصوت جيد العزف، ولم يكن يغني أو يعزف إلا في المجالس الخاصة، وكان له دكان لبيع الأقمشة في السوق الكبير بمدينة جدة، كما كان المرحوم الأستاذ حسن يحي من أجود العازفين على الكمان، وهو والد المغنية الشهيرة في جدة فتحية يحيى والتي أخذت الفن عن والدها الشيخ حسن يحيى. الذي كان باش كاتب جمرك جدة في العهد الهاشمي، وكانت له خطوة كبيرة لدى ناظر عموم الرسوم وكبير جدة في ذلك الزمان الشيخ محمد الطويل.

وكان هناك أيضاً المرحوم محمد علي يحيى وهو موظف مرموق في جمرك جدة، وشاب آخر اسمه عابد شيخ —وهو ليس وزير التجارة الأسبق— وإنما يتشابه الإسم وتختلف العائلات، وكان موظفاً في شرطة جدة، وكان كذلك من ذوي الأصوات الجميلة، وكل هؤلاء كانوا يظهرون فنهم في أوساط أصدقائهم ومعارفهم، والواقع أننا هنا لا نستقصي الأسماء، فذلك مما لا يدخل في أغراض هذا البحث وإنما نقصد إعطاء صورة عن الواقع الفني في ذلك الزمان.

الحداة والمنشدون:

ومما يدخل في باب الإنشاد والغناء نذكر أن الناس في العهد الهاشمي وما قبله كانوا يسافرون إلى المدينة المنورة ممتطين الإبل، أو الحمر، والخيل، والبغال، وكانوا يخرجون في جماعات كبيرة في مواسم الزيارة، وكان التجمع يسمى «ركباً» بفتح الراء وسكون الكاف، وفتح الباء المنونة، وكان كل ركب من جدة أو مكة يصطحب منشداً ينشد للركب حين خروجه من جدة، أو مكة، حين يتجمع الناس لوداع الركب كما ينشد للركب في الطريق، وخاصة إذا وصلوا إلى

بدر، وكذلك في دخولهم إلى المدينة المنورة، وخروجهم منها، وحين عودتهم بعد إتمام الزيارة إلى ديارهم، وهؤلاء المنشدون هم أشبه ما يكونون بالحداة إذا صح هذا التعبير، وخاصة حينما ينشد المنشد والركب في حالة السفر، وهذه الأناشيد كانت عبارة عن المدائح النبوية، مثل الهمزية، والبردة للبوصيري، وأمثالها من هذا الشعر الذي يبدأ بالغزل و يصف الشوق إلى المدينة المنورة، والوقوف على آثارها، ثم ينتهي إلى تمجيد صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وطلب شفاعته والتغني بمآثره وأفضاله.

وبحلول السيارات محل الحيوانات في السفر إلى المدينة المنورة انطوت صفحة الركب وما يصاحبها من الحداة والمنشدين، وكان أشهر منشد للركب في جدة رجلاً اسمه برعي، وكان في نفس الوقت يؤذن في مسجد الشافعي وكان جميل الصوت جهيره.

الترحيم والتذكير:

ومما يتصل كذلك بفن الإنشاد نذكر أنه كان كذلك في العهد الهاشمي وما قبله ما يسمى بالترحيم والتذكير، وكان الذين يقومون بهذه المهمة هم المؤذنون، وكانوا يختارون من ذوي الأصوات الجميلة والقوية، ولم يكن هناك الميكروفون، وإنما كان المؤذن يصعد إلى المنارة العالية فينطلق صوته في جوف الليل قائلا: «يا أرحم الراحمين ارحمنا» وهذا هو الترحيم، فيوقظ النوام ليستعدوا لصلاة الفجر، أما التذكير فهو كذلك نوع من الإنشاد الديني يحتوي على أسماء الله وصفاته العليا، يذكر بها الغافلون السادرون في دنياهم، وكان محل هذا الإنشاد هو قبل الفجر و يكون التذكير على هذا الإنشاد أكثر في ليالي الجمع، والأعياد، والمناسبات الدينية، وما إليها والواقع أن ذكرياتي عن الترحيم والتذكير هي ذكريات بعيدة لأن العهد الهاشمي انتهى، وأنا في العاشرة من عمري، فلست أستطيع إيفاء الوصف حقه وإن كنت أذكر أنني أستيقظ من نومي قبل الفجر، وأنا أسمع المؤذن وهو ينادي يا أرحم الراحمين ارحمنا، وقد انتهى هذا الترحيم والتذكير بدخول العهد السعودي وأستعيض عنه بالآذان الأول للفجر الذي يتم قبل طلوع الفجر بساعة كاملة.

المؤذنون:

والواقع أن المؤذنين كما ذكرنا كانوا يختارون من ذوي الأصوات الجميلة والقوية، وكان منهم من يقتصر على الأذان، ومنهم من يمارس الغناء والإنشاد، وأذكر أن المرحوم الشيخ حسن لبني من مؤذني المسجد الحرام في مكة المكرمة كان من ذوي الأصوات القوية، وكنا ننام في

مكة المكرمة في الصيف في خارج المدينة المقدسة في مقهى بعيد عن العمران، وكان الشيخ حسن لبني يوقظنا في جوف الليل حينما تستبد به الرغبة في الغناء، فلا يستطيع أن يقاومها فيجلس على كرسيه و ينطلق صوته بالغناء، وكان البعض يطرب لذلك، ولكن الكثيرين كانوا يحتجون على إيقاظهم من لذيذ النوم في ليالي الصيف القصيرة، حتى ولو كان المغني هو حسن لبني، ولله في خلقه شؤون، ولقد أدركت كثيراً من المؤذنين ذوي الأصوات الجميلة، وكان أشهرهم في جدة الشيخ أحمد قمر، وكان يؤذن في مسجد الحنفي، والشيخ عمر دينة، وكان يؤذن في مسجد الشافعي، كما أن المسجد الحرام والمسجد النبوي خاصة وحتى هذا الوقت لا يزالان ممتلئين بذوي الأصوات الجميلة التي تنقل الأذان إلى كافة أقطار الأرض و يستمتع بها الناس وتخشع لها القلوب.

المسحراتية :

ومما يتصل بهذا الباب المسحراتي، وكانوا يسمونه في جدة «المسحر» بضم الميم وفتح السين وفتح الحاء المشددة، وسكون الراء، وهو اسم فاعل من السحور، وكان هذا المسحر يدور على البيوت في ليالي رمضان، ليوقظ النائمين لتناول طعام السحور، و بيده طبلة يضرب عليها و ينادي سكان البيوت بأسمائهم فينادي على الذكور بأسمائهم قائلاً: الشيخ حسن صبحك الله بالرضى والنعيم، حسين أفندي صبحك الله بالرضى والنعيم، وهكذا لا يترك اسماً من الأسماء بما في ذلك الأطفال الذين يسرون و يطربون لسماع أسمائهم، وكان يقول: «قوم يا نائم اكسب الغنائم، قوم أذكر الحي الدائم» وما إلى ذلك من أمثال هذه النداءات، وكان أشهر مسحراتي في جدة، ولعله كان مختصاً بحارتي الشام والمظلوم اللتين كنت أسكنها، هو المرحوم العم محرم، وكان صاحب دكان في حارة المظلوم، يبيع السكر والشاي كما كان يؤجر الكتب التي تحتوي على قصص ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة، وغيرها من القصص التي كان لها سوق رائج في تلك الأيام، والتي كان يتجمع الناس في البيوت كل ليلة للسمر عليها، ثم حل محلها الراديو فيما بعد.

وقد انتهى المسحراتي أو المسحر بعد إزالة السور وامتداد العمران إلى خارج المدينة وضواحيها، فاندثر العقد النظيم وتفرق شمل الجميع، فمن أين للمسحر أن يهتدي إلى هؤلاء الناس بعد أن بعدت منازلهم في كل اتجاه؟

المغنيات من النساء:

وإكمالاً للبحث نذكر نبذة عن المغنيات من النساء، وإن كان ما سنسجله هنا لا يشفي الغلة، لأن المجتمع في ذلك الزمان كان منفصلاً فصلاً تاماً، ولم تكن هناك الميكروفونات التي تنقل الأصوات بالصورة التي هي عليها الآن، فأذكر أنه كانت في الأربعينات في مدينة جدة مغنية اسمها فاطمة العتيبية إن لم تكن خانتني الذاكرة في الإسم الأول، أما الإسم الثاني العتيبية فهو ثابت، وكانت ذات صوت جميل، وكانت تقرأ الموالد في البيوت، كما كانت تقوم بزفة العروس وما إلى ذلك مما سبق وصفه في باب الأعراس، وفي الخمسينات وما بعدها كانت هناك مغنية أخرى اسمها (غربية) وقد وفدت إلى جدة من مكة المكرمة، وطابت لها الإقامة فيها، وكانت تحيي حفلات الزفاف وقد نالت شهرة واسعة في ذلك الزمان، وكان صوتها جميلاً وقوياً، وكانت تحفظ الأغاني الشائعة في ذلك الوقت وتتقن أداءها، كما كان في مكة المكرمة مغنيات كثيرات لا تحضرني أسماؤهن، وهن على أي حال بمثل الوصف الذي ذكرنا يحيين حفلات الزفاف ويساعدهن في ذلك فريق من اللاتي يضربن على الدفوف فإذا خرجت العروس للجلوة صحبنها، وهن يضربن بدفوفهن وينشدن النشيد الذي يبدأ بطلب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم في وصف جمال العروس وآدابها، وإذا أقبل العريس مع أهله استقبلوه بمثل ذلك مع الترحيب بالقادمين، وإذا استقر المقام بالجمع بدأ الغناء، وقد بقي في ذاكرتي من وحدة هذا الغناء ما يسمى بالطابق والكسرة ولعل فضليات السيدات اللواتي يعنين الآن بإحياء هذا التراث القديم، هن أقدر على وصفه، وأعرف به مني ومن أمثالي وإني لأرجو أن يشارك العارفون بذلك والعارفات لإكمال الصورة التي أحاول تسجيلها عن هذا العهد بمختلف جوانب الحياة الاجتماعية فيه.

الفصل العاشر

الرياضة والألعاب

في أواخر الأربعينات، وأوائل الخمسينات، ظهرت لأول مرة لعبة كرة القدم في مدينة جدة، وتألفت الأندية الرياضية لأول مرة، وكان أولها وأكبرها شأناً هو فريق الاتحاد الذي يسمى في الوقت الحاضر نادي الاتحاد.

فريق الاتحاد:

ولقد كان لهذا الفريق محبون كثيرون، بل نستطيع أن نقول: إن مدينة جدة بأسرها كانت تتشيع لهذا الفريق، وتشجع وتتحمس له، كما هو حادث بالنسبة لأندية كرة القدم، في كل بلاد العالم، ولعل من أكبر الأسباب التي أظهرت فريق الاتحاد بالمستوى القوي أنه كان يضم لاعبين ممتازين، بعضهم من أبناء البلاد الذين تلقوا العلم في السودان وفي مصر، وكانوا يمارسونها هناك ثم عادوا إلى بلادهم ليعملوا فيها، والبعض الآخر من إخواننا السودانيين والهنود، الذين يعملون في مدينة جدة لدى الشركات والسفارات الأجنبية، وأذكر من هؤلاء الأستاذ حسن كامل السوداني الجنسية، والذي كان أستاذاً لنا في اللغة الإنجليزية، وكان يعمل في الشركة الشرقية، التي أسسها المستشرق الإنجليزي المسلم سانت جون فلبي، والذي سمى نفسه الحاج عبد الله فلبي وكذلك السيد قاضي، وكان يعمل في نفس الشركة المذكورة، وهو هندي الجنسية وهو والد الأستاذ قاضي الموظف بشركة كهرباء جدة في الوقت الحاضر، وكذلك الأستاذ عرفان محمد عبد الله وهو من السودانيين الذين وفدوا إلى البلاد مع دخول السيارات في الأربعينات، وكان يعمل كذلك محاسباً بشركة القناعة للسيارات، ومدرساً للغة الإنجليزية للراغبين في تعليمها، ولكنه لم يطل به المقام في مدينة جدة، وكان كذلك من اللاعبين المعروفين، وكان المرحوم زهران إسماعيل زهران، وهو حجازي معروف من عائلة الزهران في جدة، أحد اللاعبين البارزين في فريق الاتحاد، ولقد تلقى تعليمه كذلك في السودان، وكان هناك آخرون من

المصريين والعدنيين ممن لا تحضرني أسماؤهم، ولقد أدى هذا الاحتكاك بين هؤلاء اللاعبين الوافدين من الخارج وبين أبناء البلاد، إلى ظهور لاعبين ممتازين من بينهم، كان أبرزهم وأشهرهم المرحوم علي يماني، وكان يعمل في مهنة البناء في مدينة جدة، وما لبث أن أصبح نجم فريق الاتحاد وبطله المعروف، وكان إلى جانب ذلك لاعبون كثيرون تلقوا تدريبهم في هذا الفريق، وظهرت أسماؤهم فيه مثل حمزة فتيحي، الذي كان يعتبر من أشبال الاتحاد، وما لبث أن أصبح من أبطاله، بعد أن اشتد ساعده وتألقت قدراته، والواقع أننا لسنا بسبيل إحصاء اللاعبين وتسجيل أسمائهم، وإنما نقصد إلى إعطاء فكرة تمثل الصورة التي كان عليها الوضع بالنسبة لرياضة كرة القدم.

الفريق الرياضي :

وقد انسلخ من فريق الاتحاد فريق آخر سمى نفسه الفريق الرياضي، وهذا الفريق كان يضم الطبقة المتعلمة من أبناء العائلات، والذين رأوا في ذلك الزمن أن من الخير لهم أن يكونوا مستقلين عن فريق الاتحاد الذي كان يضم مختلف طبقات الشعب، وأيًّا كان الأمر فقد انسلخ هذا الفريق من الفريق الأم، وألف بنفسه فريقاً خاصاً له شخصيته المستقلة وكان رئيس هذا الفريق هو المرحوم حسين محمد نصيف مؤلف كتاب ماضي الحجاز وحاضره، والنجل الأكبر لكبير جدة في ذلك الزمان الأفندي الشيخ محمد نصيف، ومن أعضائه الأستاذ حمزة شحاتة، الأديب والشاعر المعروف، والمرحوم الشيخ أحمد زاهد من عائلة الزاهد المعروفة في جدة والشيخ عباس خميس، الذي كان موظفاً كبيراً في مديرية الحج العامة بجدة، والذي أصبح يطلق عليه فيما بعد (الكابتن) إشارة إلى صلته بالكرة، والشيخ محمد جار وكان حارس مرمى الفريق الرياضي، كما كان حمزة شحاتة هو الباك، ومن الغريب أن انفصال الفريق الرياضي عن الاتحاد أثر على علاقات بعض العائلات فلقد كان المرحوم الشيخ عمر نصيف (والد معالي الأستاذ عبد الله نصيف) من فريق الاتحاد بينما كان شقيقه الأكبر الأستاذ حسين نصيف هو رئيس الفريق الرياضي، وقد اتخذ الفريق الرياضي له ملعباً خاصاً في الجهة الجنوبية من مدينة جدة في منطقة باب شريف، بينما كان ملعب فريق الاتحاد شرق مدينة جدة خلف الثكنة العسكرية، والواقع أن فريق الاتحاد كان هو الفريق الأقوى، بما يضمه من لاعبين ممتازين، كما كان يحظى بالتشجيع الشعبي على نطاق واسع، سواء من الطبقات الشعبية أو المتعلمة وحينما تقابل الفريقان كانت الغلبة لفريق الاتحاد بصورة ساحقة.

الفريق المختلط :

ثم تألف في جدة فريق سمى نفسه الفريق المختلط، وكان يرأسه المرحوم صالح سنبل وكان هذا الفريق يضم اللاعبين الأجانب من أبناء عدن وأريتريا والسودان وغيرهم، وما لبث أن أصبح قوياً بما يضمه من لاعبين ممتازين أغلبهم، إن لم يكن جميعهم قد مارسوا اللعبة في بلادهم قبل أن يفدوا إلى الحجاز للعمل فيه، وأصبح هذا الفريق منافساً قوياً لفريق الاتحاد، وكان المرحوم صالح سنبل يفخر برئاسته لهذا الفريق و يقول لكل من يخاطبه «أنا شعر رأسي مختلط».

ميدالية فؤاد :

وحدث أن المرحوم الشيخ أحمد ناظر الذي كان من أبرز وجهاء جدة، ووالد الأستاذ فؤاد ناظر السفير السعودي في مصر سابقاً، وفي أمريكا الجنوبية حالياً، أعلن عن مباراة تقام بين الفرق الرياضية في مدينة جدة، وصنع ميدالية من الفضة، يحظى بها الفريق الفائز سماها «ميدالية فؤاد» وتقدم للتنافس على هذه الميدالية كل من فريق الاتحاد والفريق المختلط، أما الفريق الرياضي فقد نأى بنفسه عن الدخول في هذه المباراة التي يعرف أنه ليس نداً لها.

الفريق الأهلي بمكة المكرمة :

وكان في مكة المكرمة فريق رياضي جيد يلعب فيه كثيرون من إخواننا الجاويين المقيمين في مكة المكرمة، والذين سبق لهم مزاولة اللعبة في بلادهم، وكان فيهم لاعبون ممتازون أشهرهم اسمه (هارون فيرا) وقد لجأ فريق الاتحاد إلى استقدام لاعبين من هذا الفريق، لينضم إليهم للفوز بميدالية فؤاد في المباراة التي ستقام بينه وبين الفريق المختلط، وكان رئيس النادي الأهلي هو المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة الشاعر والأديب المعروف، وكان خصماً لدوداً لفريق الاتحاد، ولكن أصدقاءه في مدينة جدة ألحوا عليه في تناسي المنافسة والخصومة التي بين فريقه وفريق الاتحاد، لأن الموقف أصبح مباراة بين فريق من أبناء الوطن، وفريق من الأجانب، وأن واجب الوطنية يدعوه إلى تناسي ما بينه وبين أبناء وطنه، كما يقول المثل (أنا وابن عمي على الغريب) فاستجاب المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة بعد إلحاح شديد واستقدم بضعة لاعبين من الفريق الأهلي في مكة، وحضر معهم الأستاذ عمر فران الذي كان مسؤولاً عن إدارة النادي الأهلي بمكة، ونزلوا جميعاً بدار الأستاذ حمزة شحاتة، وحينما أقيمت المباراة وانضم إليها هؤلاء اللاعبون

الممتازون إلى جانب اللاعبين الممتازين من فريق الاتحاد، رجحت كفة الاتحاد وفاز بالميدالية العتيدة.

ومما أذكره عن فريق الاتحاد ومبلغ حماسة الشعب له، أن رجلاً معروفاً في جدة هو الشيخ علي قشلان، أصيب بنوبة قلبية حينما حقق الفريق المختلط الهدف الأول ضد فريق الاتحاد، وكان هو من المتفرجين بجانب المرمى، فذهب — رحمه الله — ضحية للكرة ولعله أول ضحية لها في تاريخ الكرة في الحجاز.

الألعاب الشعبية

الكبتْ - القال - الكورة القماش - البربر

الكبت:

كانت هناك لعبة شعبية أدركناها ونحن في سن الحداثة خلال الأربعينات هي لعبة الكبت، وكان اللاعبون ينقسمون إلى فريقين، ويوضع خط فاصل في نصف مساحة الملعب ويتقدم أحد الفريقين فيجتاز هذا الخط الفاصل إلى داخل المساحة المخصصة للفريق الآخر، محاولاً لمس أحد لاعبي الفريق الثاني، حيث يتحاشى أفراد هذا الفريق تمكينه من لمس أحدهم، فتبدأ المحاورة، فإذا استطاع لمس أحدهم في يده عاد مسرعاً إلى فريقه وهو يقول كبت، بفتح الكاف والباء وسكون التاء، فهي لعبة تعتمد على سرعة الحركة، وليس فيها غير المحاورة وعدم تمكين المهاجم من لمس أي أفراد الفريق الآخر.

القال:

أما لعبة القال فهي أشبه ما تكون بلعبة الكريكت الغربية، والمعروفة في هذه الأيام إذ ينقسم اللاعبون إلى فريقين. ويحملون العصي الغليظة ويضعون أحجاراً صغيرة في الأرض، يحاول كل فريق أن يجعلها تتعمق في أرض الفريق الآخر عند علامات محددة وهي لعبة فيها بعض الخطورة لأن هذه الأحجار قد تصيب بعض اللاعبين، إذا كان قريباً من محل وقوعها،

وهي تقذف بقوة شديدة بواسطة هذه العصي الغليظة، والواقع أن هذه اللعبة كما ذكرت تشبه لعبة الكريكت، إلا أن الأحجار الصغيرة فيها تستعمل بدلاً من الكور الصغيرة والعلامات بدلاً من الحفر التي تسقط فيها الكور.

لعبة الكريكت والتنس في جدة :

وكانت لعبة الكريكت معروفة في مدينة جدة، حيث يمارسها بعض الأوروبيين والأجانب المقيمين في البلدة، ويلعبونها خارج مدينة جدة، في منطقة باب جديد، وبالضبط في المنطقة المطلّة الآن على الكورنيش أمام البحيرة الصغيرة التي يطل عليها فندق البحر الأحمر وعمائر صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل، ولكنها لم تكن منتشرة كثيراً ذلك أن الجو الحار والرطب في مدينة جدة، وخاصة في أشهر الصيف لا يساعد على الحركة الكثيرة والمجهود اللازم لممارستها، وكان هناك ملعب للتنس بجوار السفارة البريطانية، وكان الأوروبيون كذلك يمارسون هذه اللعبة يومياً في هذا الملعب، وكنا نقف لمشاهدة اللاعبين وقد أدخل هذا الملعب مع دار السفارة البريطانية في توسعة شارع الذهب كما أسلفنا الحديث عن ذلك.

الكورة القماش :

وكانت لعبة الكورة القماش معروفة كذلك في الأربعينات والخمسينات، ومنتشرة بين الغلمان في حواري البلدة، وكان لها عدد معين معروف بين اللاعبين، وكانوا ينقسمون إلى فريقين،وكان قذفها يتم باليد ويحاول الفريق الآخر التقاط الكرة باليد ويتحدد الفوز بمقدار ما يلتقط كل فريق للكرة قبل وصولها إلى الأرض، والواقع أن هذه اللعبة هي مقدمة للعبة كرة القدم، ولقد كانت منتشرة في البلاد العربية الأخرى وكانوا في مصر يسمونها كرة الشراب نسبة إلى أن القماش الذي تتكون منه الكرة كان يحشى داخل شراب من الشراريب التي يلبسها المرء في القدم.

البربر :

وكانت هناك كذلك لعبة تسمى بربر، بكسر الباء، وسكون الراء، في الأربعة أحرف التي تتكون منها الكلمة، وهذه اللعبة كانت تؤدى بقدم واحدة، ووصفها أن يتم وضع قطع صغيرة مستديرة من الفخار في الأرض وتوضع حفر معينة في أماكن متفرقة من الملعب، ثم يقوم اللاعب

بدفع هذه القطع إلى هذه الحفر بقدمه اليمنى، بعد أن يرفع قدمه اليسرى إلى الركبة فيؤدي اللعبة بقدم واحدة وهو يحنجل حيث تكون الرجل الأخرى مرفوعة إلى الركبة، وعليه أن يحفظ توازنه لئلا يقع، كما عليه أن يسقط الفخار في الحفر المتباعدة.

كرة المائدة :

وكان في جدة في الأربعينات وأوائل الخمسينات محل في سوق الخاسكية أمام مسجد عكاش وكان لأحد الحلاقين الأتراك مكان للحلاقة، وفيه مائدة كبيرة للعب كرة المائدة «اليليياردو» وكنت أرى اللاعبين وهم يمسكون بالعصي و يدفعون الكرات إلى الثقوب التي في أطراف المائدة، و يبدو أن الحلاق كان يستعين بذلك على اجتلاب الزبائن للجمع بين الحلاقة واللعب.

الألعاب الذهنية

الشطرنج - الضومنة - الباصرة - الجوكر - البجيس - البلوت

أولاً :- بالطبع هي محرمه

إلى جانب الألعاب البدنية السابق وصفها كانت هناك الألعاب الذهنية إذا صح هذا التعبير، وكان أرقى هذه الألعاب هو الشطرنج، وكان لاعبوه فئة قليلة من المتعلمين، وكانوا يجلسون الساعات أمام مائدة الشطرنج، وهم يحركون البيادق ويحمون القلاع وكان ممن يتقنون هذه اللعبة أصدقاؤنا الأدباء حمزة شحاتة، وأحمد قنديل، —رحمهما الله— وكذلك الشيخ محمد علي عبده، مدير كنداسة جدة وكان له مجلس في بيته لإقامة مباريات الشطرنج مع هواتها، وأذكر أنه حضر إلى جدة رجل من الهند، وكان بارعاً في لعبة الشطرنج، فانتصب لمباراة خمسة أشخاص في وقت واحد وغلبهم جميعاً ولله في خلقه شؤون.

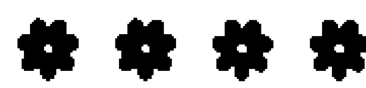
أما الضومنة أو الطاولة كما يسمونها الآن، وهي مأخوذة من الكلمة الأجنبية «دومينو» فكانت منتشرة في المقاهي والبيوت، وهي تعتمد على الزهر كما هو معروف، وهي لعبة سهلة ينفق الناس فيها أوقاتهم، و يتحمسون للنصر فيها على بعضهم البعض. والأبسط منها ألعاب الورق التي كانت سائدة في ذلك الزمان وهي الباصرة والجوكر وقد حل محل هذه الألعاب لعبة

البلوت التي لا تزال سائدة في هذا الوقت، والذي يقضي حتى المتعلمين والمثقفين ساعات من الليل وهم يزاولونها، وهي على العموم تعتمد على الذكاء وحسن التصرف أكثر من الألعاب السابقة التي تعتمد على الحظ وحده إن صح هذا التعبير.

وقد أدركت الناس في الأربعينات والخمسينات يلعبون البجيس، و يبدو لي أنها أشبه ما تكون بلعبة الشطرنج، ولكنها موسعة لأن عدد الأحجار المستعملة فيها أكبر، والمائدة التي ترص عليها هذه الأحجار أوسع، والواقع أن عدد لاعبي البجيس كان محدوداً للغاية كما أنني لا أستطيع وصف اللعبة لأني في الواقع لا أعرفها ولم أهتم بمعرفتها في ذلك الوقت.

الكِيـرَمْ :

وفي الخمسينات كانت هناك لعبة وردت من الهند اسمها «كيرم» بكسر الكاف المكدودة بالياء وفتح الراء وسكون الميم، وهي عبارة عن مائدة ترص الأحجار في وسطها و يوضع في دائرتها حجر أحمر بينما تتألف الأحجار الأخرى من لونين أسود وأبيض، وهذه الأحجار عبارة عن أخشاب صغيرة كالأقراص ويجلس أمامها لاعبان: أحدهما يعنى بإدخال الأحجار السوداء، والآخر يعنى بإدخال الأحجار البيضاء في ثقوب موجودة في أطراف المائدة الأربعة، والحجر الأحمر يحسب في التعداد بخمسة أحجار على ما أذكر وقد توقفت هذه اللعبة بعد أن انتشرت في البيوت انتشاراً كبيراً وحل محلها البلوت الذي طغى على ما عداه من الألعاب.



مراجع الكتاب

إسم الكتاب	المؤلف
● موسوعة تاريخ مدينة جدة	الأستاذ عبد القدوس الأنصاري
● أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
● لعنة هذا الزمن	الأستاذ محمد علي مغربي
● أدب الحجاز طبعة ١٣٤٤ هجرية	الشيخ محمد سرور الصبان
● وحي الصحراء	الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود الأستاذ عبد الله بلخير
● المعرض	الشيخ محمد سرور الصبان
● خواطر مصرحة	الأستاذ محمد حسن عواد
● تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية	الأستاذ عثمان حافظ
● ماضي الحجاز وحاضره	الأستاذ حسين محمد نصيف
● كتالوج رسومات الفنانة صفية بن زقر	
● مجموعة جريدة بريد الحجاز	
● مجموعة جريدة صوت الحجاز	
● محمد طاهر الدباغ	الأستاذ بكر الصباغ
● محمد علي زينل رضا	الأستاذ محمد أحمد الشاطري

فهرس الصور

الصــورة | الصفحــة

الصــورة	الصفحــة

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منهـا :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلاً		الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية		الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
• الظمـأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين باسلامة
• وقفـة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحدٍّ		الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي

• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا .. ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد علي مغربي

تحت الطبع :

• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس

• هكذا علمني وردزورث		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مشواري مع الكلمة		الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• لن تلحد		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
• الإسلام في نظر اعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• أيـامي..		الأستاذ أحمد السباعي
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
• دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
• من حديث الكتب		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري
• ألحان مغترب	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
• وحي الصحراء		الأستاذ عبد الله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
• إليهـــا	(شعر)	الأستاذ حسين سراج
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
• أحاديث		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
• الموت والابتسامة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• لجام الأقلام		الشيخ أبو تراب الظاهري
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منهـا :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
- مبادىء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبد الرحمن فكري، الدكتور محمد عبد الهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الانجليزية) — الدكتور أمين عبد الله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق

تحت الطبع :

- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن — الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد

• جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
• القرآن.. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
• أدباؤنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي بركات

رسائل جامعية

صدر منها:

• صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
• العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
• الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود
• الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان
• القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي
• الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
• تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
• نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
• افتراءات فليب حتي، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
• الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الأستاذ صدقة يحي فاضل

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها:

• القرد..
• الضب
• الثعلب
• الكلب
• الغراب
• الأرنب
• السلحفاة
• الجمل
• الذئب
• الأسد
• البغل
• الفأر..
• الحمار الأهلي
• الفراشة
• الخروف
• الفرس
• الدجاج
• البط
• الغزال
• الحمار الوحشي
• الببغاء
• الوعل
• الجاموس
• الحمامة